بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثالث والعشرون

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي وأصوله في جامعة دمشق

الجزء الثالث والعشرون

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

تتمة قصة أصحاب القرية

. تعذيب مكذبي الرسل .

﴿وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (٢٩) يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٣٢)﴾

الإعراب :

﴿وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ ما﴾ : إما زائدة وإما اسم معطوف على ﴿جُنْدٍ﴾.

﴿يا حَسْرَةً﴾ نداء مشابه للمضاف ، مثل : يا خيرا من زيد ، ويا سائرا إلى الشام ، ونداء مثل هذه الأشياء التي لا تعقل : تنبيه للمخاطبين ، كأنه يقول لهم : تحسّروا على هذا ، وادعوا الحسرة ، وقولوا لها : احضري فهذا وقتك.

﴿كَمْ أَهْلَكْنا .. كَمْ﴾ : اسم للعدد في موضع نصب ب ﴿أَهْلَكْنا﴾ و ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿كَمْ﴾. و ﴿كَمْ﴾ وما بعدها من الجملة في موضع نصب ب ﴿يَرَوْا﴾. و ﴿أَنَّهُمْ﴾ مفعول مقدر ، أي حكمنا أو قضينا أنهم لا يرجعون.

﴿وَإِنْ كُلٌّ .. لَمَّا إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة ، ولما خففت بطل عملها لنقصها عن مشابهة الفعل ، فارتفع ما بعدها بالابتداء. و ﴿لَمَّا جَمِيعٌ﴾ : خبره ، وما : زائدة ، وتقديره : لجميع ، وأدخلت اللام في خبرها ، لتفرق بينها وبين «إن» التي بمعنى «ما». ومن قرأ ﴿لَمَّا جَمِيعٌ﴾ بالتشديد ، فمعناه «إلا» و «إن» بمعنى «ما» وتقديره : وما كل إلا جميع ، فيكون ﴿كُلٌّ﴾ مرفوعا بالابتداء ، و ﴿جَمِيعٌ﴾ خبره. و ﴿مُحْضَرُونَ﴾ خبر ثان.

البلاغة :

في الآيات المتقدمة من مطلع السورة إلى هنا يوجد فيها ما يسمى بمراعاة الفواصل ، الذي يزيد في روعة البيان القرآني ، ويؤثر في سمع التالي والمستمع.

المفردات اللغوية :

﴿وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي لم ننزل على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له. ﴿مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ﴾ الجند : العسكر ، والمراد هنا الملائكة لإهلاكهم وللانتقام منهم. ﴿وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ملائكة لإهلاك أحد ، لسبق قضائنا وقدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة ، لا بإنزال الجند ، وهذا للدلالة على أن إنزال الجنود من عظائم الأمور ، وهو تحقير لشأنهم ، وتصغير لأمرهم ، فهم ليسوا أهلا لأن ننزل لإهلاكهم جندا من السماء ، بل أهلكناهم بصيحة واحدة. ﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً﴾ أي ما كانت عقوبتهم إلا أن صاح بهم جبريل ، فأهلكهم. ﴿فَإِذا هُمْ خامِدُونَ﴾ ساكتون هامدون ميتون لا يسمع لهم حسّ ، كالرماد الخامد ، فالخمود : انطفاء النار ، والمقصود به هنا الموت.

﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ﴾ الحسرة : الغم على ما فات ، والندم عليه ، والعباد : هؤلاء ونحوهم ممن كذب الرسل ، فأهلكوا ، ونداء الحسرة مجاز ، أي هذا أوانك فاحضري. ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ هذا سبب الحسرة وهو الاستهزاء المؤدي إلى إهلاكهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا أي أهل مكة القائلون للنبي : لست مرسلا ، والاستفهام للتقرير ، أي اعلموا. ﴿كَمْ﴾ خبرية بمعنى كثيرا ، والمعنى : إنا ﴿أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ﴾ كثيرا. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ الأمم : ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ أي ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم بعد هلاكهم ، وضمير ﴿أَنَّهُمْ﴾ عائد للمهلكين ، وضمير ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عائد للمكذبين ، أفلا يعتبرون بذلك؟! ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ إِنْ﴾ : نافية بمعنى ما ، و ﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلّا ، ويصح جعل «إن» مخففة من الثقيلة ، ولما : بالتخفيف ، واللام فارقة ، وما : مزيدة. ﴿جَمِيعٌ﴾ مجموعون في الموقف بعد بعثهم. ﴿لَدَيْنا﴾ عندنا ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للحساب.

المناسبة :

هذه الآيات تتمة قصة أصحاب القرية ، أبان الله تعالى فيها حال المكذبين رسلهم ، وأوضح سنة الله في أمثالهم في العذاب الدنيوي ، ثم ما يتعرضون له من

العذاب الأخروي. وذكرت هنا في بدء الجزء ، لأن عد الأجزاء مراعى فيه العدّ اللفظي لا الاتصال المعنوي.

التفسير والبيان :

﴿وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي لم ننزل على قوم المؤمن حبيب النجار من بعد قتلهم له ، لدعوتهم إلى الإيمان بالله ، جندا من الملائكة ، وما كنا بحاجة إلى هذا الإنزال ، بل كان الأمر أيسر علينا من ذلك ، وقد سبق قضاؤنا بأن إهلاكهم بالصيحة ، لا بإنزال الجند.

وهذا لتحقير شأنهم ، فإن إنزال الملائكة لعظائم الأمور ، وهؤلاء لا يحتاجون لإهلاكهم جندا من السماء ، بل أهلكناهم بصيحة واحده ، كما قال تعالى :

﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، فَإِذا هُمْ خامِدُونَ﴾ أي ما كان إهلاكهم إلا بصيحة واحدة صاح بهم جبريل ، فأهلكهم ، فإذا هم أموات لا حراك بهم. وقوله : ﴿إِنْ كانَتْ﴾ أي الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة ، وقوله : ﴿واحِدَةً﴾ تأكيد لكون الأمر هينا عند الله ، وقوله : ﴿فَإِذا هُمْ خامِدُونَ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك.

﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ، ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي يا هؤلاء الذين كذبتم الرسل تحسروا حسرة أليمة ، واندموا على ما فعلتم ، بسبب أنه ما جاء رسول يدعو إلى التوحيد والحق والخير إلا استهزئ به وكذّب وجحد ما أرسل به من الحق. فقوله ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ﴾ أي هذا وقت الحسرة على مكذبي الرسل ، وتنكير ﴿حَسْرَةً﴾ للتكثير. وسبب التحسر عليهم : أنهم لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية. ولا متحسر أصلا في الحقيقة ، إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة ، حيث ظهرت الندامة عند مواجهة العذاب ومعاينته. وقيل : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل.

ثم أنذر الله تعالى الأجيال الحاضرة والمستقبلة فقال :

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كعاد وثمود ، وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا ، خلافا لما يزعم الدّهرية الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، كما حكى الله تعالى عنهم بقوله : ﴿وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ، وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ ..﴾ [الجاثية ٤٥ / ٢٤].

ثم أعلمهم أيضا بوجود الحساب والعقاب في الآخرة بعد عذاب الدنيا ، فقال تعالى :

﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ، فيجازيهم بأعمالهم كلّها خيرها وشرها ، وهذا كقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ﴾ [هود ١١ / ١١١].

وهذا دليل على أنه ليس من أهلكه الله تركه ، بل بعده جمع وحساب ، وحبس وعقاب ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، كما قال القائل :

ولو أنّا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حيّ

ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شيّ

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن تكذيب الرسل ما جاؤوا به من الحق يستدعي مزيد الألم والندامة والحسرة.

٢ ـ لا رجعة لأحد إلى الدنيا بعد الموت أو الإهلاك.

٣ ـ إن يوم القيامة يوم الجزاء والحساب والثواب والعقاب الدائم.

أدلة القدرة الإلهية على البعث وغيره

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (٤٤)﴾

الإعراب :

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها﴾ خبر للأرض ، والجملة خبر لآية أو صفة لها.

﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ما﴾ : إما اسم موصول في موضع جر بالعطف على ﴿ثَمَرِهِ﴾. و ﴿عَمِلَتْهُ﴾ : الصلة ، والهاء : العائد ، وإما أنها نافية في قراءة «عملت» بغير هاء ، والوجه الأول أوجه ، لاحتياج «عملت» لتقدير مفعول إذا كانت «ما» نافية. ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ الْقَمَرَ﴾ إما مرفوع بالابتداء ، و ﴿قَدَّرْناهُ﴾ الخبر ، وإما منصوب بتقدير فعل دل عليه.

﴿قَدَّرْناهُ﴾ أي قدرنا القمر قدرناه. و ﴿مَنازِلَ﴾ أي قدرناه ذا منازل ، فحذف المضاف ، أو قدرنا له منازل ، فحذف حرف الجر من المفعول الأول.

﴿حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ ..﴾ الكاف في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿عادَ﴾ وهو العامل فيه و ﴿كَالْعُرْجُونِ﴾ : وزنه فعلول نحو زنبور وقرقور ، وليس على وزن فعلون لأنه ليس في كلام العرب.

﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أن وصلتها في تأويل المصدر في موضع رفع فاعل : ﴿يَنْبَغِي﴾.

وقرئ ﴿سابِقُ النَّهارِ﴾ بالجر بالإضافة ، وسابق النهار ، لأن التقدير : سابق النهار ، فحذف التنوين لالتقاء الساكنين.

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ آيَةٌ﴾ مبتدأ ، وخبره إما ﴿لَهُمْ﴾ وإما ﴿أَنَّا حَمَلْنا﴾.

﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ صَرِيخَ﴾ : مبني مع لا على الفتح ، ويجوز فيه الرفع مع التنوين ، لتكرار «لا» مرة ثانية.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا رَحْمَةً﴾ : منصوب بتقدير حذف حرف الجر ، أي إلا برحمة ، أو مفعول لأجله.

البلاغة :

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ التنكير للتعظيم ، أي آية عظيمة دالة على قدرة الله على البعث وغيره.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها﴾ بين الموت والإحياء طباق.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ﴾ بين الليل والنهار طباق أيضا ، وفي قوله ﴿نَسْلَخُ﴾ استعارة تصريحية ، صرح فيها بلفظ المشبه به ، حيث شبه إظهار ضوء النهار من ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة ، واستعار كلمة «السلخ» للإزالة والإخراج.

﴿حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ تشبيه مرسل مجمل لأنه لم يذكر فيه وجه الشبه ، وهو مشتمل على ثلاثة أوضاع : الدقة ، والانحناء ، والصفرة.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها ..﴾ قدم الفاعل على الفعل لتقوية النفي ، وللدلالة على أن الشمس مسخرة بأمر الله ، لا تسير في مدارها إلا بإرادة الله.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فيه تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ، حيث عبر عن الشمس والقمر والنجوم بضمير جمع المذكر في قوله ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بدل : يسبح ، لأن السباحة من صفات العقلاء.

﴿يَأْكُلُونَ﴾ و ﴿الْعُيُونِ﴾ و ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿مُظْلِمُونَ﴾ و ﴿يَسْبَحُونَ﴾ و ﴿الْمَشْحُونِ﴾ و ﴿يَرْكَبُونَ﴾ سجع لطيف غير متكلف ، وكذا في قوله ﴿الْعَلِيمِ﴾ و ﴿الْقَدِيمِ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ علامة دالة على البعث. ﴿الْمَيْتَةُ﴾ التي لا نبات فيها ، وتقرأ بتخفيف الياء أو بالتشديد ، والأول أشيع لسلسها على اللسان. ﴿أَحْيَيْناها﴾ بالماء فصارت حية بالنبات. ﴿وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا﴾ المراد جنس الحب كالحنطة. ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم الصلة (الجار والمجرور) على الفعل للدلالة على أن معظم ما يؤكل ويعاش به هو الحب. ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذات أشجار مثمرة كالنخيل والأعناب. ﴿وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ﴾ فتّحنا وشققنا فيها شيئا من العيون.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ثَمَرِهِ﴾ يقرأ بفتحتين وضمتين ، أي ثمر المذكور من النخيل وغيره. ﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل : ما : نافية أي لم تعمل الأيدي الثمر بل العامل له هو الله ، والأصح : أنها اسم موصول عطف على الثمر ، والمراد : ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما. ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ أنعم الله تعالى عليهم وهو أمر بالشكر ، من طريق إنكار تركه. ﴿سُبْحانَ﴾ تنزيها لله عما لا يليق به. ﴿الْأَزْواجَ كُلَّها﴾ الأنواع والأصناف المختلفة. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي وخلق الأزواج من أنفسهم ، وهم الذكور والإناث من بني آدم. ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ من أصناف المخلوقات العجيبة في البرّ والبحر ، والسماء والأرض ، مما لم يطلعهم الله عليه ، ولم يجعل لهم طريقا إلى معرفته.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ﴾ أي وعلامة دالة لهم على القدرة العظيمة وتوحيد الله ووجوب ألوهيته. ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ﴾ نفصل منه النهار ونزيله عنه ، والسلخ : إذهاب الضوء ، ومجيء الظلمة. ﴿فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام مفاجأة وبغتة. ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها﴾ آية مستقلة أخرى ، تطلع وتسير لحد معين ينتهي إليه جريانها ودورها. ﴿ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي ذلك الجري تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، ﴿الْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم.

﴿قَدَّرْناهُ مَنازِلَ﴾ أي جعلنا له منازل ، والمنازل : جمع منزل ، والمراد به المسافات التي يقطعها القمر في يوم وليلة ، وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها ، فإذا صار في آخرها وهو حينئذ دقيق قوس ، عاد إلى أولها. ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما ،

وليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين يوما. والمنازل معروفة : وهي الشّرطان ، البطين ، الثّريّا ، الدّبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذّراع المبسوطة ، النّثرة ، الطّرف ، الجبهة ، الزّبرة ، الصّرفة ، العوّاء ، السّماك الأعزل ، الغفر ، الزّبانى ، الإكليل ، القلب ، الشّولة ، النّعائم ، البلدّة ، سعد الذّابح ، سعد بلع ، سعد السّعود ، سعد الأخبية ، الفرغ المقدم ، الفرغ المؤخّر ، الرّشاء وهو بطن الحوت.

﴿حَتَّى عادَ﴾ في آخر منازله في رأي العين. ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ كالشمراخ المعوج ، لأنه إذا عتق يرق ويتقوس ويصفر. و ﴿الْقَدِيمِ﴾ العتيق.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها﴾ لا يصح لها ويسهل. ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في سرعة سيره ، فتجتمع معه في الليل ، لأن لكل واحد منهما مدارا منفردا ، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر ، وإن كانت في نظر العين تسبق الشمس القمر في كل شهر مرة.

والخلاصة : أن حرف النفي ﴿لَا﴾ للدلالة على أنها مسخرة ، لا يتيسر لها إلا ما أريد بها. ﴿وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ﴾ أي لا يأتي قبل انقضائه ، ولا يسبقه ، ولكن يأتي عقبه ، ويجيء كل واحد منهما في وقته ، ولا يسبق صاحبه. ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه ، أي وكل من الشمس والقمر وبقية الكواكب والنجوم. ﴿فِي فَلَكٍ﴾ هو المدار الذي يدور فيه الكوكب ، سمي به لاستدارته كفلكة المغزل. ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون فيه بسهولة ، وقد نزّلوا منزلة العقلاء.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ علامة دالة على قدرتنا. ﴿أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وقرئ : ذرياتهم أي أولادهم ومن يهمهم حمله الذين يبعثونهم للتجارة ، وأصل الذرية : صغار الأولاد ، ثم استعملت في الصغار والكبار ، وتطلق على الواحد والجمع ، وقيل : المراد آباؤهم الأقدمون الذين في أصلابهم هم وذرياتهم ، وإنما امتن الله عليهم بذكر الذرية دونهم ، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، وأدخل في التعجيب من قدرته ، في حمل أصولهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ السفينة المملوءة ، قيل : إنها سفينة نوح عليه السلام.

﴿وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي أوجدنا بتعليمهم صناعة السفن الصغار والكبار والزوارق ، مثل سفينة نوح عليه السلام ، وقيل : المراد الإبل ، فإنها سفائن البر. ﴿ما يَرْكَبُونَ﴾ فيه ، ولعل ذلك إشارة إلى المركبات والقطارات والطائرات المستحدثة. ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ إن نرد أغرقناهم مع إيجاد السفن. ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ لا مغيث. ﴿وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ ينجون. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ﴾ أي لا أحد ينقذهم وينجيهم إلا بإنقاذنا لرحمة وتمتيع إياهم بلذاتهم إلى انقضاء آجالهم.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى ما يدل على الحشر بإحضار جميع الأمم إليه يوم القيامة

للحساب والجزاء ، ذكر ما يدل على إمكان البعث بإنبات النبات من الأرض الجدباء بالمطر ، وإيجاد البساتين وتفجير الأنهار ، لتوفير سبل المعاش بها ، مما يستدعي شكرهم على تلك النعم.

وبعد بيان أحوال الأرض التي هي المكان الكلي ، ذكر أربع آيات دالة على قدرته العظيمة من أحوال الأزمنة ، وهي تعاقب الليل والنهار ، ودوران الشمس ، ومسير القمر في منازله ، وتخصيص مدار مستقل لكل من الشمس والقمر.

ثم أردف ذلك بدليل آخر دال على القدرة المقترنة بالرحمة وهو تنقل الأولاد والأجيال في السفن العابرة مياه البحار.

التفسير والبيان :

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا ، فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي ومن العلامات الدالة على وجود الله وقدرته على البعث وإحياء الموتى : إحياء الأرض الهامدة التي لا نبات فيها ، بإنزال الماء عليها ، وجعلها تموج وتهتز بالنبات المختلف الألوان والأشكال ، وإخراج الحب الذي هو رزق للعباد ولأنعامهم ، وهو معظم ما يؤكل ، وأكثر ما تقوم به الحياة والمعاش. وكما نحيي الأرض الميتة نحيي الموتى.

﴿وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي وأوجدنا في الأرض التي أحييناها بساتين مشجرة من نخيل وأعناب وغيرها ، وجعلنا فيها أنهارا موزعة في أماكن مختلفة ، يحتاجون إليها. وخصص النخيل والأعناب بالذكر من بين سائر الفواكه ، لأن ألذ المطعوم الحلاوة ، وهي فيها أتم ، ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة خلافا لغيرهما ، ولأنهما أعم نفعا.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ أي إن القصد من إنشاء الحب والجنات أن يأكل المخلوقون من ثمر المذكور من النخيل والأعناب ، ويأكلوا مما صنعته أيديهم من تلك الغراس والزروع أو الحبوب والثمار ، كالعصير والدبس ونحوهما ، وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم ، لا بقدرتهم وقوتهم ، فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟! وهذا أمر بالشكر من طريق إنكار تركه.

وقوله ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ عائد إلى ما ذكر قبل ذلك ، وقال الرازي : المشهور أنه عائد إلى الله. وقوله : ﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ يشمل في رأي الرازي الزراعة والتجارة.

ولما أمرهم تعالى بالشكر ، وشكر الله بالعبادة ، نبّه إلى أنهم لم يقتنعوا بالترك ، بل عبدوا غيره ، وأتوا بالشرك ، فقال :

﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ أي تنزيها عن الشريك لله الذي خلق الأنواع والأصناف كلها من مختلف الألوان والطعوم والأشكال ، من الزروع والثمار والنبات ، وخلق من النفوس الذكور والإناث ، وخلق مخلوقات شتى لا يعرفونها ، كما قال تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٨] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٤٩].

والخلاصة : أن خالق هذا الخلق العظيم من إنسان وحيوان ونبات وخالق أشياء لا نعلمها منزه عن الشريك والنظير ، قادر على كل شيء ، وفي الآية الأمر بالتنزيه عما لا يليق بالله تعالى ، كالأمر بالشكر في الآية المتقدمة.

وبعد الاستدلال على إمكان البعث والحشر بأحوال الأرض المكانية ، ذكر تعالى أدلة أربعة من أحوال الأزمنة ، فقال :

١ ـ ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ ، فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي ومن أدلة قدرته تعالى العظيمة : خلق الليل والنهار ، وتعاقب الليل والنهار دائبين ، فينزع النهار من الليل فيأتي بالضوء وتذهب الظلمة ، وينزع الليل من النهار ، فيصبح الخلق في ظلمة ويذهب الضوء ، وهكذا يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال تعالى : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ [الأعراف ٧ / ٥٤] نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق ، فتشرق الشمس على نصف الكرة الأرضية ، وتغيب عن النصف الآخر ، وفي كل من الظلمة والنور نفع وخير ، ففي الظلام ترك العمل وسكون النفس والراحة من العناء ، وفي النور متعة ولذة وحركة وعمل من أجل كسب الرزق.

وقوله ﴿فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام ، وإذا للمفاجاة ، أي فهم داخلون في الظلمة مفاجأة وبغتة ، لا يد لهم بعدئذ ، ولا بد من الدخول فيه.

٢ ـ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي وآية مستقلة دالة على قدرته تعالى : دوران الشمس في فلكها إلى نهاية مدارها ، وذلك الدوران تقدير من الله القاهر الغالب كل شيء ، المحيط علمه بكل شيء. وهناك قولان للمفسرين في تفسير المستقر : الأول ـ أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي وجميع المخلوقات تحت العرش. والثاني ـ أن المراد مستقرها الزماني وهو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة [١].

وقد أثبت علماء الفلك أنه زيادة على دوران الشمس الظاهري وسط النجوم بسبب دوران الأرض حول الشمس مرة في السنة ، للشمس حركتان أخريان :

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٥٧١ وما بعدها.

دورة حول محورها مرة في كل ست وعشرين يوما تقريبا ، ودورة مع توابعها من الكواكب السيارة حول مركز النظام النجومي بسرعة تقدر بنحو مائتي ميل في الثانية. والمستقر في رأي العلماء في الحالة الأولى : هو المحور الثابت ، وفي الثانية : هو مركز النظام النجومي بأسره.

٣ . ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي جعل الله للقمر منازل يسير فيها سيرا آخر ، وهي ثمانية وعشرون منزلا ذكرناها ، ينزل كل ليلة في واحد منها بمعدل ١٣ درجة في اليوم ، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما ، وليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين يوما ، فإذا صار القمر في آخرها دق وصغر واصفر وتقوس ، وعاد إلى أولها ، حتى صار كالعرجون القديم : وهو الغصن الذي عليه طلع النخلة ، وهو أصفر عريض يعوجّ ، ويقطع منه الشماريخ ، يبقى على النخل يابسا.

ويستدل بمنازل القمر على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ : هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِ﴾ [البقرة ٢ / ١٨٩] وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً ، وَالْقَمَرَ نُوراً ، وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾ [يونس ١٠ / ٥] وقال تبارك وتعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٢]. والشمس تطلع كل يوم ، وتغرب في آخره ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفا وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ، ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار. وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور ، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء مقتبسا من الشمس ، حتى يتكامل في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم ـ عرجون النخل.

وعلماء الفلك قسموا النجوم التي تقع حول مدار القمر ثمانيا وعشرين مجموعة تسمى منازل القمر. وقد كان العرب يعرفون بها الأنواء (أي الأمطار) ، ويقيسون بالنسبة إليها مواقع الكواكب السيارة ومنها الشمس.

٤ . ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي لا يصح ولا يسهل لكل من الشمس والقمر أن يدرك أحدهما الآخر ، لأن لكل منهما مدارا مستقلا ، لا يجتمع مع الآخر فيه ، ولأن الشمس تسير مقدار درجة في اليوم ، والقمر يسير مقدار (١٣) درجة في اليوم.

ولا تسبق آية الليل وهي القمر آية النهار وهي الشمس ، لأن لكل منهما مجالا وسلطانا ، فسلطان الشمس ومجالها بالنهار ، وسلطان القمر بالليل.

وكل من الشمس والقمر والأرض يسبح ويدور في فلكه في السماء ، كما يسبح السمك في الماء ، فالشمس تسير في مدار لها نصف قطره (٩٣) مليون ميل ، وتتم دورتها في سنة ، والقمر يدور حول الأرض كل شهر في مدار نصف قطره (٢٤) ألف ميل ، والأرض تدور حول الشمس في سنة ، وحول نفسها في يوم وليلة.

وهذا دليل على أن الله جعل لكل من الشمس والقمر والأرض مدارا مستقلا يدور فيه ، فلا يحجب أحدهما ضوء الآخر إلا نادرا حينما يحدث كسوف الشمس أو خسوف القمر.

وبعد بيان الدليل المكاني وهو الأرض والأدلة الزمنية الأربعة المتقدمة ، أتى تعالى بدليل آخر على قدرته ، وهو تسيير الإنسان في البحر كما يسير في البر ، كما قال تعالى : ﴿وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء ١٧ / ٧٠] وقال هنا :

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي ومن دلائل قدرته ورحمته تبارك وتعالى : تسخيره البحر ليحمل السفن ، وركوب الذرية ، أي الأولاد في السفن المملوءة بالبضائع التي ينقلونها من بلد إلى آخر ، لتوفير القوت

والمعاش ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ ، لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٣١].

وقيل : الذرية : آباؤهم الذين حملوا في سفينة نوح عليه السلام ، وهي السفينة المملوءة بالأمتعة والحيوانات التي أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، حفاظا على أصول المخلوقات. والمعنى : أن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح.

﴿وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ﴾ أي وخلقنا للناس مثل تلك السفن سفنا برية وهي الإبل ، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبون عليها ، لكن قال الرازي : الضمير في ﴿مِثْلِهِ﴾ عائد إلى الفلك ، على قول الأكثرين ، فيكون هذا كقوله تعالى : ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ﴾ [صلى الله عليه وآله وسلم ٣٨ / ٥٨] وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود في زمانهم ، وليس المراد الإبل.

ويؤيد هذا قوله تعالى هنا : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾. ولو كان المراد الإبل ، لكان قوله : ﴿وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ﴾ فاصلا بين متصلين. ويحتمل أن يعود الضمير إلى معلوم غير مذكور تقديره : من مثل ما ذكرنا من المخلوقات ، مثل قوله تعالى هنا : ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾[1] وعلى هذا ، الآية تشمل كل وسائل النقل الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات. ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٨].

ودليل رحمته ولطفه تعالى حفظ الركاب في تلك الوسائط ، فقال : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ، فَلا صَرِيخَ لَهُمْ ، وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أي وإن نرد إغراقهم في الماء مع حمولاتهم ، فلا مغيث لهم يغيثهم مما هم فيه ، أو ينجيهم من الغرق ، ولا هم ينقذون مما أصابهم.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦ / ٨١ ، تفسير الألوسي : ٢٣ / ٢٧

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ إِلَّا﴾ هنا : استثناء منقطع ، تقديره : ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ، ونحفظكم من الغرق ، ونسلمكم إلى أجل مسمى ، ونمتعكم بالحياة الدنيا إلى وقت معلوم عند الله عَزَّوَجَلَّ ، وهو الموت.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ من الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده وكمال قدرته على البعث وإحياء الموتى وغير ذلك : إحياء الأرض الهامدة بالنبات الأخضر ، وإخراج الحب منه ، الذي هو قوام الحياة وأساس القوت والمعاش.

٢ ـ ومن الأدلة أيضا خلق بساتين في الأرض من نخيل وأعناب ، وتفجير الينابيع في البساتين للأكل من ثمر ماء العيون ، أو من ثمر المذكور وهو ثمر الجنات والنخيل ، ومن الذي عملته أيدي الناس من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما اتخذوا من الحبوب كالخبز وأنواع الحلويات.

وخصص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنهما أعلى الثمار ، كما تقدم.

٣ ـ تستوجب هذه النعم شكر الخالق المنعم المتفضل ، وشكره بعبادته ، والإذعان لسلطانه وإرادته.

٤ ـ يجب تنزيه الخالق عما لا يليق به ، والبعد عن صنيع الكفار الذين عبدوا غير الله ، مع ما رأوا من نعمه وآثار قدرته.

٥ ـ إن آثار قدرة الله ومظاهرها في العالم كثيرة ، منها خلق النباتات والثمار المختلفة والألوان والطعوم والأشكال والأحجام صغرا وكبرا. ومنها خلق الأولاد

والأزواج أي ذكورا وإناثا ، ومنها خلق أصناف أخرى لا يعلمها البشر في البر والبحر والسماء والأرض.

وإذا كان الله قد انفرد بالخلق ، فلا ينبغي أن يشرك به.

٦ ـ ومن العلامات الدالة أيضا على توحيد الله وقدرته ووجوب ألوهيته : تعاقب الليل والنهار وما يتبعهما من ظلمة وضوء لتحقيق مصالح العباد ، وضبط السنين والحساب ، وجريان الشمس لمستقرّ لها هو محورها أو نهاية سيرها يوم القيامة ، وتقدير القمر ذا منازل هي ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها ، فإذا صار في آخرها ، عاد إلى أوّلها ، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة ، ثم يستتر ، ثم يطلع هلالا ، فيعود في قطع الفلك على المنازل ، وهي منقسمة على البروج ، لكل برج منزلان وثلث.

ومنها جعل مدار مستقل وسلطان منفرد لكل من الشمس والقمر والأرض ، فلا يدخل أحدها على الآخر ، وإنما كل من الشمس والقمر والنجوم يجري في فلك خاص به.

٧ ـ ومن دلائل قدرة الله ورحمته : حمل ذرية القرون الماضية والحاضرة والمقبلة في السفن المملوءة بالسلع والأمتعة ، وخلق وسائط أخرى للركوب مماثلة للسفن وهي الإبل سفائن البراري ، ووسائل النقل الحديثة في البر والجو من سيارات وقطارات وطائرات ومناطيد (أو مطاود) ونحوها.

والله قادر على إغراق ركاب السفن في البحار ، فيصبحون دون مغيث ولا مجير ولا منقذ مما ألم بهم ، ولكن رحمته تعالى اقتضت إبقاءهم وإنقاذهم ليتمتعوا بمتاع الحياة الدنيوية إلى آجالهم المرسومة ، وأعمارهم المحدودة ، والتمتع إلى حين هو الموت.

وقد عجّل الله عذاب الأمم السالفة ، وأخّر عذاب أمة محمد صلي الله عليه وآله وسلم ، وإن كذبوه ، إلى يوم القيامة ، تكريما لهذا الرسول ص.

موقف الكفار من تقوى الله وآيات الله والشفقة على خلق الله

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٧)﴾

البلاغة :

﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بين الكفر والإيمان طباق.

﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ استفهام أريد به التهكم.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ﴾ للكفار ﴿اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ﴾ احذروا ما هو قدّامكم من الآفات والنوازل وعذاب الدنيا ، وما ستواجهون من عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا راجين لرحمة الله. وجواب إذا محذوف تقديره : أعرضوا ، دل عليه الآية التي بعدها.

﴿إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ أي ما تأتيهم من آية من آيات القرآن إلا أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إليها ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي قال فقراء الصحابة ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ أي تصدقوا على الفقراء من الأموال التي رزقكم الله ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ استهزاء بهم ، وتهكما بقولهم. ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ في زعمكم ومعتقدكم ، وقولكم : إن الرزاق هو الله ، فكأنهم حاولوا إلزام المسلمين قائلين : نحن نوافق مشيئة الله ، فلا نطعم من لم يطعمه الله ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي ما أنتم في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا إلا في ضلال واضح ، حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله. ويجوز أن يكون هذا جوابا لهم ، أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

وهذا غلط منهم ، ومكابرة ومجادلة بالباطل ، فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه ، وأفقر بعضا لحكمة يعلمها ، وأمر الغني أن يطعم الفقير ، وابتلاه به فيما فرض عليه من الصدقة ، ليعلم الطائع من العاصي علم بيان وانكشاف ، وإقامة حجة وبرهان.

المناسبة :

بعد بيان الآيات الدالة يقينا وقطعا على وجود الله وتوحيده وقدرته التامة ، أخبر الله تعالى أن الكفار مع هذا الدليل القاطع يعرضون عن آيات ربهم ، ولا يعترفون بها ، وشأن العاقل الاقتناع بها ، ولكن هؤلاء لا يتقون الله ، ولا يحذرون بأن يصيبهم مثل هلاك الأمم الغابرة ، ولا يفكرون في آيات الله ، وليس في قلوبهم رحمة أو شفقة على عباد الله ، فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة ، وليسوا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم الماضية ، ولا بما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ، فيقول :

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المعرضين عن آيات الله ، المكذبين بها : احذروا أن يصيبكم مثلما أصاب من قبلكم من الأمم ، مما هو قدّامكم ، من الآفات والنوازل وعذاب الدنيا ، وخافوا ما أنتم مقدمون عليه بعد الهلاك من عذاب الآخرة ، إذا أصررتم على الكفر حتى الموت ، لعل الله يرحمكم باتقائكم ذلك ، ويحميكم من عذابه ، ويغفر لكم.

وإذا قيل لهم ذلك أعرضوا عنه ، وإذا قيل لهم : اتقوا لا يتقون.

وليس إعراضهم مقتصرا على ذلك ، بل هم عن كل آية معرضون ، كما قال تعالى :

﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ أي وما تجيء هؤلاء المشركين آية من آيات الله على التوحيد وصدق الرسل إلا شأنهم الإعراض عنها ، وعدم الالتفات إليها ، وترك التأمل بها ، وعدم الانتفاع بها ، لتعطيل طاقة الفكر والنظر المرشد إلى الإيمان وتصديق الرسول ص.

وفضلا عن سوء الاعتقاد بالله ورسوله صلي الله عليه وآله وسلم ، تركوا الشفقة على خلق الله ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ : أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾؟ أي وإذا طلب منهم الصدقة ، وأمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج ، أجابوا المؤمنين استهزاء بهم ، وتهكما بقولهم : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم : لو شاء الله لأغناهم ، ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم.

وكان هذا الاحتجاج باطلا ، لأن الله تعالى إذا ملّك عبدا مالا ، ثم أوجب عليه فيه حقا ، فكأنه انتزع ذلك القدر منه ، فلا معنى للاعتراض. وقد صدقوا في قولهم : لو شاء الله أطعمهم ، ولكن كذبوا في الاحتجاج بذلك.

وقوله : ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ ترغيب في الإنفاق ، فإن الله رزقكم ، فإذا أنفقتم فهو يخلف لكم الرزق ثانيا كما رزقكم أولا ، وهو أيضا ذم على البخل الذي هو في غاية القبح ، فإن أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير ، وفي هذا ذم لهم على ترك الشفقة على خلق الله.

ومع هذا كله ، عابوا الآمرين لهم بالإنفاق واتهموهم بالضلال ، فقالوا تتمة لكلامهم : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي ما أنتم في أمركم لنا بالإنفاق إلا في خطأ واضح ، وانحراف عن جادة الهدى والرشاد.

وقوله ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا ..﴾ يفيد الحصر. وهذا فهم خطأ من المشركين ، لأن حكمة الله اقتضت تفاوت الناس في الرزق ، فهو يقبض الرزق عمن يشاء ، ويبسطه لمن يشاء ، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى ٤٢ / ٢٧] فقد أغنى قوما ، وأفقر آخرين ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالعطاء والشكر : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى﴾ [الليل ٩٢ / ٥ ـ ١٠].

وقال ابن جرير عن قوله تعالى : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ : ويحتمل أن يكون من قول الله عَزَّوَجَلَّ للكفار حين ناظروا المؤمنين ، وردوا عليهم ، فقال لهم : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ قال ابن كثير : وفي هذا نظر ، والله أعلم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أمور ثلاثة هي :

أولا ـ إن المشركين قوم تمادوا في الغي والضلال والعناد والكبر ، ولم يتأملوا في أحداث الماضي ، ووقائع الزمان ، وأحوال الأمم التي أهلكهم الله بتكذيبهم رسلهم ، ولم ينظروا في مستقبل الحياة الآخرة ، فتراهم إذا قيل لهم : اتقوا الله ، لا يتقون.

ثانيا ـ وهم أيضا شأنهم وديدنهم الإعراض عن آيات الله ، والتكذيب لها ، وعدم الانتفاع بها ، لتركهم النظر المؤدي إلى الإيمان بالله وتصديق الرسول صلي الله عليه وآله وسلم.

ثالثا ـ كما أنهم أخلّوا بتعظيم الخالق ، حرموا العطف والشفقة على الإنسانية ، وانعدمت عندهم عاطفة الرحمة بالمخلوقات ، إذ قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله ، فبخلوا وتهكموا ، وهو شأن البخلاء في كل عصر.

إنكار الكفار يوم البعث وبيان أنه حق لا شك فيه

﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)﴾

الإعراب :

﴿يَخِصِّمُونَ﴾ الأصل : يختصمون بوزن «يفتعلون» فحذف حركة التاء ، ولم ينقلها إلى الخاء ، وأبدل من التاء صادا ، وأدغم الصادين ببعضهما ، وكسر الخاء لسكونها وسكون الصاد الأولى ، لأن الأصل في التقاء الساكنين الكسر. وقرئ ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الياء والخاء ، بنقل تتمة التاء إلى الخاء ، وقرئ أيضا ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بكسر الياء والخاء ، وقد كسر الياء اتباعا لكسرة الخاء ، والكسر للاتباع كثير في كلامهم ، مثل قسيّ وعصي وخفي. وقرئ «يخصمون» كيضربون ، أي يخصم بعضهم بعضا.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل ﴿فَإِذا هُمْ﴾ إذا هنا ظرفية للمفاجاة.

﴿يا وَيْلَنا﴾ إما منادى مضاف ، فويل : هو المنادي ، ونا : هو المضاف إليه ، ونداء الويل كنداء الحسرة في قوله تعالى : ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ﴾. وإما أن يكون المنادي محذوفا ، و ﴿وَيْلَنا﴾ منصوب على المصدر ، كأنهم قالوا : يا هؤلاء ويلا لنا ، فلما أضيفت حذفت اللام الثانية.

﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ﴾ مبتدأ وخبر ، و ﴿ما﴾ مصدرية أو موصولة محذوفة العائد.

البلاغة :

﴿مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾ استعارة ، شبه حال موتهم بحال نومهم ، أي من بعثنا من موتنا.

﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي تقول لهم الملائكة ذلك ، أي وعدكم به الرحمن.

المفردات اللغوية :

﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ﴾ متى يتحقق ويجيء ما وعدتمونا به وهو وعد البعث ﴿ما يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً﴾ هي نفخة إسرافيل الأولى في الصور ، وهي التي يموت بها أهل الأرض جميعا ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي تأخذهم الصيحة فجأة في غفلة عنها ، وهم يتخاصمون في معاملاتهم ومتاجرهم وأكلهم وشربهم وغير ذلك.

﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أن يوصوا في شيء من أمورهم بما لهم وما عليهم ﴿وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يستطيعون الرجوع من أسواقهم وأشغالهم إلى منازلهم ، بل يموتون فيها ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي نفخ فيه النفخة الثانية للبعث ، وبين النفختين أربعون سنة ﴿فَإِذا هُمْ﴾ المقبورون ﴿مِنَ الْأَجْداثِ﴾ القبور ﴿إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ يخرجون بسرعة ، أو يسرعون.

﴿قالُوا﴾ أي الكفار منهم ﴿يا وَيْلَنا﴾ يا هلاكنا ، والويل : مصدر لا فعل له من لفظه وهو الهلاك ﴿مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾؟ من أخرجنا من موتنا ، لأنهم بسبب ما رأوا من الهول ، وما داهمهم من الفزع ، ظنوا أنهم كانوا نياما ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ﴾ أي هذا البعث الذي وعد به الرحمن ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي وصدق فيه الأنبياء المرسلون ، والمعنى : رجعوا إلى أنفسهم ، فاعترفوا أنهم كانوا في الموت وبعثوا ، وأقروا بصدق الرسل يوم لا ينفع التصديق أو الإقرار.

﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ أي ما كانت الفعلة إلا النفخة الأخيرة التي نفخها إسرافيل في الصور ، فإذا هم مجموعون عندنا بسرعة بمجرد تلك الصيحة للحساب والجزاء والعقاب. قال البيضاوي : وفي كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر ، واستغناؤهما عن الأسباب المألوفة في الدنيا. وتنكير ﴿صَيْحَةً﴾ للتكثير.

﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك ، تصويرا للموعود ، وتمكينا له في النفوس.

المناسبة :

بعد بيان إعراض الكفار عن التقوى ، وامتناعهم من الإنفاق ، أبان الله تعالى سبب ذلك وهو إنكارهم للبعث ، واستعجالهم له ، استهزاء به ، ثم أوضح أنه حق لا مرية فيه ، وأنه سيأتيهم الموت بغتة ، وهم في غفلة عنه ، وأن البعث أمر سهل على الله لا يحتاج إلا إلى نفخة واحدة في الصور.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم :

﴿وَيَقُولُونَ : مَتى هـذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْـتُمْ صـادِقِينَ﴾؟ أي ويقول المشركون استعجالا للبعث استهزاء وسخرية وتهكما بالمؤمنين : متى يأتي هذا الوعد بالبعث الذي وعدتمونا به ، وتهددونا به ، إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدون؟!

والخطاب للرسول صلي الله عليه وآله وسلم والمؤمنين الذين دعوهم إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، فأجابهم الله تعالى :

﴿مـا يَنْظُـرُونَ إِلَّا صَـيْحَةً واحِـدَةً تَأْخُـذُهُمْ وَهُـمْ يَخِصِّـمُونَ﴾ أي ما ينتظرون للعذاب والقيامة إلا نفخة واحدة في الصور ، هي نفخة الفزع التي يموت بها جميع أهل الأرض فجأة ، وهم يختصمون فيما بينهم في البيع والشراء ونحوهما من أمور الدنيا أي وهم متشاغلون في شؤون الحياة من معاملة وحديث وطعام وشراب وغير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٩٥] وقال سبحانه : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٦٦].

وقوله جل وعز : ﴿إِلَّا صَـيْحَةً واحِـدَةً﴾ هي النفخة الأولى في الصور ، كما قال عكرمة ، ويؤيده ما رواه ابن جرير عن ابن عمر قال : لينفخنّ في الصور ،

والناس في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم ، حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومانه ، فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ في الصور ، فيصعق به ، وهي التي قال الله : ﴿ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ، وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم: «لتقومنّ الساعة ، وقد نشر الرجلان ثوبهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ الساعة ، والرجل يليط [1] حوضه ، فلا يسقي منه ، ولتقومنّ الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (نعجته) ، فلا يطعمه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه (فمه) ، فلا يطعمها».

ثم أبان تعالى سرعة حدوث الموت العام أو الصيحة ، فقال :

﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما له من أملاك وما عليه من ديون ، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم ، ولا يتمكنون من الرجوع إلى منازلهم التي كانوا خارجين عنها.

ثم أخبر الله تعالى عن نفخة ثانية هي نفخة البعث والنشور من القبور ، فقال :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ أي ونفخ في الصور نفخة ثانية للبعث والنشور من القبور ، فإذا جميع المخلوقين يخرجون من القبور ، يسرعون المشي إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً ، كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج ٧٠ / ٤٣].

ثم ذكر ما يطرأ عليهم بعد البعث من الأهوال والمخاوف فقال تعالى :

﴿قالُوا : يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾ أي قال المبعوثون : يا هلاكنا من الذي بعثنا من قبورنا بعد موتنا؟ وهي قبورهم التي كانوا يعتقدون في دار

---

(١) يليط حوضه ، وفي رواية : «يلوط حوضه» أي يطينه.

الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، وظنوا لما شاهدوا من الأهوال وما استبد بهم من الفزع ، أنهم كانوا نياما.

وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي هذا ما وعد به الله وصدق في الإخبار عنه الأنبياء المرسلون ، فهم رجعوا إلى أنفسهم ، فاعترفوا أنهم بعثوا من الموت ، وأقروا بصدق الرسل ، يوم لا ينفع التصديق. فهذا الكلام من قول الكفار ، وهو رأي عبد الرحمن بن زيد ، واختاره الشوكاني وغيره.

واختار ابن جرير وابن كثير أن هذا جواب الملائكة أو جواب المؤمنين ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿وَقالُوا : يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ. هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ٢٠ ـ ٢١].

ثم أوضح الله تعالى سرعة البعث ، فقال :

﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة ، فإذا هم أحياء مجموعون لدينا بسرعة للحساب والجزاء ، كما قال تعالى : ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات ٧٩ / ١٣ ـ ١٤] وقال عزّ وجلّ : ﴿وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل ١٦ / ٧٧].

وأردف بعدئذ ما يكون في ذلك من القضاء العادل ، فقال تعالى :

﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في يوم القيامة لا تبخس نفس شيئا من عملها مهما قلّ ، ولا توفون إلا ما عملتم من خير أو شر.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ كان الرد الحاسم على استعجال الكفار قيام الساعة استهزاء أنها تأتي فجأة كلمح البصر أو هي أقرب ، وتحدث بنفخة واحدة هي نفخة إسرافيل في وقت يختصم الناس في أمور دنياهم ، فيموتون في مكانهم. وهذه نفخة الصّعق.

٢ ـ من آثار الموت المفاجئ بتلك النفخة أنهم لا يتمكنون من العودة إلى ديارهم إذا كانوا خارجين منها ، ولا يستطيعون الإيصاء إلى غيرهم بما لهم وما عليهم. وقيل : لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضا بالتوبة ، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم.

٣ ـ ثم تأتي النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور من القبور ، فهما نفختان ، لا ثلاث ، بدليل هذه الآية : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾. وروى المبارك بن فضالة عن الحسن البصري قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «بين النفختين أربعون سنة ، الأولى يميت الله بها كل حيّ ، والأخرى يحيي الله بها كلّ ميت».

٤ ـ يتعجب أهل البعث ويذهلون ويفزعون مما يرون من شدائد الأهوال ، فيتساءلون عمن أخرجهم من قبورهم ، مفضلين عذاب القبر ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

٥ ـ النفخة الثانية أيضا وهي نفخة البعث والنشور سريعة جدا ، فإذا حدثت تجمّع الناس جميعا وحضروا مسرعين إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء ، كما قال تعالى : ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر ٥٤ / ٨].

٦ ـ الحساب حق وعدل ، والجزاء قائم على العدل المطلق ، فلا ينقص من

ثواب العمل أي شيء مهما قل ، ولا يجزى الناس إلا على وفق ما عملوا من خير أو شر.

جزاء المحسنين

﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨)﴾

الإعراب :

﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ أَصْحابَ﴾ : اسم ﴿إِنَ﴾ ، وخبرها : إما ﴿فِي شُغُلٍ﴾ وإما ﴿فاكِهُونَ﴾. و ﴿فِي شُغُلٍ﴾ : متعلق ب ﴿فاكِهُونَ﴾ ويجوز أن يكونا خبرين. ولا يجوز جعل ﴿فَالْيَوْمَ﴾ خبرا ، لأنه ظرف زمان ، وظروف الزمان لا تكون أخبارا عن الجثث. و ﴿فَالْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرف ، وعامله ﴿فِي شُغُلٍ﴾ وتقديره : إن أصحاب الجنة كائنون في شغل اليوم.

﴿هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ هُمْ﴾ : مبتدأ ، ﴿وَأَزْواجُهُمْ﴾ : عطف عليه ، و ﴿مُتَّكِؤُنَ﴾ : خبر المبتدأ ، و ﴿فِي ظِلالٍ﴾ : متعلق ب ﴿مُتَّكِؤُنَ﴾. و ﴿عَلَى الْأَرائِكِ﴾. صفة ل ﴿ظِلالٍ﴾ ويجوز جعل : ﴿فِي ظِلالٍ﴾ و ﴿عَلَى الْأَرائِكِ﴾ و ﴿مُتَّكِؤُنَ﴾ أخبارا متعددة لمبتدأ واحد.

﴿لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ فاكِهَةٌ﴾ : مبتدأ ، و ﴿لَهُمْ﴾ : خبره ، و ﴿فِيها﴾ : معمول الخبر ، وهو ﴿لَهُمْ﴾ ويجوز جعل كل من ﴿لَهُمْ﴾ و ﴿فِيها﴾ خبرين للمبتدأ الذي هو ﴿فاكِهَةٌ﴾ ، ويجوز أيضا جعل ﴿لَهُمْ﴾ وصفا ل ﴿فاكِهَةٌ﴾ فلما تقدم صار في موضع نصب على الحال ، ويجوز أيضا جعل ﴿فِيها﴾ صفة ل ﴿فاكِهَةٌ﴾ فلما تقدم عليها صار في موضع نصب على الحال.

﴿وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ ما﴾ : إما اسم موصول بمعنى الذي : مبتدأ ﴿وَلَهُمْ﴾ خبره ، وصلته : ﴿يَدَّعُونَ﴾ ، والعائد محذوف ، وإما نكرة موصوفة ، وصفتها ﴿يَدَّعُونَ﴾ وإما مصدرية ، فتكون مع ﴿يَدَّعُونَ﴾ في تأويل المصدر. ويدعون أي يتمنون ويشتهون ، وأصله (يدتعيون) بوزن يفتعلون فأبدل من التاء دالا ، ونقلت حركة الياء إلى ما قبلها ، فسكنت الياء ، والواو بعدها ساكنة ، فاجتمع ساكنان ، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين.

﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ سَلامٌ﴾ : بدل مما يدعون ، مرفوع على البدل من ﴿ما﴾ أي ولهم أن يسلم الله عليهم ، وهذا منى أهل الجنة. و ﴿قَوْلاً﴾ : مصدر مؤكد لقوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ سَلامٌ﴾ قال الزمخشري : والأوجه أن ينتصب على الاختصاص. ويصح جعل ﴿سَلامٌ﴾ وصفا ل ﴿ما﴾ إذا جعلتها نكرة موصوفة ، أي ولهم شيء يدعونه سلام ، ويصح جعله خبرا ل ﴿ما﴾.

المفردات اللغوية :

﴿فِي شُغُلٍ﴾ الشغل : الشأن الذي يشغل الإنسان عما سواه ، إما لمسرة أو لمساءة. والمراد به هنا : أنهم مشغولون بما هم فيه من اللذات ، بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، يشتغلون بذلك عن الاهتمام بأمر أهل النار. وهو شغل متعة ، لا شغل تعب ، لأن الجنة لا نصب فيها. ﴿فاكِهُونَ﴾ متنعمون متلذذون. ﴿فِي ظِلالٍ﴾ جمع ظل ، وهو ما لا تصيبه الشمس. ﴿الْأَرائِكِ﴾ جمع أريكة : وهو السرير المزيّن في قبة أو بيت ، أو الفراش ، فالأرائك : الأسرّة التي في الحجال. ﴿يَدَّعُونَ﴾ أي يتمنون ويشتهون.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى حدوث البعث لا شك فيه ، وما يكون في يوم القيامة من الجزاء العادل ، بيّن هنا ما أعده للمحسنين ، ثم أعقبه في الآيات التالية بما أعده للمسيئين ، ترغيبا في العمل الصالح ، وترهيبا من سوء الأعمال.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن حال أهل الجنة فيقول :

﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ﴾ أي إن المؤمنين الصالحين إذا نزلوا في روضات الجنات يوم القيامة ، كانوا في شغل عن غيرهم ، بما يتمتعون به من اللذات ، والنعيم المقيم ، والفوز العظيم ، بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

فهم في شغل عما فيه أهل النار من العذاب ، وهم متنعمون متلذذون معجبون بالنعيم.

وليس التمتع وحدهم وإنما هم في أنس وسرور مع أزواجهم ، فقال تعالى :

﴿هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ ، عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ﴾ أي إنهم وحلائلهم في الجنة في ظلال الأشجار التي لا تصيبها الشمس ، لأنه لا شمس فيها ، وهم فيها متكئون على السرر المستورة بالخيام والحجال (المظلة الساترة). والأرائك كما بينا : الأسرّة التي في الحجال. وهذه المتعة في الظلال ، وعلى الأسرّة والفرش الوثيرة الناعمة هي حلم الإنسان وغاية ما يطمح إليه.

والمتعة ليست روحية وإنما هي مادية ، فقال تعالى :

﴿لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ ، وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ﴾ أي تقدم لهم الفواكه من جميع أنواعها ، ولهم غير ذلك كل ما يتمنون ويشتهون ، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذّ.

وقوله : ﴿لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ﴾ ولم يقل «يأكلون» إشارة إلى اختيارهم وملكهم وقدرتهم.

والنعمة الأسمى من كل ما يجدون : سلام الله عليهم ، فقال تعالى :

﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ أي إن ما يتمنونه هو تحية الله لهم بالسلام أي الأمان من كل مكروه ، يقول لهم : سلام عليكم يا أهل الجنة ، كما قال تعالى : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ : سَلامٌ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٤٤] أو بوساطة الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ : سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد ١٣ / ٢٣ . ٢٤] والمعنى أن الله يسلم عليهم بوساطة الملائكة ، أو بغير وساطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك متمناهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يلي :

١ ـ إن أصحاب الجنة يتمتعون فيها متعة مادية وليست روحية فقط ، فهم في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي في النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم.

٢ ـ يتمتع أهل الجنة بنعيمها هم وأزواجهم ، تحت ستور تظللهم ، وعلى الأرائك (أي السّرر في الحجال ، كالناموسيات) متكئون.

٣ ـ لهم أنواع من الفاكهة لا تعد ولا تحصى ، ولهم كل ما يتمنون ويشتهون ، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

٤ ـ ولهم أكمل الأشياء وآخرها الذي لا شيء فوقه وهو السلام من الله الرب الرحيم ، إما بوساطة الملائكة ، أو بغير وساطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك أقصى ما يتمنونه.

جزاء المجرمين

﴿وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ

عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : ألم أعهد إليكم بألا تعبدوا ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به.

البلاغة :

﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ .. وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ بينهما طباق السلب ، أحدهما سلب والآخر إيجاب.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ.

﴿فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ﴾ بين المضي والرجوع طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَامْتازُوا﴾ تميزوا وانفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم ، أي ويقال للمجرمين : اعتزلوا في الآخرة عن الصالحين. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أوصي وآمر على لسان رسلي ، والعهد: الوصية ، وهذا من جملة ما يقال لهم تقريعا وإلزاما للحجة. ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ ألا تطيعوه ، والمراد : عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، مما زين به الشيطان وأمر به. ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بيّن العداوة. ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحدوني وأطيعوني ، أي ألم أعهد إليكم بترك عبادة الشيطان ، وبعبادتي. ﴿هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي طريق معتدل قويم ، وهو دين الإسلام.

﴿جِبِلًّا﴾ خلقا وجمعا عظيما ، جمع جبيل كقديم ، وقرئ بضم الباء. ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ عداوة الشيطان وإضلاله لكم. ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في الدنيا على ألسنة الرسل. ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ادخلوها وقاسوا حرها بسبب كفركم بالله في الدنيا ، وطاعتكم للشيطان ، وعبادتكم للأوثان.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ﴾ أي نمنعها من الكلام ، والمراد أفواه الكفار. ﴿وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ وغيرها ، بأن يخلق الله فيها القدرة على الكلام. ﴿بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي يقترفون ، فكل عضو ينطق بما صدر منه ، قال البيضاوي : أي بظهور آثار المعاصي عليها ، ودلالتها على أفعالها ، أو بإنطاق الله تعالى إياها. ﴿لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ﴾ أي أعميناهم ، والطمس : إزالة

الأثر بالمحو. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ﴾ أي ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ليمصوا فيه. ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي فكيف يبصرون الطريق والحق حينئذ؟ أي لا يبصرون.

﴿لَمَسَخْناهُمْ﴾ أي لو شئنا تغيير صورتهم إلى صورة أخرى قبيحة. ﴿عَلى مَكانَتِهِمْ﴾ أي مكانهم ، بحيث يجمدون فيه ، وقرئ : مكاناتهم جمع مكانة ، بمعنى مكان ، أي في منازلهم. ﴿فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا﴾ ذهابا. ﴿وَلا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعا ، أي لم يقدروا على ذهاب ولا عودة.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ ومن نطل عمره. ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ نغير خلقه ونقلبه فيه ، ونجعله على عكس ما كان عليه أولا من القوة والطراوة ، فيصبح بعد قوته وشبابه ضعيفا هرما.

﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ؟﴾ أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسخ والبعث ، فيؤمنوا.

المناسبة :

بعد بيان حال المحسنين في الآخرة ، أعقبه تعالى ببيان حال المجرمين في الدنيا والآخرة ، ففي الآخرة يميزون عن المؤمنين ، ويصلون نار جهنم خالدين فيها أبدا بسبب كفرهم واتباع وساوس الشيطان ، وفي الدنيا لم يعاجلهم بالعقوبة رحمة منه ، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم ، أو يمسخ صورهم ويجعلهم كالقردة والخنازير ، وأعطاهم الفرصة الكافية من العمر في الدنيا ليتمكنوا من النظر والاهتداء ، قبل أن يضعفوا ويعجزوا عن البحث والإدراك ، وذلك تحذير واضح لهم.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن حال الكفار يوم القيامة بتمييزهم عن المؤمنين في موقفهم ، فيقول :

﴿وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقال للمجرمين الكافرين في الآخرة : تميزوا في موقفكم عن المؤمنين ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس ١٠ / ٢٨] وقال سبحانه : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ١٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٤٣] أي يصيرون صدعين فرقتين.

أو المراد : يمتاز المجرمون بعضهم عن بعض ، فاليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة ، والماديون والملحدون فرقة ، وهكذا.

ثم أبان الله تعالى سبب تمييزهم عن غيرهم ، موبخا ومقرعا لهم على كفرهم ، فقال :

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي ألم أوصكم وآمركم وأتقدم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم ألا تطيعوا الشيطان فيما يوسوس به إليكم من معصيتي ومخالفة أمري ، فإن الشيطان ظاهر العداوة لكم ، بدءا من أبيكم آدم عليه السلام .

وبعد النهي عن عبادة غير الله أمر تعالى بعبادته ، فقال :

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي وأن وحّدوني وأطيعوني فيما أمرتكم به ، ونهيتكم عنه ، وهذا المأمور به والمنهي عنه هو الطريق المعتدل القويم ، وهو دين الإسلام.

ثم أخبر الله تعالى عن مساعي الشيطان في إضلال السابقين ، فقال :

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي لقد أغوى الشيطان خلقا كثيرا ، وزين لهم فعل السيئات ، وصدهم عن طاعة الله وتوحيده ، أفلم تعقلوا عداوة الشيطان لكم ، وتبتعدوا عن مثل ضلالات السابقين ، حتى لا تعذبوا مثلهم.

ثم بيّن الله تعالى مآل أهل الضلال قائلا لهم يوم القيامة تقريعا وتوبيخا :

﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي هذه النار التي وعدتم بها في الدنيا وحذرتكم منها على ألسنة الرسل فكذبتموهم ، وقد برزت لهم لإرهابهم.

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ادخلوها وذوقوا حرها اليوم ، بسبب كفركم بالله في الدنيا ، وتكذيبكم بها ، وطاعتكم للشيطان ، وعبادتكم للأوثان.

وفي هذا الكلام إشارة إلى شدة ندامتهم وحسرتهم من وجوه ثلاثة [١] :

١ ـ قوله تعالى : ﴿اصْلَوْهَا﴾ وهو أمر تنكيل وإهانة ، كقوله تعالى لفرعون : ﴿ذُقْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٤ / ٤٩].

٢ ـ قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي يدل على أن العذاب حاضر ، وأن لذاتهم قد مضت ، وبقي العذاب اليوم.

٣ ـ قوله تعالى : ﴿بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الذي ينبئ عن الكفر بنعمة عظيمة ، وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام ، كما قال بعضهم :

أليس بكاف لذي نعمة حياء المسيء من المحسن

ثم أبان الله تعالى مدى مواجهتهم بالجرم الذي ارتكبوه دون أن يستطيعوا إنكاره ، فقال:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي في هذا اليوم الرهيب ، يختم الله على أفواه الكافرين والمنافقين ختما لا يقدرون معه على الكلام ، ويستنطق جوارحهم بما عملت ، فتنطق أيديهم وأرجلهم بما اقترفت ، ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعوانا لهم على المعاصي ، صارت شهودا عليهم.

وجعل الكلام للأيدي والشهادة للأرجل ، لأن أكثر الأفعال تتم بمباشرة الأيدي ، كما قال تعالى : ﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس ٣٦ / ٣٥] وقال سبحانه : ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٥] أي ولا تلقوا بأنفسكم ،

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦ / ١٠١

والشاهد على العمل ينبغي أن يكون غيره ، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود ، لتعذر إضافة الأفعال إليها.

روى مسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي صلي الله عليه وآله وسلم قال : «يقول العبد يوم القيامة : لا أجيز علي إلا شاهدا من نفسي ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بعمله ، ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا لكنّ وسحقا ، فعنكنّ كنت أناضل».

ثم أوضح الله تعالى بعض مظاهر قدرته عليهم من إذهاب البصر والمسخ وسلب الحركة ، فقال :

﴿وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ ، فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ ، فَأَنَّى يُبْصِرُونَ؟﴾ أي ولو نريد لأذهبنا أعينهم وأعميناهم ، فصاروا لا يبصرون طريق الهدى ، فلو بادروا إلى الطريق المألوفة لهم ليسلكونها ، لم يستطيعوا ، وكيف يبصرون الطريق وقد ذهبت أبصارهم؟

﴿وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ ، فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا ، وَلا يَرْجِعُونَ﴾ أي لو شئنا لبدّلنا خلقهم ، وحولنا صورهم إلى صور أخرى أقبح منها كالقردة والخنازير ، وهم في أمكنتهم ومواضعهم التي هم فيها يرتكبون السيئات ، فلا يتمكنون من الذهاب والمضي أمامهم ، ولا الرجوع وراءهم ، بل يلزمون حالا واحدا ، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

ثم حذرهم من تفويت فرصة الشباب والعمر ، فقال تعالى :

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ، أَفَلا يَعْقِلُونَ؟﴾ أي ومن نطل عمره ، نرده إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط ، أفلا يدركون ويتفكرون أنهم كلما تقدمت بهم السن ، ضعفوا وعجزوا عن العمل؟ وأننا أعطيناهم الفرصة

الكافية من العمر للبحث والنظر والتفكير الصحيح ، فإذا طالت أعمارهم بعدئذ أكثر من ذلك ، فلن يفيدهم طول العمر شيئا. وفي هذا قطع لأعذارهم بأنه لم تتوافر لديهم الفرصة المواتية للبحث والنظر.

والآية مثل : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم ٣٠ / ٥٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١ ـ إن سياسة العزل للمجرمين ستطبق في الآخرة بنحو تام وشامل ، فيميز المجرمون عن المؤمنين ، تحقيرا لهم ، وإعدادا لسوقهم إلى نار جهنم ، وذلك حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ، فيقال لهم : اخرجوا من جملتهم.

وقال الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض ، فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة.

٢ ـ يعاتب الكفار سلفا في الدنيا قبل أن يعاقبوا في الآخرة ، فيقال لهم من جهة الحق : ألم أوصكم وأبلّغكم على ألسنة الرسل ألا تطيعوا الشيطان في معصيتي ، وأن توحدوني وتعبدوني ، فإن عبادتي دين قويم.

٣ ـ يؤكد تعالى تحذيره من الشيطان قائلا : لقد أغوى الشيطان بوساوسه خلقا كثيرا ، أفلا تعتبرون بالآخرين ، وألا تعقلون عداوته ، وتعلموا أن الواجب طاعة الله تعالى.

٤ ـ وتقول خزنة جهنم للكفار : هذه جهنم التي وعدتم ، فكذبتم بها. روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قال : «إذا كان يوم القيامة ، جمع الله الإنس

والجن والأوّلين والآخرين في صعيد واحد ، ثم أشرف عنق من النار على الخلائق ، فأحاط بهم ، ثم ينادي مناد : ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فحينئذ تجثو الأمم على ركبها ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها﴾ [الحج ٢٢ / ٢] ، ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى ، وَما هُمْ بِسُكارى ، وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج ٢٢ / ٢]».

٥ ـ إن أعضاء الإنسان التي كانت أعوانا في حق نفسه ، صارت عليه شهودا في حق ربّه. والسبب في التعبير بكلام الأيدي وشهادة الأرجل أن اليد مباشرة للعمل ، فتحتاج إلى شهادة غيرها.

ومن وقائع الشهادة يوم القيامة أن المشركين قالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٣] فيختم الله على أفواههم ، حتى تنطق جوارحهم.

٦ ـ لو شاء الله لأعمى الكفار عن الهدى ، فلا يبصرون طريقا إلى منازلهم ولا غيرها ، ولكنه لم يفعل رحمة بهم ، وليتمكنوا من النظر الصحيح المؤدي إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له.

٧ ـ ولو شاء الله لبدل خلقة الكفار إلى ما هو أقبح منها جزاء على كفرهم ، ولجعلهم حجرا أو جمادا أو بهيمة ، كالقردة والخنازير ، وحينئذ لا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ، ولا يرجعوا وراءهم ، كما أن الجماد لا يتقدم ولا يتأخر ، ولكنه تعالى أيضا لم يفعل ، لرحمته الواسعة.

٨ ـ لا حاجة لإطالة أعمار الناس أكثر مما قدر تعالى لهم ، لأنه كلما طال العمر ازداد الإنسان ضعفا. والمقصود بالآية ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ ..﴾ الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ، ولهذا قال تعالى في ختام الآية : ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم

صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ، ولا انتقال عنها ، ولا محيد عنها ، وهي الدار الآخرة. ثم أفلا يعقلون أن من فعل هذا بهم قادر على بعثهم مرة أخرى؟!

إثبات وجود الله ووحدانيته وبيان خواص الرسالة

﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (٧٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾

الإعراب :

﴿فَمِنْها رَكُوبُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم ، وقرئ : ركوبهم وركوبتهم ، وهما ما يركب ، كالحلوب والحلوبة. حذف التاء من الأول ، كقولهم : امرأة صبور وشكور ، وكلاهما بمعنى مفعول.

البلاغة :

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ بين الجملتين ما يسمى بالمقابلة ، قابل بين الإنذار والإعذار ، وبين المؤمنين والكفار.

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً﴾ استعارة تمثيلية ، شبه قيامه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمرا بيديه ، ويتقنه بذاته ، واستعار لفظ العمل للخلق.

﴿وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ﴾ بعد قوله : ﴿فَمِنْها رَكُوبُهُمْ﴾ عام بعد خاص ، لتعظيم النعمة.

﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ استفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ.

﴿يُسِرُّونَ﴾ و ﴿يُعْلِنُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ تشبيه بليغ ، أي كالجند في الخدمة والدفاع.

المفردات اللغوية :

﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ﴾ رد لقول المشركين في مكة : إن محمدا شاعر ، وما أتى به من القرآن شعر ، أي ما علمناه الشعر ، بتعليم القرآن ، فإنه لا يماثله لفظا ولا معنى ، لأنه غير موزون ولا مقفّى ، والشعر : كلام موزون مقفّى. فالضمير في ﴿عَلَّمْناهُ﴾ للنبي ص. ﴿وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي ما يصح له الشعر ، ولا يتأتى منه ، ولا يسهل عليه لو طلبه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي ما القرآن إلا عظة أو موعظة وإرشاد من الله. ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي وكتاب سماوي مظهر للأحكام والشرائع وغيرها ، يتلى في أثناء العبادة.

﴿لِيُنْذِرَ﴾ القرآن أو الرسول صلي الله عليه وآله وسلم ﴿مَنْ كانَ حَيًّا﴾ عاقلا ما يخاطب به فهما ، أو حيّ القلب ، مستنير البصيرة. ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ يجب العذاب ويثبت. ﴿عَلَى الْكافِرِينَ﴾ الذين يصيرون إلى الكفر ، وهم كالميتين لا يعقلون ما يخاطبون به. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا ، والاستفهام للتقرير ، والواو الداخلة على ﴿لَمْ﴾ للعطف. ﴿أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ﴾ للناس. ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا﴾ مما تولينا إحداثه وعملناه وأبدعناه بلا شريك ولا معين ﴿أَنْعاماً﴾ هي الإبل والبقر والغنم ، وخصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع. ﴿فَهُمْ لَها مالِكُونَ﴾ متملكون ، ضابطون قاهرون ، يتصرفون بها كيف شاؤوا ، ولو خلقناها وحشية لنفرت منهم ، ولم يقدروا على ضبطها. ﴿وَذَلَّلْناها لَهُمْ﴾ سخرناها لهم ، وجعلناها منقادة لهم. ﴿فَمِنْها رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبهم. ﴿وَمِنْها يَأْكُلُونَ﴾ ما يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ﴾ كأصوافها وأوبارها وأشعارها. ﴿وَمَشارِبُ﴾ من لبنها ، جمع مشرب بمعنى الموضع ، أو المصدر. ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ المنعم بها عليهم فيؤمنوا ، إذ لو لا خلقه لها وتذليله إياها لما حصّلوا هذه المنافع المهمة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً﴾ من الأصنام ونحوها يعبدونها ، ولا قدرة لها على شيء ، ولا فائدة منها. ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ رجاء أن ينصروهم في وقت الأزمات والشدائد. ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي لا تستطيع آلهتهم مناصرتهم في شيء ما ، وقد نزلوا منزلة العقلاء. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أي وهم لآلهتهم من الأصنام جنود يذودون عنهم ، ثم هم محضرون في النار معهم. ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ فلا يهمّك قولهم في الله بالإلحاد والشرك ، وفيك بالتكذيب ، قائلين

لك : لست مرسلا. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ﴾ نعلم السر والجهر ، فنجازيهم عليه ، وهو تعليل النهي على الاستئناف.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أصلين من أصول الدين الثلاثة ، وهما الوحدانية في قوله : ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ والبعث أو الحشر في قوله : ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ .. اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة في الآيتين الأوليين : ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ ...﴾ الآية.

ثم إنه تعالى أعاد الكلام على الوحدانية وأقام الأدلة الدالة عليها في بقية هذه الآيات.

التفسير والبيان :

ينفي الحق تبارك وتعالى صفة الشعر عن القرآن ، وخاصية الشاعرية عن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم ، فيقول :

﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي ليس النبي شاعرا ، وما يصح له الشعر ، ولا يتأتى منه ولا يسهل عليه لو طلبه ، فليس هو في طبعه ، ولا يحبه ، وقد جعله الله أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وإنما علمه الله قرآنا هو أسمى من الشعر ، ونوع آخر غير الشعر.

والشعر : كلام عربي له وزن خاص ، ينتهي كل بيت منه بحرف خاص يسمى قافية ، ولا بد في القصيدة من وحدة القافية ، أي الحرف الأخير من كل بيت. ويعتمد الشعر على الخيال الخصب ، والتصوير الرائع ، والعاطفة المشبوبة ، ولا يتبع الشاعر فيه ما يمليه العقل والمنطق ، ولا يتحرى الصدق والدقة في إرسال أوصاف المديح والهجاء والرثاء والغزل وغير ذلك ، ويبالغ الشاعر في التصوير والوصف ، وما همّه إلا انتزاع الإعجاب من السامعين بقوله ، لذا وصف

تعالى الشعراء بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢٢٥ ـ ٢٢٦] وقال العرب : أعذب الشعر أكذبه قال أبو حيان : والشعر: إنما هو كلام موزون مقفّى ، يدل على معنى تنتخبه الشعراء من كثرة التخييل وتزويق الكلام وغير ذلك ، مما يتورع المتدين عن إنشاده ، فضلا عن إنشائه [١].

أما القرآن الكريم فخبره صدق ، وكلامه عظة واقعية ، ومنهجه التشريع الذي يسعد البشر ، وقصده الترغيب في فضائل الأعمال وغرر الخصال والأخلاق ، والترهيب من الانحراف والرذيلة ، وتقرير أحكام العبادة الصحيحة والمعاملة الرشيدة.

فالآية دلت على نفي كون القرآن شعرا في قوله تعالى : ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ﴾ ، ونفي كون النبي شاعرا في قوله تعالى : ﴿وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ وإنما علّمه الله القرآن الذي يمتاز بخاصيّة معينة تختلف عن الشعر المعروف وعن النثر المألوف.

وهي رد قاطع على قول العرب أهل مكة : إن القرآن شعر أو سحر أو من عمل الكهان ، وإن محمدا شاعر ، قاصدين بذلك إبطال صفة الوحي به من عند الله ، وتكذيب خاصيّة الرسالة.

وأما ما ورد على لسان الرسول صلي الله عليه وآله وسلم من أقوال موزونة ، فهو مجرد سليقة اتفاقية من غير تكلف ولا صنعة ولا قصد ، مثل قوله يوم حنين وهو راكب البغلة البيضاء يقدم بها في نحور العدو :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

---

(١) البحر المحيط : ٧ / ٣٤٥

وقوله صلي الله عليه وآله وسلم حينما نكبت أصبعه في غار :

إن أنـــــت إلا أصـــــبع دميـــــت وفي ســـــبيل الله مـــــا لقيـــــت

بل إن الخليل بن أحمد الفراهيدي ما عدّ المشطور من الرجز شعرا.

ولكنه صلي الله عليه وآله وسلم كان يتمثل أحيانا ببعض الأشعار لشعراء العرب ، مثل تمثله ببيت طرفة بن العبد في معلّقته المشهورة :

ســتبدي لــك الأيام مــا كنــت جــاهلا ويأتيــك بالأخبــار مــن لم تــزود

وقد صح فيما رواه ابن أبي حاتم وابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنه كان يقول :

ســتبدي لــك الأيام مــا كنــت جــاهلا ويأتيــك مــن لم تــزود بالأخبــار

فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس هذا هكذا ، فقال صلي الله عليه وآله وسلم: «إني لست بشاعر ولا ينبغي لي».

وروى ابن سعد وابن أبي حاتم عن الحسن : «أنه صلي الله عليه وآله وسلم كان يتمثل بهذا البيت هكذا :

كفى بالإسلام والشيب ناهيا للمرء ، والرواية : كفى الشيب والإسلام للمرء. ناهيا ، فقال أبو بكر : أشهد إنك رسول الله ، ما علمك الشعر ، وما ينبغي لك».

وثبت في الصحيح أنه صلي الله عليه وآله وسلم تمثّل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، ولكن تبعا لقول أصحابه الذين كانوا يرتجزون ، وهم يحفرون ويقولون :

لا هــمّ لــو لا أنــت مــا اهتــدينا ولا تصــــــــدقنا ولا صــــــــلينا

فأنزلن سكينة علينا

وثبّـــــت الأقـــــدام إن لاقينـــــا إن الأولى قـــــد بغـــــوا علينـــــا

إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع صلي الله عليه وآله وسلم صوته بقوله : أبينا ، ويمدّها.

وعدم تعليمه الشعر ، لأن الله إنما علّمه القرآن العظيم الذى : ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٢].

والقرآن ليس بشعر ولا تخيلات ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يؤثر ، وإنما هو دستور للحياة الإسلامية ، ومواعظ وإرشادات ، كما قال تعالى :

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي ما القرآن إلا ذكر من الأذكار ، وموعظة من المواعظ ، وكتاب سماوي واضح ظاهر جلي لمن تأمله وتدبره ، يتلى في المعابد ، ويسترشد في كل شؤون الحياة.

لذا قال تعالى محدّدا مهمة القرآن ومهمة رسول الله صلى الله وآله وسلم :

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض ، كقوله تعالى : ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٩] ولكن إنما ينتفع بنذارته من هو حيّ القلب ، مستنير البصيرة ، ولكي تثبت به وتجب كلمة العذاب على الكافرين ، الممتنعين من الإيمان به ، وهذا في مقابلة صفة المؤمنين وهم أحياء القلوب ، أما الكافرون فهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أشبه بالأموات في الحقيقة ، لعدم تأثرهم بعظات القرآن ، وانعدام يقظتهم لاتباع الحق والهدى.

والخلاصة : أن الآية دالة على أن القرآن رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين.

ثم أعاد تعالى الكلام في الوحدانية وأتى ببعض أدلتها ، فقال :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ﴾ أي أو لم

يشاهد هؤلاء المشركون بالله عبدة الأصنام وغيرهم أن الله خلق لهم هذه الأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم) التي سخرها لهم ، وأوجدها من أجلهم من غير وساطة ولا شريك ، وجعلهم مالكين لها ، يقهرونها ويضبطونها ويتصرفون بها كيف شاؤوا ، وهي ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، ولو شاء لجعلها مستعصية عليهم ، مستوحشة نافرة منهم ، فلا يستفيدون منها ، فترى الولد الصغير يقود البعير الكبير ، بل ولو كان القطار مائة بعير أو أكثر.

ثم أبان الله تعالى منافعها الملموسة ، فقال :

﴿وَذَلَّلْناها لَهُمْ ، فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْها يَأْكُلُونَ﴾ أي وجعلناها لهم مسخّرة مذللة منقادة لهم ، لا تمتنع مما يريدون منها ، حتى الذبح ، فمنها مركوبهم الذي يركبونه في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، ومنها ما يأكلون من لحمها.

﴿وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ ، أَفَلا يَشْكُرُونَ؟﴾ أي ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها ، كالاستفادة من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، وهي لهم مشارب أي يشربون من ألبانها ، أفلا يشكرون خالق ذلك ومسخره وموجد هذه النعم لهم ، بعبادته وطاعته ، وترك الإشراك به غيره.

وهذا حثّ صريح على شكر الخالق المنعم بعبادته وطاعته ، وهو أبسط ما يوجبه الوفاء ، وتقدير المعروف والإحسان.

ولكن الكفار تنكروا لهذا الواجب ، وكفروا بأنعم الله ، واستمروا في ضلالهم وتركوا عبادة الله ، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة ، فقال تعالى :

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً ، لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي واتخذ هؤلاء المشركون

الأصنام ونحوها آلهة يعبدونها من دون الله ، يبتغون بذلك أن تنصرهم وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى.

ولكنها في الواقع لا تقدر على شيء ، ولا تحقق فائدة لعبادها ، لذا قال تعالى مبينا خيبة أملهم :

﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ، وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أي لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأذل وأحقر ، بل لا تقدر على نصرة أنفسها ، ولا على الانتقام ممن أساء إليها ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل ، لذا كان الثابت بطلان ما رجوه منها ، وأمّلوه من نفعها.

والكفار المشركون جند طائعون للأصنام ، يغضبون لها في الدنيا ، وهي لا تستطيع نصرهم ، ولا تقدم لهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا ، إنما هي أصنام. وقوله : ﴿مُحْضَرُونَ﴾ أي يخدمونهم ، ويدفعون عنهم ، ويغضبون لهم ، وليس للآلهة استطاعة على شيء ، ولا قدرة على النصر. أو إنهم يوم القيامة محضرون لعذابهم ، لأنهم يجعلونهم وقودا للنار.

ثم سلّى الله رسوله عما يلقاه من أذى المشركين ، فقال :

﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ﴾ أي فلا يهمنك تكذيبهم لك وكفرهم بالله ، وأذاهم ، وجفاؤهم ، وقولهم : هؤلاء آلهتنا ، وأنها شركاء لله في المعبودية ، أو قولهم لرسول الله صلي الله عليه وآله وسلم: أنت شاعر ، أو ساحر ، أو كاهن ونحو ذلك.

فإنا نحن نعلم جميع ما هم فيه ، نعلم سرهم وجهرهم ، ونعلم ما يسرون لك من العداوة ، وإنا مجازوهم بذلك ، ومعاقبوهم عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ ليس القرآن شعرا ، ولا محمّد صلي الله عليه وآله وسلم شاعرا ، فلا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا به ، كسر وزنه ، وإنما كان همّه فقط الإفادة من المعاني.

٢ ـ إن إصابة النبي صلي الله عليه وآله وسلم الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر ، فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن ، وليس ذلك شعرا ولا في معناه ، كقوله تعالى : ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران ٣ / ٩٢] وقوله : ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف ٦١ / ١٣] وقوله : ﴿وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٣] وقوله : ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف ١٨ / ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات.

٣ ـ روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر ، فقال : لا تكثرن منه ، فمن عيبه أن الله يقول : ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ ، وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾.

٤ ـ ما ينبغي ولا يصح للنبي صلي الله عليه وآله وسلم أن يقول الشعر ، وذلك من أعلام النبوة ، ولا اعتراض لملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول صلي الله عليه وآله وسلم ، لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ، ولم يقصد به إلى الشعر ، ليس بشعر ، ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا.

٥ ـ إن الذي يتلوه النبي صلي الله عليه وآله وسلم على الناس هو ذكر من الأذكار ، وعظة من المواعظ ، وقرآن بيّن واضح مشتمل على الآداب والأخلاق ، والحكم والأحكام ، والتشريع المحقق لسعادة البشر.

٦ ـ إن الغرض من إنزال القرآن إنذار من كان حيّ القلب ، مستنير البصيرة ، وإيجاب الحجة بالقرآن على الكفرة.

٧ ـ من أدلة وجود الله ووحدانيته : خلق الإنسان والحيوان والنبات ، فإنه سبحانه خلق كل ذلك ، وأبدعه ، وعمله من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة.

ومن فضله ونعمته على الناس تذليل الأنعام لهم ، وتسخيرها لمنافعهم في الركوب ، وأكل اللحوم وشرب الحليب والألبان ، وصنع الأسمان ، حتى إن الصبي يقود الجمل العظيم ويضربه ويوجهه كيف شاء ، وهو له طائع. وهذا كله وغيره يوجب شكر الخالق المنعم وهو الله على نعمه ، بعبادته وطاعته وإخلاص ذلك له.

٨ ـ بالرغم من وجود الآيات الدالة على قدرة الله ، اتخذ الكفار المشركون من دون الله آلهة ، لا قدرة لها على فعل ، طمعا في نصرتها وأملا في مساعدتها لهم إن نزل بهم عذاب.

والحقيقة أن تلك الآلهة المزعومة لا تستطيع نصر عابديها ، ولا جلب الخير لهم ، ولا دفع الشر والضر عنهم ، ومع ذلك فإن الكفار جند طائعون لهذه الآلهة ، يمنعون عنهم ويدفعون عنهم ، ويغضبون لهم في الدنيا ، فهم لها بمنزلة الجند والحرس ، وهي لا تستطيع أن تنصرهم. وقيل : إن الآلهة جند للعابدين يوم القيامة ، محضرون معهم في النار ، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وفي الخبر : إنه يمثّل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله ، فيتبعونه إلى النار ، فهم لهم جند محضرون. وهذا المعنى ثبت في صحيح مسلم وكذا في جامع الترمذي عن أبي هريرة أن النبي صلي الله عليه وآله وسلم قال : «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطّلع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد ،

فيمثّل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار ناره ، فيتبعون ما كانوا يعبدون ، ويبقى المسلمون».

٩ ـ سلا الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صلي الله عليه وآله وسلم ، فقال له : لا يحزنك قولهم : شاعر ، ساحر ، روي أن القائل عقبة بن أبي معيط ، فنفى الله ذلك عن رسوله.

١٠ ـ إن الله تعالى عليم مطلع على ما يسرّ الكافرون ويظهرون من القول والعمل ، فيجازيهم بذلك يوم القيامة.

إثبات البعث

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

الإعراب :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ﴾ الهمزة للإنكار مع إفادة التعجب ، والواو للعطف على مقدر ، أي ألم يتفكر الإنسان ويعلم.

البلاغة :

﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه سرعة إنجازه الأشياء بأمر المطاع من غير امتناع ولا تأخير.

﴿مَلَكُوتُ﴾ صيغة مبالغة من الملك ، أي الملك الواسع التام كالجبروت والرحموت للمبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ أو لم يعلم. ﴿الْإِنْسانُ﴾ أي إنسان ، ويشمل من كان سبب النزول ، وهو العاص بن وائل السهمي وأبي بن خلف. ﴿أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أنا خلقناه من أضعف الأشياء ، والنطفة : الذرة من مادة الحياة وهي المني. ﴿فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ الخصيم : الشديد الخصومة لنا ، المبالغ في الجدل إلى أقصى الغاية ، والمبين : البيّن في نفي البعث.

﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً﴾ أي أورد في شأننا قصة غريبة هي في غرابتها كالمثل ، إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة ، ونفى القدرة على إحياء الموتى ، مقارنا ذلك بما عجز عنه ، وقائسا قدرة الله على قدرة العبد. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ نسي خلقنا إياه ، من المني ، وهو أغرب من مثله. ﴿قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ الرميم : البالية أي ما بلي من العظام ، ولم يقل : رميمة لأنه اسم لا صفة ، روي أن العاصي بن وائل أو أمية بن خلف أو أبي بن خلف [1] أخذ عظما رميما ، ففتته ، وقال للنبي صلي الله عليه وآله وسلم : أترى يحيي الله هذا بعد ما بلي ورمّ؟ فقال صلي الله عليه وآله وسلم : «نعم ، ويدخلك النار» وفيه دليل على أن العظم ذو حياة ، فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء.

﴿قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي فإن قدرته كما كانت ، لامتناع التغير فيه ، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي وهو بكل مخلوق عليم جملة وتفصيلا ، قبل خلقه وبعد خلقه ، يعلم تفاصيل المخلوقات وأجزاء الأشخاص المتفتتة ، ومواقعها وطريق تمييزها ، وضمّ بعضها إلى بعض على النمط السابق.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً﴾ أي أن الله يسرّ لكم الانتفاع بالحطب ، تحرقونه للطبخ والدفء ، وقد كان أخضر رطبا ، أو أن هناك شجرا يسمى المرخ ، وشجرا آخر يسمى العفار ، إذا قطع منهما عودان ، وضرب أحدهما على الآخر ، انقدحت منهما النار ، وهما أخضران ، وفي أمثال العرب : «في كل شيء نار ، واستمجد المرخ والعفار» ، ﴿فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾

---

(١) قال أبو حيان : أقوال أصحها أنه أبي بن خلف ، رواه ابن وهب عن مالك (البحر المحيط ٧٠ / ٣٤٨) ثم أضاف قائلا : ووهم من نسب إلى ابن عباس أن الجائي بالعظم هو عبد الله بن أبي بن سلول ، لأن السورة والآية مكية بإجماع ، ولأن عبد الله بن أبي لم يهاجر قط هذه المهاجرة.

تقدحون منه النار ، وتوقدونها من ذلك الشجر ، بعد أن كان أخضر. وهذا دالّ على القدرة على البعث ، فإنه تعالى جمع فيه بين الماء والنار والخشب ، فلا الماء يطفئ النار ، ولا النار تحرق الخشب. وإبراز الشيء من ضدّه : وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر أبدع شيء ، وهو دالّ على قدرة الله تعالى.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي إن من قدر على خلق السموات والأرض ، وهما في غاية العظم ، يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير ضعيف ﴿بَلى﴾ أي هو قادر على ذلك ، وبلى كلمة جواب كنعم ، تأتي بعد كلام منفي ، وكان الجواب من الله للدلالة على أنه لا جواب سواه. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الكثير الخلق ﴿الْعَلِيمُ﴾ الواسع العلم بكل شيء ، فهو كثير المخلوقات والمعلومات.

﴿إِنَّما أَمْرُهُ﴾ شأنه في الإيجاد. ﴿إِذا أَرادَ شَيْئاً﴾ خلق شيء. ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون ، أي يحدث ، وهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده من غير تأخر وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة ، قطعا للشبهة في قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق ، ﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ ..﴾ أي تنزيه عما ضربوا له من المثل ، وتعجيب مما قالوا فيه ، ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملك التام والقدرة ، كالرحموت والرهبوت والجبروت ، زيدت الواو والتاء للمبالغة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون في الآخرة.

سبب النزول :

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم بعظم حائل ، ففتّه ، فقال : يا محمد : أيبعث هذا بعد ما أرمّ؟ قال : نعم ، يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت الآيات : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة والسّدّي نحوه ، وسمّوا الإنسان أبي بن خلف. وهذا هو الأصح كما قال أبو حيان ، لما رواه ابن وهب عن مالك.

وبناء عليه ، قال المفسّرون : إن أبي بن خلف الجمحي جاء إلى

رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم بعظم حائل ، ففتته بين يديه ، وقال : يا محمد ، يبعث الله هذا بعد ما أرمّ؟ فقال : نعم ، يبعث الله هذا ، ويميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت هذه الآيات.

وعلى أي حال ، يقول علماء أصول الفقه : إن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، كما في قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها﴾ [المجادلة ٥٨ / ١] نزلت في امرأة واحدة ، وأراد الكل في الحكم ، فكذلك كل إنسان ينكر الله أو الحشر ، فهذه الآية ردّ عليه ، فتكون الآية عامة.

المناسبة :

بعد بيان الأدلة الدّالة على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ، ووجوب طاعته وعبادته ، وبطلان الشرك به ، ذكر تعالى شبهة منكري البعث ، وأجاب عنها بأجوبة ثلاثة : هي أن الإعادة مثل البدء بل أهون ، وقدرة الله على إيجاد النار من الشجر الأخضر ، وخلق ما هو أعظم من الإنسان ، وهو خلق السموات والأرض ، وفي النهاية : فورية تكوين الأشياء بقول : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

التفسير والبيان :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ألم يعلم كل إنسان أننا بدأنا خلقه من نطفة (مني) من ماء مهين ، هي أضعف الأشياء ، ثم جعلناه بشرا سويّا ، ثم تراه يفاجئنا بأنه ناطق مجادل بيّن جريء في جدله ، فقوله ﴿خَصِيمٌ﴾ ناطق ، و ﴿مُبِينٌ﴾ إشارة إلى قوة عقله.

والمراد : أو لم يستدلّ من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شيء ضعيف حقير ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ، فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ ، إِلى قَدَرٍ

﴿مَعْلُومٍ﴾ [المرسلات ٧٧ / ٢٠ ـ ٢٢] ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان ٧٦ / ٢] أي من نطفة من أخلاط متفرقة.

فشأن هذا المخلوق أن يشكر النعمة ، لا أن يطغى ويتجبر ، وينكر البعث والإعادة.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟﴾ أي وذكر أمرا عجيبا كالمثل في الغرابة على استبعاد إعادة الله ذي القدرة العظيمة للأجساد والعظام الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود ، فأنكر أن الله يحيي العظام البالية ، قائسا قدرة الله على قدرة العبد ، حيث لم يكن ذلك في مقدور البشر.

فأجابه الله تعالى بقوله :

﴿قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي قل أيها الرسول لهذا المشرك المنكر البعث : يحيي الله تلك العظام البالية الذي أبدع خلقها وأوجدها في المرة الأولى من غير شيء من العدم ولم يكن شيئا مذكورا ، وهو لا تخفى عليه خافية من الأشياء ، سواء أكانت مجموعة أم مجزأة مشتتة في أنحاء الأرض ، ولا يخرج عن علمه أي شيء كائنا ما كان ، ولو في أعماق الأرض أو البحر أو أجواف الإنسان أو الحيوان أو اختلط بالتراب والنبات. وقد قال العلماء : إن الذرّة لا تفنى ، وتقرر نظرية (لافوازيه) المعروفة : أنه لا يوجد شيء من العدم ، والموجود لا ينعدم.

ودليل ثان هو :

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً ، فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي وهو الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء ، حتى صار خضرا نضرا ذا ثمر يانع ، ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار ، ومن قدر على ذلك ، فهو قادر على

ما يريد ، لا يمنعه شيء ، فهذا التحوّل والتقلّب من عنصر الرطوبة إلى عنصر الحرارة ، يدل على إمكان إعادة الرطوبة إلى ما كان يابسا باليا. والمشاهد أن شجر السّنط يوقد به النار وهو أخضر.

وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار ، وليس معه زناد ، فيأخذ عودين أخضرين منهما ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد تماما. ومثل ذلك احتكاك السّحب المولّد لشرارة البرق.

ودليل ثالث أعجب مما سبق :

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي إن من خلق السّموات السّبع بما فيها من الكواكب السّيارة والثّوابت ، والأرضين السّبع بما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وهي أعظم من خلق الإنسان ، إن من خلق ذلك قادر على خلق مثل البشر وإعادة الأجسام ، وهي أصغر وأضعف من السّموات والأرض ، بلى هو قادر على ذلك ، وهو الكثير الخلق ، الواسع العلم ، فقوله ﴿الْخَلَّاقُ﴾ إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله ﴿الْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى شمول العلم.

والخلاصة : أن خلق الأشياء العظيمة برهان قاطع على خلق ما دونها ، كما قال تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر ٤٠ / ٥٧] ، وقال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى؟ بَلى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٣٣].

وتأكيدا للبيان ونتيجة لما سبق ، قال تعالى :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إنما شأنه سبحانه في إيجاد الأشياء وإرادتها أن يقول للشيء : ﴿كُنْ﴾ فإذا هو كائن فورا ، من غير توقّف على شيء آخر أصلا.

ومقتضى ثبوت القدرة التامة لله تعالى : تنزيهه عما وصفوه به ، فقال : ﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تنزّه الله عما لا يليق به من السوء أو النقص ، فهو الذي له ملكية الأشياء كلها ، وله القدرة الكاملة على التّصرف فيها كما يريد ، وبيده مفاتح كلّ شيء ، وإليه لا إلى غيره مرجع العباد بعد البعث في الدار الآخرة ، فيجازي كل إنسان بما عمل ، فليعبده الناس جميعا وليوحّدوه ويطيعوه ، تحقيقا لمصلحتهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ عجبا لأمر الإنسان ، سواء العاص بن وائل السّهمي ، أو أبيّ بن خلف الجمحي (وهو الأصح) أو أمية بن خلف أو غيرهم ، كيف خلقه الله من يسير الماء ، وأضعف الأشياء ، ثم يصبح مخاصما ربّه ، مجادلا في الخصومة ، مبيّنا للحجة ، أي أنه صار بعد أن لم يكن شيئا مذكورا خصيما مبينا. قال أبو حيان : قبّح تعالى إنكار الكفرة البعث حيث قرر أن عنصره الذي خلق منه هو نطفة ماء مهين خارج من مخرج النجاسة ، أفضى به مهانة أصله أن يخاصم الباري تعالى ، ويقول : من يحيي الميت بعد ما رمّ مع علمه أنه منشأ من موات.

٢ ـ لقد نسي هذا الإنسان الضعيف المخلوق أن الله أنشأه من نطفة ، ثم جعله إنسانا حيّا سويا ، فهذا دليل حاضر من نفسه على إمكان البعث ، وقد احتج الله عزّ وجلّ على منكري البعث بالنشأة الأولى ، فكيف يقول الإنسان : من يحيي هذه العظام البالية؟!

والجواب : أنّ النّشأة الثانية مثل النّشأة الأولى ، فمن قدر على النّشأة الأولى قدر على النّشأة الثانية ، وأن الله عالم بكلّ الأشياء ، سواء الأجسام العظام أو الذّرات الصغار.

٣ ـ في قوله تعالى : ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ دليل على أن في العظام حياة ، وأنها تنجس بالموت ، وهو قول أبي حنيفة ، وقال الشافعي : لا حياة فيها.

٤ ـ من أدلة وحدانيته تعالى وكمال قدرته على إحياء الموتى : ما يشاهده الناس من إخراج المحروق اليابس من العود الندي الطري ، فإن الشجر الأخضر من الماء ، والماء بارد رطب ضدّ النار ، وهما لا يجتمعان ، فأخرج الله منه النار ، فيدلّ ذلك على أنه تعالى هو القادر على إخراج الضدّ من الضدّ ، وهو على كلّ شيء قدير.

٥ ـ إنّ الذي خلق السموات والأرض التي هي أعظم من خلق الناس قادر على أن يبعثهم مرة أخرى.

٦ ـ إذا أراد الله خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة ، وإنما أمره نافذ فورا ، ولا يتوقف على شيء آخر.

٧ ـ إن الله تعالى نزّه نفسه عن العجز والشرك ، لتعليم الناس ، وإبراز الحقيقة ، فبيده مفاتح كلّ شيء ، ومردّ الناس ومصيرهم بعد مماتهم إليه تعالى ، ليحاسب كلّ امرئ على ما قدم في دنياه من خير أو شرّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصافات

مكيّة ، وهي مائة واثنتان وثمانون آية.

تسميتها :

سميت سورة الصافات لافتتاحها بالقسم الإلهي بالصّافات وهم الملائكة الأطهار الذين يصطفّون في السماء كصفوف الناس في الصلاة في الدنيا.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من نواح ثلاث :

١ ـ وجود الشبه بين أول هذه السورة وآخر يس السورة المتقدمة في بيان قدرته تعالى الشاملة لكل شيء في السموات والأرض ، ومنه المعاد وإحياء الموتى ، لأن الله تعالى كما في يس هو المنشئ السريع الإنجاز للأشياء ، ولأنه كما في مطلع هذه السورة واحد لا شريك له ، لأن سرعة الإنجاز لا تتهيأ إلا إذا كان الخالق الموجد واحدا.

٢ ـ هذه السورة بعد يس كالأعراف بعد الأنعام ، وكالشعراء بعد الفرقان في تفصيل أحوال القرون الماضية ، المشار إليهم وإلى إهلاكهم في سورة يس المتقدمة في قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [٣١].

٣ ـ توضح هذه السورة ما أجمل في السورة السابقة من أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين في الدنيا والآخرة.

مشتملاتها :

موضوع هذه السورة كسائر السّور المكية في بيان أصول الاعتقاد : وهي التوحيد ، والوحي والنبوة ، وإثبات البعث والجزاء.

وقد تحدثت عن مغيبات ثلاثة : هي الملائكة ، والجنّ ، والبعث والجزاء في الآخرة ، فابتدأت بالكلام عن الملائكة الصّافات قوائمها أو أجنحتها في السماء استعدادا لتنفيذ أمر الله ، والزّاجرات السّحاب لتصريفه كيفما يشاء الله ، والذين أقسم الله بهم للدلالة على التوحيد وخلق السموات والأرض ، وتزيينها بالكواكب.

ثم أشارت إلى الجنّ ومطاردتهم بالشّهب الثاقبة المرصودة لهذا الغرض ، للرّدّ على المشركين الجاهليين الذين زعموا وجود نسب وقرابة بين الله تعالى وبين الجنّ ، وأبانت موقف المشركين من البعث وإنكاره وأحوالهم في الدنيا والآخرة ، وردت عليهم ردّا قاطعا حاسما بأنهم محشورون في زجرة صيحة واحدة وهم داخرون أذلة صاغرون وأنهم لا يفتنون إلا ذوي العقول الضعيفة ، وتوبيخهم على قولهم : الملائكة بنات الله ، وتنزيه الله عن ذلك.

وأبانت هذه السورة أيضا سوء أحوال الكافرين في القيامة ، وذكرتهم بالحوار الذي دار بينهم وبين المؤمنين في الدنيا ، ثم حسمت الأمر ببيان مآل كل من الفريقين ، حيث يخلد المؤمنون في الجنة التي وصف نعيمها ، ويخلد الكافرون في النار التي وصف جحيمها ، للعبرة والعظة وبيان العاقبة.

وناسب هذا الاستعراض التذكير الموجز بقصص بعض الأنبياء السابقين ،

وهم نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وموسى ، وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس عليهم السلام . ولكنها فصّلت قصة إبراهيم في موقفين حاسمين : أولهما ـ تحطيمه الأوثان. وثانيهما ـ إقدامه على ذبح ابنه ، ليتجلى للناس جميعا مدى (الإيمان والابتلاء والتضحية) فإنه بادر لتنفيذ أمر ربّه ، ممتحنا صبره ، مجتازا بالإيمان والصدق محنة الابتلاء ، مضحيّا في سبيل رضوان الله بابنه الذي رزقه ، فأكرمه الله بالفداء الذي جعل سنّة في الأضحية.

كذلك فصلت السورة قصة يونس عليه السلام العجيبة ، وإنقاذه من بطن الحوت ، لتوبته وكونه من الذاكرين الله ، المصلّين له.

وختمت السورة بالإشارة إلى ما بدئت به من وصف الملائكة بأنهم الصّافون المسبّحون ، وبيان نصرة الله لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة ، ومدح المرسلين وسلام الله عليهم ، وتنزيه الله عن أوصاف المشركين ، وثناؤه على نفسه وحمده لذاته بأنه رب العزة ورب العالمين.

فضل هذه السّورة :

أخرج النّسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : «كان رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم يأمرنا بالتّخفيف ، ويؤمّنا بالصّافات».

إعلان وحدانية الله

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (٢) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (٣) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (٤) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (٥)﴾

البلاغة :

﴿إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَواحِدٌ﴾ التأكيد بإن واللام بسبب إنكار المخاطبين للوحدانية.

المفردات اللغوية :

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ أقسم الله بالملائكة التي تصف في السماء للعبادة كصفوف الناس في الصلاة في الدنيا ، انتظارا لتنفيذ أمر الله ، ويكون ترتيبهم في الصفوف بحسب مراتبهم في التقدّم والفضيلة. ﴿فَالزَّاجِراتِ زَجْراً﴾ الملائكة التي تزجر السحاب أي تسوقه. وأصل الزّجر : الدّفع بقوة الصوت ، يقال : زجرت الإبل والغنم : أي أفزعتها بالصوت والصياح ، ثم استعمل في السوق والحثّ على الشيء.

﴿فَالتَّالِياتِ ذِكْراً﴾ الملائكة التي تتلو القرآن وتقرؤه. ﴿إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَواحِدٌ﴾ هذا جواب القسم بالملائكة على أن الله واحد لا شريك له ، وهو خطاب للمشركين الذين أنكروا التوحيد. ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ﴾ ربّ ذلك كله : أي خالقه ومالكه ، و ﴿الْمَشارِقِ﴾ : مشارق الشمس ، أي وربّ المغارب أيضا ، فللشمس كلّ يوم مشرق ومغرب. والمعنى : أن وجود هذه المخلوقات على هذا النحو البديع من أوضح الأدلّة على وجود الله وقدرته.

التفسير والبيان :

أقسم الله تعالى بالملائكة الصّافّات صفوفا للعبادة أو الصّافّات أجنحتها في السماء ، انتظارا لأمر الله تعالى ، والذين هم يقومون بوظائف متعددة ، منها : أنهم يسوقون السّحب إلى مكان معين بالتدبير المأمور به فيها ، أو أنهم يزجرون الناس ويردعونهم عن المعاصي بإلهام الخير ، ويزجرون الشياطين عن الوسوسة والإغواء.

ومنها : أنهم يتلون آيات الله على أنبيائه ، أو على أوليائه. لقد أقسم الله بأن معبودكم أيها المخاطبون الذي يجب إخلاص العبادة له ، هو واحد لا شريك له ، وهو خالق السموات والأرض وما بينهما من العوالم والمخلوقات ، ومالك ذلك كله ، وهو ربّ مشارق الشمس ومغاربها ، فأعلنوا في نفوسكم توحيد الله ، وأخلصوا له العبادة ، وأفردوه بالطاعة ، فوجود هذه المخلوقات من أوضح الدلائل على وجود الصانع وقدرته ووحدانيته.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ أقسم الله تعالى بالملائكة ، ولله أن يقسم على ما يشاء ، في أي وقت يشاء.

٢ ـ ذكرت الآيات صفات ثلاثا للملائكة ، وهي : أولا ـ وقوف الملائكة صفوفا إما لأداء العبادات كما أخبر تعالى عنهم : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصّافّات ٣٧ / ١٦٥] ، وإما أنها تصف أجنحتها في الهواء منتظرين وصول أمر الله إليهم ، وثانيا ـ زجر السحاب ، أي سوقه وتحريكه والإتيان به من موضع إلى موضع ، أو زجر الناس عن المعاصي بالإلهام والتأثير في القلوب ، أو زجر الشياطين عن التّعرض لبني آدم بالشّر والإيذاء. وثالثا ـ قراءة كتاب الله تعالى في الصلاة ، وعلى الأنبياء ، والأولياء للتذكير بها وغرس الشرائع في النفوس ، والصفة الثالثة مذكورة في آية أخرى هي : ﴿فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً ، عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ [المرسلات ٧٧ / ٥ ـ ٦].

هذا .. وقد ورد في السّنة النّبوية حديثان صحيحان عن كيفية صفوف الملائكة :

الأول ـ ما أخرجه مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «فضّلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا ، وجعل لنا ترابها طهورا إذا لم نجد الماء».

والثاني ـ ما أخرجه مسلم أيضا والنسائي وابن ماجه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند

ربّهم؟ قلنا : وكيف تصفّ الملائكة عند ربّهم؟ قال صلي الله عليه وآله وسلم : يتمّون الصّفوف المتقدّمة ، ويتراصّون في الصّف».

٣ ـ كان جواب هذا القسم العظيم أن الله واحد لا شريك له ، ولا ثاني له ، فهو قسم مشفوع بالبرهان الذي يثبت وحدانية الله تعالى.

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنه واحد

٤ ـ الدّليل على وجود الله الصانع ووحدانيته وقدرته كونه الخالق المالك للسموات والأرض وما بينهما من المخلوقات ، ولمشارق الشمس ومغاربها ، فللشمس كل يوم مشرق ومغرب بعدد أيام السّنة ، تطلع كل يوم من واحد منها ، وتغرب في واحد ، ولها في كل عام مشرقان : أقصى مشرق في الشمال ، وأقصى مشرق في الجنوب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب ، لدلالتها عليه ، وقد صرح بها في قوله عزّ وجلّ : ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ ، إِنَّا لَقادِرُونَ**﴾ [المعارج ٧٠ / ٤٠] ، وفي آية أخرى : ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**﴾ [الرحمن ٥٥ / ١٧] ، يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر ، فالآية الأولى لبيان مشرق الشمس الخاص كل يوم ، والآية الثانية تبين أن لها في كل عام مشرقين.

تزيين السماء بالكواكب

﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (١٠)**﴾

الإعراب :

﴿بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ الْكَواكِبِ﴾ : بدل من ﴿بِزِينَةٍ﴾ ، وقرئ بنصب الكواكب : إما بأن أعمل الزينة في الكواكب ، أي زيّنّا الكواكب ، مثل ﴿أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً﴾ أن أن أطعم يتيما ، وإما بنصبه على البدل من موضع ﴿بِزِينَةٍ﴾ وهو النصب ، وإما بنصبه ب (أعني). وقرئ بترك تنوين ﴿بِزِينَةٍ﴾ وجرّ ﴿الْكَواكِبِ﴾ على وجهين : الجر على الإضافة ، أو بدل من ﴿بِزِينَةٍ﴾ وحذف تنوين ﴿بِزِينَةٍ﴾ لالتقاء الساكنين. والإضافة للبيان ، أي المبينة ب ﴿الْكَواكِبِ﴾.

﴿وَحِفْظاً﴾ منصوب بفعل مقدر ، أي حفظناها بالشّهب.

﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى﴾ أتى ب ﴿إِلَى﴾ وإن كان ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ لا يفتقر إلى حرف جرّ ، إما بحمل ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ على (يصغون) ، وإما بحذف المفعول ، وتقديره : لا يسّمّعون القول ، مائلين إلى الملأ الأعلى.

﴿دُحُوراً﴾ منصوب على المصدر ، تقديره : يدحرون دحورا.

البلاغة :

﴿كُلِّ جانِبٍ عَذابٌ واصِبٌ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ وكذلك في الآية بعدها ﴿طِينٍ لازِبٍ﴾ فيها ما يسمى بمراعاة الفواصل أحد المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية :

﴿السَّماءَ الدُّنْيا﴾ هي أقرب السموات لأهل الأرض ، أي القربى منكم ، وهي مؤنث الأدنى.﴿الْكَواكِبِ﴾ هي النجوم والأجرام السماوية ، وتزيين السماء إما بها أو بضوئها. ﴿مارِدٍ﴾ عات خارج عن الطاعة ، وحفظ السماء من الشياطين برميها بالشهب. ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى﴾ كلام مستأنف مبتدأ لبيان حالهم بعد ما حفظ الله السماء منهم ، ولا يجوز جعله صفة لكل شيطان ، فإنه يقتضي أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون. و ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ أي يتسمّعون. و ﴿الْمَلَإِ﴾ الجماعة المجتمعون على رأي ، والمراد بهم هنا الملائكة في السماء. و ﴿الْمَلَإِ الْأَعْلى﴾ أهل السماء الدنيا فما فوقها. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يرجمون بالشهب ، وهم الشياطين. ﴿مِنْ كُلِّ جانِبٍ﴾ من آفاق السماء.

﴿دُحُوراً﴾ طردا وإبعادا. ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة. ﴿عَذابٌ واصِبٌ﴾ دائم أو شديد.

﴿الْخَطْفَةَ﴾ مصدر للمرة الواحدة ، وهي الاختلاس والأخذ بسرعة على غرّة. والاستثناء في قوله : ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ من ضمير ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ أي لا يسمع إلا الشيطان الذي سمع الكلمة من

الملائكة ، فأخذها بسرعة. ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ﴾ شعلة ساطعة من النار ، وهي ما يرى كأن كوكبا انقض. ﴿ثاقِبٌ﴾ مضيء فيحرقه ، أو يثقب ما ينزل عليه.

المناسبة :

هذه الآيات تتضمن دليلا آخر على وجود الله تعالى وقدرته ، ذكر بعد الدليل الأول وهو خلق السموات والأرض ، وتبين أنه تعالى زيّن السماء الدنيا القريبة من البشر لمنفعتين ، هما : تحصيل الزينة ، والحفظ من الشيطان المارد.

وبالرغم من أن هذه الثوابت مركوزة ـ كما قال الرازي ـ في الكرة الثامنة ، ما عدا القمر في السادسة ، فإن التعبير جاء على وفق الرؤية والنظر حسب الظاهر ، فأهل الأرض إذا نظروا إلى السّماء ، يرونها ويشاهدونها مزينة بهذه الكواكب ، كجواهر مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ﴾ جمّل الله سبحانه السماء الدنيا التي هي أقرب السموات إلى الأرض بزينة جميلة فائقة الجمال هي الكواكب ، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة.

﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ﴾ أي وحفظناها حفظا من كلّ شيطان عات متمرد عن الطاعة ، إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، لذا قال تعالى :

﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى﴾ أي لا تقدر الشياطين أن يتسمّعوا لحديث الملأ الأعلى وهم الملائكة أهل السماء الدنيا فما فوقها ، لأنهم يرمون بالشهب ، وذلك إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى من شرعه وقدره.

وهاتان الخاصتان أو المنفعتان للسّموات ، جاءت آيات كثيرة تقررهما مثل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ ، وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ ، وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك ٦٧ / ٥] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ ، وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ ، إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ، فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر ١٥ / ١٦ - ١٨].

﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ﴾ أي يرمون بالشّهب من كلّ جهة يقصدون السماء منها ، إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع.

﴿دُحُوراً ، وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾ أي يدحرون دحورا ، ويطردون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ، ولهم في الآخرة عذاب دائم مستمر موجع ، كما قال تعالى في الآية المتقدمة : ﴿وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ، فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهي الكلمة ، يسمعها من السماء ، فيلقيها إلى الذي تحته ، ويلقيها الآخر إلى من تحته ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب ، فيحرقه ، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن ، كما جاء في الحديث.

فخاطف الكلمة العارضة يتبعه الله بنجم مضيء ، أو بشعلة مستنيرة ، فتحرقه ، وربما لا تحرقه ، فيلقي إلى إخوانه الكهان ما خطفه. والخطف : أخذ الشيء بسرعة. والثاقب : المضيء.

والملحوظ الثابت أن الشياطين قبل بعثة نبينا محمد صلي الله عليه وآله وسلم كانت ترمى أحيانا ، وأحيانا لا ترمى ، وبعد البعثة تعرضوا للرمي من كل جانب ، وزيد في حفظ السماء ، فلم يتمكنوا من استراق السمع ، إلا بأن يختطف أحدهم كلمة ، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض ، فيلقيها إلى إخوانه ، وبهذا بطلت

الكهانة ، وثبتت النبوة والرسالة [١] ، وأصبح المقرر شرعا منعهم من التنصّت ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢١٢] ، وقال سبحانه واصفا المرحلتين : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ ، فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً﴾ [الجنّ ٧٢ / ٨ ـ ٩].

قال الرازي : دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجيء النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي صلي الله عليه وآله وسلم بزمان طويل ، ذكروا ذلك ، وتكلموا في سبب حدوثه ، وإذا ثبت أن ذلك كان موجودا قبل مجيء النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، امتنع حمله على مجيء النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، والأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، لكنها كثرت في زمان النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، فصارت بسبب الكثرة معجزة [٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن تزيين السماء الدنيا بالكواكب لمنفعتين ، هما : تحصيل الزينة ، والحفظ من الشيطان المارد.

٢ ـ وصف تعالى أولئك الشياطين بصفات ثلاث : هي أنهم لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى وهم الملائكة ، وأنهم يقذفون من كل جانب دحورا ، أي طردا وإبعادا ، ولهم عذاب واصب ، أي دائم مستمر موجع.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٥ / ٦٦

(٢) تفسير الرازي : ٢٦ / ١٢١

وسميت الملائكة بالملإ الأعلى ، لأنهم يسكنون السموات ، وأما الإنس والجنّ فهم الملأ الأسفل ، لأنهم سكان الأرض.

واختلف العلماء على قولين : هل كان هذا القذف قبل المبعث ، أو بعده لأجل المبعث؟ وقد جاءت الأحاديث عن ابن عباس بذلك ، وستذكر في سورة «الجن». ويجمع بينها كما تقدم بأنها كانت ترمى وقتا ، ولا ترمى وقتا ، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب ، فصاروا يرمون دائما واصبا من كل جانب.

٣ ـ قوله تعالى : ﴿**إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ**﴾ استثناء من قوله : ﴿**وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ**﴾ أي لا يسمع الشياطين شيئا مما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره إلا الشيطان الذي خطف الخطفة ، أي اختلس الكلمة على وجه المسارقة.

ومضمون الأحاديث الصحاح في هذا : أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء ، لاستراق السمع ، فيقضي الله أمرا من أمور الأرض ، فيتحدث به أهل السماء ، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى ، فيلقيه إلى الذي تحته ، فربما أحرقه شهاب ، وقد ألقى الكلام ، وربما لم يحرقه ، كما بيّنا ، فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة ، وتصدق تلك الكلمة ، فيصدّق الجاهلون جميع الكلام ، فلما جاء الله بالإسلام ، حرست السماء بشدة ، فلا يفلت شيطان سمع شيئا. والكواكب الراجمة : هي التي يراها الناس تنقضّ. وليست بالكواكب الجارية في السماء ، لأن هذه لا ترى حركتها ، والراجمة ترى حركتها ، لأنها قريبة منا.

إثبات المعاد ـ الحشر والنشر والقيامة

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (١٨) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)﴾

الإعراب :

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ تاء ﴿عَجِبْتَ﴾ بالفتح : تاء المخاطب. وقرئ بالضم : إما إخبارا عن الله من إنكار الكفار البعث ، مع بيان القدرة على الابتداء ، حتى بلغ هذا الإنكار منزلة يقال فيه : عجبت ، وإما بتقدير : قل عجبت ، وحذف القول في كلام العرب كثير.

﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ﴾ قال الزمخشري : ﴿فَإِنَّما﴾ جواب شرط مقدر ، وتقديره : إذا كان ذلك ، فما هي إلا زجرة واحدة.

البلاغة :

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ طباق بين التعجب والسخرية.

المفردات اللغوية :

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبر مشركي مكة المنكرين للبعث أو بني آدم ، إما على سبيل التقرير أو التوبيخ. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا﴾ أهم أقوى أجساما وأعظم أعضاء وأشق إيجادا ، أم من خلقنا من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما ، والمشارق ، والكواكب ، والشهب الثواقب؟ والإتيان بمن هنا : لتغليب العقلاء. ﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ﴾ أي خلقنا أصلهم آدم. ﴿مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ أي لزج يلصق باليد. والمعنى : كيف يستبعدون المعاد ، وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف؟

وإن خلقهم ضعيف ، فلا يتكبروا بإنكار النبي والقرآن المؤدي إلى هلاكهم اليسير.

بل للانتقال من غرض إلى آخر ، وهو الإخبار بحال النبي صلي الله عليه وآله وسلم وبحالهم ﴿عَجِبْتَ﴾ يا محمد من تكذيبهم إياك ، ومن إنكارهم قدرة الله تعالى وإنكار البعث. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي وهم يستهزئون من تعجبك ومما تقوله من إثبات البعث.

﴿وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾ أي وإذا وعظوا بالقرآن لا يتعظون.

﴿وَإِذا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزة دالة على الصدق من معجزات الرسول صلي الله عليه وآله وسلم ، كانشقاق القمر. ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية والاستهزاء. ﴿وَقالُوا : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي وقالوا : ما هذا الذي تأتينا به وهو القرآن إلا سحر ظاهر واضح.

﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي أنبعث إذا متنا ، وكرروا الهمزة مبالغة في الإنكار ، وإشعارا بأن البعث في رأيهم مستنكر في نفسه ، وفي هذه الحالة أشد استنكارا. ﴿أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام ، وهو عطف بالواو على محل إن واسمها : ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أو عطف على ضمير : ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ والفاصل همزة الاستفهام ، أي أو آباؤنا الأولون مبعوثون؟.

﴿قُلْ : نَعَمْ﴾ تبعثون. ﴿وَأَنْتُمْ داخِرُونَ﴾ صاغرون ذليلون. ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ﴾ أي صيحة واحدة ، وهو جواب شرط مقدر ، أي إذا كان ذلك ، فإنما البعث زجرة ، أي صيحة واحدة هي النفخة الثانية ، يقال : زجر الراعي غنمه ، أي صاح عليها وأمرها بالإعادة. ﴿فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي فإذا الخلائق قيام من مراقدهم أحياء ، ينظرون ما يفعل بهم. ﴿وَقالُوا﴾ الكفار. ﴿يا وَيْلَنا﴾ هلاكنا ، وهو مصدر لا فعل له من لفظه ، ويقال وقت الهلاك. ﴿الدِّينِ﴾ الحساب والجزاء. ﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ الحكم والقضاء بين الخلائق وتمييز المحسن من المسيء. وهو من قول الملائكة.

المناسبة :

افتتح الله تعالى هذه السورة بإثبات وجود الخالق وقدرته ووحدانيته بدليل واضح وهو خلق السموات والأرض وما بينهما ، وخلق المشارق والمغارب ، وأعقب ذلك بإثبات المعاد وهو الحشر والنشر والقيامة.

ومن المعلوم أن المقصد الأصلي للقرآن الكريم هو إثبات الأصول الأربعة : وهي الإلهيات ، والمعاد ، والنبوة ، وإثبات القضاء والقدر.

التفسير والبيان :

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا؟﴾ أي سل أيها الرسول هؤلاء المنكرين للبعث : أيهم أشد خلقا ، أي أصعب إيجادا ، هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ والآية نزلت في الأشد بن كلدة وأمثاله ، سمي بالأشد لشدة بطشه وقوته.

والسؤال للتوبيخ والتقريع ، فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقا منهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر ٤٠ / ٥٧] وقال سبحانه : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس ٣٦ / ٨١].

ثم أوضح الله تعالى مدى هذا التفاوت ، فقال :

﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ أي إنا خلقنا أصلهم وهو آدم من طين لزج يلتصق باليد. فإذا كانوا مخلوقين من هذا الشيء الضعيف ، فكيف يستبعدون المعاد؟ وهو إعادة الخلق من التراب أيضا ، أو من الماء الذي خالط التراب إذا مات الإنسان في الماء ، ولم ينكر ذلك من هو أقوى منهم خلقا وأعظم وأكمل. والمعنى : أن هذه الأجسام قابلة للحياة ، إذ لو لم تكن قابلة للحياة ، لما صارت حية في المرة الأولى ، والإله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الأجسام.

ثم انتقل البيان القرآني من أسلوب لأسلوب ، فقال تعالى :

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي لا حاجة لاستفتائهم ، فهم قوم معاندون ، وأنت يا محمد تتعجب من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، لأنك موقن إيقانا تاما بصنع الله وقدرته ، وبما أخبر الله تعالى به من إعادة الأجسام بعد فنائها ،

وهم على النقيض من ذلك يسخرون ويستهزئون مما تقول لهم من إثبات البعث ، ومما تريهم من الأدلة والآيات. أو عجبت من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة الله ، أو عجبت من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث.

﴿وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾ أي وإذا وعظوا بموعظة من مواعظ الله ورسوله ، لا يتعظون ولا ينتفعون بها ، لاستكبارهم وعنادهم وقسوة قلوبهم.

﴿وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي وإذا شاهدوا دليلا واضحا ، أو معجزة من معجزات الرسول صلي الله عليه وآله وسلم التي ترشدهم إلى التصديق والإيمان ، يبالغون في السخرية والاستهزاء ، ويتنادون للتهكم والتضاحك ، ومشاركة الآخرين في السخرية.

﴿وَقالُوا : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي وقالوا : ما هذا الذي تأتينا به من الدلائل إلا سحر واضح ظاهر ، فلا يؤبه له ، ولا ننخدع به ، وهو من تراث الأقدمين المشعوذين.

ثم خصصوا إنكارهم بالبعث ، فقالوا :

﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً ، أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ أي إن من أعجب ما تقول : أنبعث أحياء بعد أن متنا ، وصرنا ترابا وعظاما نخرة؟

﴿أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾؟ وهل يبعث أيضا آباؤنا وأجدادنا الأقدمون الغابرون الذين مضى على موتهم أحقاب طويلة الأمد؟ فإن بعثهم أشد غرابة.

فأجابهم الله تعالى بقوله :

﴿قُلْ : نَعَمْ ، وَأَنْتُمْ داخِرُونَ﴾ أي قل أيها الرسول لهم : نعم ، تبعثون أحياء مرة أخرى ، بعد صيرورتكم ترابا ، وأنتم في هذا الحشر والنشر صاغرون

ذليلون حقيرون تحت القدرة العظيمة ، كما قال تعالى : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ﴾ [النمل ٢٧ / ٨٧] وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر ٤٠ / ٦٠].

﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي إن الأمر سهل جدا في قدرة الله ، وليس البعث صعبا ولا عسيرا ، فإنما البعث صيحة واحدة من إسرافيل بالنفخ في الصور بأمر واحد من الله عَزَّوَجَلَّ يدعوهم للخروج من الأرض ، فإذا الناس قاطبة قيام من مراقدهم في الأرض ، أحياء بين يدي الله تعالى ، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

ثم حكى الله تعالى ملامتهم لأنفسهم إذا عاينوا أهوال القيامة بقوله :

﴿وَقالُوا : يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي وقال منكر والبعث الذين كذبوا به في الدنيا : لنا الويل والهلاك ، فقد حلّ موعد الجزاء والعقاب على ما قدمنا من أعمال من الكفر بالله والتكذيب للرسل. دعوا على أنفسهم بالويل والثبور والهلاك ، لأنهم يومئذ يعلمون ما حل بهم.

فأجابتهم الملائكة بقولهم :

﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذا يوم الحكم والقضاء المبرم بين الناس ، الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء ، ويبين المحق من المبطل ، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ استدل الله تعالى على إثبات المعاد من وجهين :

أحدهما ـ إنه تعالى قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق من خلق الإنسان وهو

خلق السموات والأرض والجبال والبحار ، فوجب أيضا أن يقدر على إعادة خلق الإنسان.

الثاني ـ إنه تعالى قدر على خلق الإنسان في المرة الأولى ، والفاعل وهو الله والقابل للخلق وهو الإنسان باقيان كما كانا ، فوجب أن تبقى القدرة عليه في الحال الثانية ، وهي البعث أو الحشر والنشر.

فدل ذلك على أن البعث والقيامة أمر جائز ممكن.

٢ ـ كان خلق آدم عليه السلام من الطين ، وكذا خلق كل إنسان من الطين ، لأن تكوينه من الدم ، والدم يتولد من الغذاء ، والغذاء إما حيواني وإما نباتي ، وحياة الحيوان والنبات من تراب الأرض ، فمنه تنتج الثمار والحبوب والأعشاب وغيرها بعد سقيها بالماء.

٣ ـ لقد تعجب الرسول صلي الله عليه وآله وسلم من إنكار مشركي مكة وغيرهم للبعث ، لما استقر في قلبه من مشاهدة قدرة الله العظمى ، وعجيب صنعه ، ومبلغ إرادته ومشيئته.

٤ ـ بعد تقرير الله تعالى الدليل القاطع في إثبات إمكان البعث والقيامة حكى الله تعالى أشياء عن المنكرين :

أولها ـ تعجب النبي صلي الله عليه وآله وسلم من إصرارهم على الإنكار ، وهم يسخرون منه في إصراره على الإثبات ، كما تقدم ، مما يدل على أن أولئك الأقوام كانوا في غاية التباعد ، وفي طرفي النقيض.

ثانيها ـ أنهم إذا وعظوا بالقرآن وغيره من المسلّمات العقلية لا يتعظون ولا ينتفعون به.

ثالثها ـ أنهم إذا رأوا معجزة يبالغون في السخرية ويدعون غيرهم إلى مشاركتهم في السخرية والاستهزاء.

رابعها ـ أن سبب سخريتهم من الآية والمعجزة اعتقادهم أنها من باب السحر.

٥ ـ بعد إثبات إمكان البعث والقيامة بالدليل العقلي ، أقام الله تعالى الدليل السمعي القاطع على وقوع القيامة بقوله : ﴿نَعَمْ﴾ جوابا على إنكارهم البعث ، بعد الموت وصيرورتهم وأسلافهم ترابا وعظاما بالية.

٦ ـ وبعد الإثبات بالدليلين العقلي والسمعي لجواز حدوث القيامة ووقوعها ذكر تعالى بعض أحوال القيامة وهي ثلاث حالات :

الحالة الأولى ـ أن القيامة ما هي إلا صيحة واحدة من إسرافيل بالنفخ في الصور ، بأمر الله لدعوة الناس للخروج من الأرض ، فيمتثلون فورا ، وإذا هم قيام من قبورهم أحياء ، ينظرون إلى أهوال القيامة ، وإلى بعضهم بعضا.

الحالة الثانية ـ من وقائع القيامة أن المكذبين بعد القيام من القبور يقولون : يا هلاكنا ، هذا هو الجزاء الذي نجازى فيه على أعمالنا من الكفر وتكذيب الرسل.

الحالة الثالثة ـ تجيبهم الملائكة : هذا يوم الفصل الحاسم ، يوم الحكم والقضاء ، الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء.

مسئولية المشركين في الآخرة وأسبابها

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢٤) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٧) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾

الإعراب :

﴿ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ ما﴾ : استفهامية ، مبتدأ ، و ﴿لَكُمْ﴾ : خبره ، و ﴿لا تَناصَرُونَ﴾ : جملة في موضع نصب على الحال من الضمير المجرور في ﴿لَكُمْ﴾ مثل : مالك قائما.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ موضع الجملة إما منصوب على أنه خبر «كان» وجملتها في موضع رفع خبر إن ، وإما مرفوع على أنه خبر «إن» و «كان» ملغاة.

البلاغة :

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾ أسلوب تهكمي في الهداية ، لأنها تكون إلى طريق النعيم ، لا إلى صراط الجحيم.

﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ استعارة لجهة الخير أو للقوة والشدة أو لجهة الدين.

﴿إِذا قِيلَ لَهُمْ : لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾ إيجاز بالحذف ، أي قولوا : لا إله إلا الله ، وحذف لدلالة السياق عليه.

المفردات اللغوية :

﴿احْشُرُوا﴾ يقال للملائكة : اجمعوا ، من الحشر : وهو الجمع. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالشرك فهم المشركون ، وهو أمر من الله للملائكة بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف. ﴿وَأَزْواجَهُمْ﴾ أمثالهم وأشباههم ، فيحشر عابد الصنم مع عبدة الصنم ، وعابد الكواكب مع عبدتها ، وأصحاب الخمر معا ، وأصحاب الزنى معا. وقيل : أزواجهم : قرناؤهم من الشياطين. ﴿وَما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يحشر المعبودون من غير الله من الأصنام والأوثان وغيرها ، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ، وهو عام مخصوص بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠١].

﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ دلوهم وعرفوهم طريقها ليسلكوه. ﴿إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾ طريق النار. ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف أو عند الصراط [١] ﴿إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ عن عقائدهم وأعمالهم. ﴿ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ﴾ لا ينصر بعضكم بعضا بالتخليص من العذاب كحالكم في الدنيا ، وهذا يقال لهم توبيخا وتقريعا. ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون خاضعون لعجزهم ، وأصل الاستسلام : طلب السلامة ، ويلزمه الانقياد عرفا. وهذا أيضا يقال لهم.

﴿يَتَساءَلُونَ﴾ يتلاومون ويتخاصمون ، فيسأل بعضهم بعضا للتوبيخ. و ﴿قالُوا﴾ قال الأتباع للمتبوعين. ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه ، وعن جهة الخير التي نأمنكم منها ، لحلفكم أنكم على الحق ، فصدقناكم واتبعناكم. والمعنى : أنكم أضللتمونا. ﴿قالُوا﴾ قال المتبوعون لهم. ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي إنكم كنتم في الأصل غير مؤمنين ، فلم يحدث منا الإضلال الذي يؤدي إلى الرجوع عن الإيمان إلينا. ﴿مِنْ سُلْطانٍ﴾ تسلط عليكم ، وقوة وقهر ، نقهركم على متابعتنا. ﴿طاغِينَ﴾ مختارين الطغيان والضلال مثلنا ، ومتجاوزين الحد في العصيان.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنا﴾ وجب علينا جميعا. ﴿قَوْلُ رَبِّنا﴾ بالعذاب ، وهو : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ﴿إِنَّا لَذائِقُونَ﴾ إنا جميعا لذائقون العذاب بذلك القول. ﴿فَأَغْوَيْناكُمْ﴾ دعوناكم إلى الغيّ والضلال. ﴿غاوِينَ﴾ ضالين. ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ هذا قول الله تعالى ، فإنهم يوم القيامة جميعا الأتباع والمتبوعون مشتركون في العذاب ، لاشتراكهم في الغواية.

---

(١) الواو لا توجب الترتيب ، فيصح أن يكون الحبس والإيقاف في الموقف ، ويجوز أن يكون عند الصراط.

﴿إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الفعل نفعل بالمشركين غير هؤلاء ، أي نعذبهم ، سواء التابع منهم والمتبوع.

﴿إِنَّهُمْ كانُوا ..﴾ أي إن هؤلاء. ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن كلمة التوحيد أو على من يدعوهم إليها. ﴿لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ يعنون محمدا ص. ﴿بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رد من الله تعالى عليهم ، فإن هذا النبي صلي الله عليه وآله وسلم جاء بالقرآن المشتمل على الوعد والوعيد ، وإثبات الآخرة. والمعنى : إن ما جاء به من التوحيد حق ثبت بالبرهان ، وتوافق عليه المرسلون.

المناسبة :

بعد إثبات وجود الله وعلمه وقدرته ووحدانيته ، وإثبات القيامة ، ذكر تعالى أحوال الكفار في الآخرة حيث يساقون إلى نار جهنم ، دون أن يجدوا لهم نصيرا وعونا يخلصهم من العذاب ، ثم يتلاومون فيما بينهم ، ويتخاصم الأتباع والمتبوعون ، ولكنهم جميعا متساوون في العذاب ، بسبب إعراضهم استكبارا عن كلمة التوحيد في الدنيا ، وافترائهم على الرسول صلي الله عليه وآله وسلم بأنه ﴿لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ مع أنه جاء بالحق الثابت الذي لا محيد عنه وهو التوحيد الذي دعا إليه المرسلون جميعا.

التفسير والبيان :

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ ، مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يأمر الله الملائكة بجمع أصناف ثلاثة في موقف الحساب : وهم الظالمون المشركون ، وأزواجهم أمثالهم وأشباههم ، ومعبودوهم الذين كانوا يعبدونهم من غير الله ، من الأوثان والأصنام معا ، زيادة لهم في الحسرة والتخجيل على شركهم ومعصيتهم. والظلم هنا : الشرك ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان ٣١ / ١٣].

فهذا خطاب من الله للملائكة ، أو خطاب الملائكة بعضهم لبعض ، أي اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات وأنواعهم وضرباءهم.

يحشر المشركون وأشباههم في الشرك ومتابعوهم في الكفر ومشايعوهم في تكذيب الرسل وقرناؤهم من الشياطين ، يحشر كل كافر مع شيطانه. كذلك يحشر أصحاب المعاصي مع بعضهم ، فيجمع أهل الزنى معا ، وأهل الربا معا ، وأصحاب الخمر معا .. وهكذا.

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾ أي أرشدوا وعرّفوا هؤلاء المحشورين طريق جهنم ، زيادة في ازدرائهم والتهكم بهم.

﴿وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ أي احبسوهم في الموقف للحساب والسؤال عن عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم التي صدرت منهم في الدنيا. وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن مسعود : «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم».

﴿ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ﴾ أي يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ما بالكم لا ينصر بعضكم بعضا ، كما كنتم في الدنيا؟ وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر ، فقيل لهم يوم القيامة : ما لكم غير متناصرين؟.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي بل إنهم اليوم منقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ، ولا يحيدون عنه ، لعجزهم عن الحيلة ، فلا ينازعون في شيء أبدا.

وفي هذا الموقف في ساحات القيامة ، يتلاومون فيما بينهم ، ويتخاصم الأتباع والرؤساء ، فقال تعالى :

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ أي أقدم الأتباع والرؤساء من هؤلاء الكفار ، يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ وتقريع ومخاصمة ، في موقف القيامة ، كما يتخاصمون في دركات النار ، كما في آية : ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ. قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُلٌّ فِيها ، إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ﴾ [إبراهيم ٤٠ / ٤٨ ـ ٤٧].

﴿قالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي قال الأتباع للرؤساء : إنكم كنتم تأتوننا من جهة الخير ، فتصدوننا عنه. وقيل : إن اليمين مجاز مستعار من القوة والقهر ، أي كنتم تأتوننا من ناحية القهر والقوة وبحكم السيطرة والرياسة لكم علينا في الدنيا ، حتى تحملونا على الضلال ، وتقسرونا عليه. وقيل : تأتوننا من جهة الدّين ، فتهونون علينا أمره وتنفروننا عنه ، كما هو الشأن اليوم في كثير من الرؤساء والرفاق.

وكلمة ﴿قالُوا﴾ جواب عن سؤال مقدر ، فهو استئناف بياني.

فأجاب الرؤساء بجوابين :

١ ـ ﴿قالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي بل إنكم أنتم أبيتم الإيمان ، وأعرضتم عنه ، مع تمكنكم منه ، مختارين الكفر ، فقلوبكم هي القابلة للكفر والعصيان ، وكنتم من الأصل على الكفر. وكلمة ﴿قالُوا﴾ أي المخاطبون وهم قادة الكفر أو الجن.

٢ ـ ﴿وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ﴾ أي لم يكن لنا عليكم من حجة وتسلط نسلبكم به اختياركم وتمكنكم ، بل كان فيكم طغيان وتجاوز الحد في الكفر ، ومجاوزة للحق الذي جاءتكم به الأنبياء ، وكنتم مختارين الطغيان ، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الدين الحق ، وما كان منا إلا الدعوة ، وكانت منكم الإجابة اختيارا لا جبرا.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ﴾ أي وجب علينا وعليكم حكم ربنا ، ولزمنا قول ربنا ، وهو قوله : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلنذوقن ما وعدنا به ، ونحن ذائقو العذاب لا محالة يوم القيامة. قال أبو حيان : والظاهر أن قوله : ﴿إِنَّا لَذائِقُونَ﴾ إخبار منهم أنهم ذائقون العذاب جميعهم الرؤساء والأتباع.

﴿فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ﴾ أي إنا أضللناكم ، ودعوناكم إلى الضلالة ، وإلى ما نحن فيه من الغواية ، فاستجبتم لنا.

ثم بعد هذا النقاش والجدل بين الأتباع والرؤساء ، وصف الله تعالى العذاب الذي يحل بالفريقين ، فقال :

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي إن التابعين والمتبوعين أو الأتباع والقادة مشتركون حينئذ جميعا في العذاب لا محالة ، كما اشتركوا في الضلال والكفر ، والجميع في النار ، كل بحسبه.

واشتراكهم في العذاب عدل ككل المجرمين الكافرين ، لذا قال تعالى :

﴿إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء نفعل بالمشركين ، ويجازى كل عامل بما قدم.

وسبب العذاب هو ما قاله تعالى :

﴿إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ : لا إِلهَ إِلَّا اللهُ ، يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إنهم كانوا إذا دعوا إلى كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله ، استكبروا عن القبول ، وأعرضوا عن قولها كما يقولها المؤمنون.

﴿وَيَقُولُونَ : أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا لقول شاعر مجنون ، يسرح في الخيال ، ويخلط في الأقوال ، يعنون رسول الله ص. وبهذا أنكروا في الكلام الأول الوحدانية ، وفي الثاني أنكروا الرسالة.

فرد الله عليهم تكذيبا لهم بقوله :

﴿بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي إن النبي صلي الله عليه وآله وسلم جاء بالحق في جميع ما شرعه الله له ، وأوله التوحيد ، وصدّق في ذلك الأنبياء المرسلين فيما جاؤوا به

من التوحيد والوعد والوعيد وإثبات المعاد ، ولم يخالفهم في تلك الأصول ، ولا جاء بشيء يغاير ما أتوا به من قبله ، فكيف يصح وصفه بالشاعر أو المجنون؟ قال تعالى : ﴿ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٣] وقال سبحانه : ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر ٣٥ / ٣١].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يلي :

١ ـ يحشر الملائكة ويسوقون بأمر الله تعالى الكفار إلى موقف السؤال ، وهم ثلاثة أنواع : الظالمون ، وأزواجهم (أمثالهم) والأشياء التي كانوا يعبدونها. والمراد بالظالمين : الكافرون ، لكونهم عابدين لغير الله تعالى.

وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر ، ويفهم منه أن كل وعيد ورد في حق الظالم ، فالمراد منه الكفار ، ويؤكده قوله تعالى : ﴿وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٤].

وقوله تعالى : ﴿وَأَزْواجَهُمْ﴾ فسر بأقوال ثلاثة الظاهر منها أولها ، ويجوز إرادتها كلها :

الأول ـ أشباههم من الكفرة ، فاليهودي مع اليهودي ، والنصراني مع النصراني ، وهكذا ، لقوله تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً﴾ [الواقعة ٥٦ / ٧].

الثاني ـ قرناؤهم من الشياطين ، لقوله تعالى : ﴿وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٠٢].

الثالث ـ المراد : نساؤهم اللواتي على دينهم.

٢ ـ يوقف الكفار للحساب ثم يساقون إلى النار ، فيكون الإيقاف أو الحبس قبل السوق إلى الجحيم ، ويكون بين الآيتين ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ و ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ تقديم

وتأخير. وقيل : يساقون إلى النار أولا ، ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار ، ويكون سؤالهم عن عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم.

وهذا كله دليل على أن الكافر يحاسب.

٣ ـ يقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضا ، فيمنعه من عذاب الله.

٤ ـ في ذلك الموقف الرهيب لا حيلة لهم ، وهم منقادون خاضعون لأمر الله ، مستسلمون لعذاب الله عَزَّوَجَلَّ .

٥ ـ تظهر هناك صورة من النقاش والجدل والتخاصم والتلاوم بين الرؤساء والأتباع ، لقوله سبحانه : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضا ، والمراد بالتساؤل : التخاصم ، فليس المقصود منه تساؤل المستفهمين ، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم.

يقول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة : ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها ، أو تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح ، والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح ، أو تأتوننا من قبل الدّين ، فتهونون علينا أمر الشريعة وتنفروننا عنها. قال القرطبي عن الأخير : وهذا القول حسن جدا ، لأن من جهة الدين يكون الخير والشر ، واليمين بمعنى الدّين ، أي كنتم تزينون لنا الضلالة.

وقيل : اليمين بمعنى القوة ، أي تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر ، قال الله تعالى : ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات ٣٧ / ٩٣] أي بالقوة ، وقوة الرجل في يمينه.

فيجيبهم الرؤساء : ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لم تؤمنوا قط حتى ننقلكم من الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم على الكفر وألفتموه. ولم يكن لنا عليهم سلطان وقهر وحجة في ترك الحق ، بل كنتم قوما ضالين متجاوزين الحد ، فوجب علينا وعليكم قول ربّنا ، فكلنا ذائقو العذاب ، كما أخبر الله على ألسنة الرسل : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة ٣٢ / ١٣].

وقالوا أيضا : لقد أغويناكم وأضللناكم ، أي زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ، إنا كنا غاوين بالوسوسة والاستدعاء.

٦ ـ ثم أخبر الله تعالى عنهم : ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي يكون القادة والأتباع جميعا في نار جهنم ، سواء الضال والمضل ، كل بحسبه.

٧ ـ إن مقتضى العدل الإلهي والسنن الرباني أن يعاقب المجرمون المشركون على جرمهم العظيم ، وهو إنكار الوحدانية والاستكبار عن كلمة التوحيد ، وتكذيب الرسل ، أو التكذيب بالتوحيد ، والتكذيب بالنبوة.

وقد صدر منهم الأمران جميعا ، أما إنكار التوحيد ففي قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ : لا إِلهَ إِلَّا اللهُ ، يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وأما تكذيب الرسل فهو في قوله سبحانه : ﴿وَيَقُولُونَ : أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أي لقول شاعر مجنون ، فجمعوا بين إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة.

فردّ الله عزّ وجلّ عليهم بقوله : ﴿بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي إن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم جاء بالقرآن والتوحيد ، وصدّق الأنبياء المرسلين قبله فيما جاؤوا به من التوحيد ونفي الشريك.

جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين المخلصين

﴿إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٤) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٥٠) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (٦١)﴾

الإعراب :

﴿إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ الْعَذابِ﴾ : مجرور بالإضافة ، من إضافة الفاعل لمفعوله. وقرئ بنصب العذاب على تقدير النون في ﴿لَذائِقُوا﴾ كما يقال : ولا ذاكر الله إلا قليلا.

﴿فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فَواكِهُ﴾ : بدل من ﴿رِزْقٌ﴾ في قوله تعالى : ﴿أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ظرف أو حال من ضمير ﴿مُكْرَمُونَ﴾ أو خبر ثان لأولئك. وكذلك ﴿عَلى سُرُرٍ﴾ إما حال أو خبر.

﴿لا فِيها غَوْلٌ غَوْلٌ﴾ : مبتدأ ، و ﴿فِيها﴾ : خبره ، ولا يجوز أن يبنى ﴿غَوْلٌ﴾ مع ﴿لا﴾ للفصل بينهما ب ﴿فِيها﴾.

﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ بفتح نون ﴿مُطَّلِعُونَ﴾ وقرئ بالكسر ، وهو ضعيف جدا ، لأنه جمع بين نون الجمع والإضافة ، وكان ينبغي أن يكون «مطلعيّ» بياء مشددة ، لأن النون تسقط للإضافة.

﴿فَاطَّلَعَ﴾ بالتشديد ، وقرئ بالتخفيف «اطلع» وهما فعلان ماضيان.

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى مَوْتَتَنَا﴾ : منصوب على المصدر ، كأنه قال : ما نحن نموت إلا موتتنا الأولى ، كما تقول : ما ضربت إلا ضربة واحدة.

البلاغة :

﴿إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب من إنهم إلى إنكم ، لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم.

﴿قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾ كناية ، كنّى بذلك عن الحور العين ، لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، حذف منه وجه الشبه ، فصار مجملا.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسل ﴿إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم ، أو جزاء ما عملتم ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي المؤمنين الذين أخلصوا لله في العبادة ، أو أخلصهم الله لعبادته واصطفاهم لدينه ، وهو استثناء منقطع ﴿أُولئِكَ لَهُمْ﴾ في الجنة ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ أي معروف الخصائص من الدوام والانتظام وتمحض اللذة ﴿فَواكِهُ﴾ ما يؤكل تلذذا لا لحفظ الصحة والتغذي ، لأن أهل الجنة مستغنون عن حفظها ، بخلق أجسامهم للأبد ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أي ولهم من الله إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده ، وسماع كلامه تعالى ولقائه في الجنة. وهم أيضا مكرمون في نيل الرزق ، فإنه يصل إليهم من غير تعب ولا سؤال ، كما عليه رزق الدنيا ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي في جنات ليس فيها إلا النعيم.

﴿عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ أي على أسرّة يتكئون عليها ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ، كل منهم مسرور بلقاء أخيه ، لا ينظر بعضهم قفا بعض. ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ﴾ على كل منهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه الشراب ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ أي من خمر يجري على وجه الأرض ، كالعيون والأنهار ﴿بَيْضاءَ﴾

أشد بياضا من اللبن ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي لذيذة لمن شربها ، بخلاف خمر الدنيا ، فإنها كريهة عند الشرب ، قال الحسن البصري : خمر الجنة أشد بياضا من اللبن ، له لذة لذيذة ﴿لا فِيها غَوْلٌ﴾ أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع ﴿وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾ يسكرون ، بخلاف خمر الدنيا. قرئ بفتح الزاي وكسرها ، من نزف الشارب وأنزف : سكر ، فهو نزيف ومنزوف.

﴿قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن ، فلا يردن غيرهم ﴿عِينٌ﴾ أي ضخام الأعين حسانها ، جمع عيناء : وهي المرأة الواسعة العين مع حسنها ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ شبههن في الصفاء والبياض المخلوط بشيء من الصفرة ببيض النعام المستور بريشه من الريح والغبار. والمكنون : المصون من الغبار ونحوه. وهذا اللون وهو البياض المشوب بصفرة أحسن ألوان النساء.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ أي أقبل بعض أهل الجنة على بعض ، حال شربهم ، يسألون عن أحوالهم التي كانت في الدنيا ، وذلك من تمام نعيم الجنة ﴿قَرِينٌ﴾ خليل وصاحب في الدنيا ، كافر بالبعث ، منكر له. ﴿لَمَدِينُونَ﴾ مجزيون بأعمالنا ، ومحاسبون بها ، بعد أن صرنا ترابا وعظاما؟ ﴿قالَ﴾ المؤمن ذلك القائل لإخوانه ﴿مُطَّلِعُونَ﴾ معي إلى النار ، لننظر حال ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة ، كيف منزلته في النار؟

﴿فَاطَّلَعَ﴾ ذلك المؤمن إلى النار ﴿فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ رأى قرينه في وسط النار ﴿قالَ﴾ له شماتة ﴿إِنْ كِدْتَ﴾ قاربت ، و ﴿إِنْ﴾ : مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن واللام هي الفارقة ﴿لَتُرْدِينِ﴾ لتهلكني بإغوائك وتوقعني في النار ﴿وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ ورحمته علي بالإيمان والهداية ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار ، المسوقين للعذاب ﴿أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ أي أنحن مخلدون غير ميتين؟ وهو قول أهل الجنة ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى﴾ غير موتتنا التي في الدنيا ، وهذا قول صادر من دواعي الابتهاج والسرور بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة الذي لا ينقطع ، فهو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله تعالى ، من تأييد الحياة وعدم التعذيب ﴿وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي لسنا بمعذبين.

﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي إن ما فيه أهل الجنة من النعمة والخلود والأمن من العذاب ، لهو الفوز الساحق الذي لا يقدر قدره. ويحتمل أن يكون هذا من كلام أهل الجنة ، وأن يكون كلام الله تقريرا لما يقولون. ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ﴾ أي هذه هي التجارة الرابحة ، وهو الهدف الأمثل الذي يسعى إليه العاملون ، لا العمل للدنيا الزائفة ، فلنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون ، لا لحظوظ الدنيا المشوبة بالآلام ، السريعة الزوال. ويحتمل أن يكون هذا أيضا من كلام أهل الجنة أو كلام الله.

المناسبة :

بعد أن حكى الله تعالى تكذيب الكفار بالتوحيد وبالنبوة ، نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور ، مبينا أن حوار الأتباع والرؤساء من أهل الضلال لا فائدة فيه ، فإن العذاب شامل الفريقين ، وأن الجزاء العدل في الآخرة على وفق العمل في الدنيا ، ثم استثنى الله تعالى العباد الذين اصطفاهم لطاعته ، وأخلصوا العبادة لربهم ، فهم في ألوان متنوعة من النعيم المادي في الجنة من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وكذا من النعيم المعنوي حيث لا يشغلهم همّ ولا نصب ، ويستذكرون أحوالهم في الدنيا ، وأحاديثهم مع بعض القرناء الأخلاء.

التفسير والبيان :

يبين الله تعالى حال المكذبين الضالين ، وهو أيضا خطاب للناس ، فيقول : ﴿**إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ**﴾ أي إنكم أيها الكفار لتذوقن العذاب المؤلم في نار جهنم الذي يدوم ولا ينقطع.

﴿**وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ أي إن جزاء كم لحق وعدل لا ظلم فيه ، وهو عقابكم على أعمالكم من الكفر والمعاصي ، فهي سبب الجزاء : ﴿**وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت ٤١ / ٤٦]﴿**وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**﴾ [الكهف ١٨ / ١٩].

بعد بيان حال المجرمين المتكبرين عن قبول التوحيد المصرّين على إنكار النبوة ، ذكر تعالى حال المخلصين في كيفية الثواب ، فقال :

﴿**إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ، أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ، فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ**﴾ أي ولكن عباد الله الذين أخلصهم الله لطاعته وتوحيده ، وأخلصوا العمل لله ، ناجون لا يذوقون العذاب ولا يناقشون الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم ، كما

قال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ..﴾ [العصر ١٠٣ / ١ ـ ٣]﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ ..﴾ [المدثر ٧٤ / ٣٨ ـ ٣٩]. و ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ صفة مدح ، لأن كونهم عباد الله يلزم منه أن يكونوا مخلصين.

ولهؤلاء المخلصين رزق من الله ، معلوم حسنه وطيبه ودوامه دون انقطاع في الجنة ، يعطونه بكرة وعشيا ، وإن لم يكن ثمة بكرة وعشية ، فيتمتعون بلذيذ الفواكه المتنوعة أي الثمار كلها ، فهي أطيب ما يأكلونه ، وذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم ، فهم يخدمون ويرفهون ، ولهم أيضا إكرام عظيم برفع درجاتهم في الجنة عند ربهم ، ويسمعون كلامه ويلقونه في رحاب الجنان.

وفي هذا دلالة على أن تناولهم الفاكهة إنما هو تلذذ لا للتغذي والقوت ، لأنهم مستغنون عنه ، لأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد. ووصف ﴿رِزْقٌ﴾ بمعلوم ، أي عندهم.

وبعد بيان مأكولهم ، وصف الله تعالى مساكنهم ، فقال :

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ أي إن هذا الرزق يأتيهم في جنات ذات نعيم مقيم ومتاع دائم ، وهم على أسرة يتكئون عليها ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ، بسرور وابتهاج ، لا ينظر بعضهم في قفا بعض ، فصاروا يجمعون بين المتعة المادية الجسدية ، والمتعة الروحية الإنسانية.

وبعد بيان صفة المأكل والمسكن ذكر تعالى صفة الشراب ، فقال :

﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ أي يدار عليهم بآنية من خمر تجري في أنهر ، والمعين : الماء الجاري ، فهي تخرج من العيون كما يخرج الماء دون انقطاع ، وسمي معينا لظهوره.

ثم وصف الله تعالى خمر الجنة البعيدة عن آفات خمر الدنيا ، فقال :

﴿بَيْضاءَ لَذَّةٍ [١] لِلشَّارِبِينَ ، لا فِيها غَوْلٌ ، وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾ أي ذات لون أبيض شديد البياض ، لذيذة الطعم ، طيبة الرائحة ، لا كخمر الدنيا المرّة ذات النكهة المزعجة ، وهي لا تذهب بالعقول ، ولا تؤدي إلى صداع الرأس ، ووجع البطن ، وأنواع الأمراض ، كما هو شأن خمر الدنيا ، فهي بخلاف خمر الدنيا في جميع تلك الأوصاف ، لا تضر النفس والعقل والمال والشخصية ، بسبب نزع مادة الغول أي الكحول منها. وفي هذا إيماء إلى مفاسد خمر الدنيا من صداع وفساد وسكر ، وعربدة وهذيان ، وإفساد للدم ، وجهاز الهضم كله.

وبعد بيان صفة مشروبهم ذكر تعالى صفة زوجاتهم ، فقال :

﴿وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ أي لديهم زوجات عفيفات ، لا ينظرن إلى غير أزواجهن ، ولا يردن غيرهم ، ذوات عيون واسعة حسان. والعين جمع عيناء : وهي النجلاء الواسعة في جمال ، الحسناء المنظر ، وبه يتبين أنه تعالى وصف عيونهن بالحسن والعفة ، كما قال تعالى في الحور العين : ﴿خَيْراتٌ حِسانٌ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٧٠].

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ أي كأن ألوانهن من البياض المشوب بأدنى الصفرة ، كالبيض المحصون المصون المستور الذي لم تمسه الأيدي ، ولم يتلوث بالريح والغبار. وهذا اللون أحسن ألوان النساء.

وبعد بيان ألوان المتعة المادية لأهل الجنة في المآكل والمشارب والمساكن والأزواج ، ذكر الله تعالى بعض أنواع المتع النفسية ، فقال :

---

(١) لذة : صفة بالمصدر على سبيل المبالغة ، أو على حذف ، أي ذات لذة ، أو على تأنيث لذ بمعنى لذيذ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ أي أقدم بعضهم حال شربهم واجتماعهم ومعاشرتهم في مجالسهم ، يسأل بعضا آخر عن أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا ، وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من تمام نعيم الجنة.

ومن موضوعات التساؤل قوله تعالى :

﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ ، يَقُولُ : أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ، أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي قال مؤمن من أهل الجنة : كان لي صاحب في الدنيا كافر بالبعث منكر له ، يقول : أنحن إذا متنا وصرنا ترابا متفتتا وعظاما بالية ، أنكون محاسبين بعدئذ على أعمالنا ، ومبعوثين نجازى على ما قدمنا في الدنيا؟ فذلك أمر مستحيل غير معقول ولا مقدور لأحد ، فهل أنت مصدق مثل هذه الخرافات؟

﴿قالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾؟ قال المؤمن لجلسائه : انظروا معي إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة ، كيف يعذب ، وكيف يجازى الجزاء الأوفى؟

﴿فَاطَّلَعَ ، فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ أي فنظر ذلك المؤمن إلى أهل النار ، فرأى قرينه في وسط جهنم ، يتلظى بحرّها.

﴿قالَ : تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ، وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي قال المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ : لقد قاربت أن توقعني في الردى والهلاك بالإغواء ، وتهلكني بدعوتك إياي إلى إنكار البعث والقيامة ، ولو لا رحمة ربي وعصمته من الضلال ، وتوفيقه وإرشاده لي إلى الحق ، وهدايته لي إلى الإسلام ، لكنت من المحضرين معك في النار للعذاب.

ثم عاد ذلك المؤمن إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة ، فقال :

﴿أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي قال المؤمن لجلسائه ابتهاجا وسرورا بما أنعم عليهم من نعيم الجنة الدائم : أنحن مخلّدون منعّمون أبدا ، فلا نموت إلا الموتة الأولى الحادثة في الدنيا ، ولسنا معذّبين كما يعذّب الكفار أصحاب النار؟

هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى الله لهم ألا يذوقوا إلا الموتة الأولى ، بخلاف الكفار ، فإنهم فيما هم فيه من العذاب يتمنون الموت كل ساعة. والمؤمن يقول هذا القول تحدثا بنعمة الله واغتباطا بحاله وبمسمع من قرينه توبيخا له ، يزداد به عذابا ، وأما المؤمن فيسعد ويغبط نفسه بالخلود في الجنة ، والإقامة في النعيم ، بلا موت ولا عناء.

﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ﴾ أي إن هذا النعيم الدائم المقيم وهذا الفضل العميم الذي نحن فيه لهو النجاح الباهر ، والفوز الأكبر الذي لا يوصف ، ولمثل هذا النعيم والفوز ، ليعمل العاملون في الدنيا ، ليحظوا به ، لا أن يعملوا فحسب لحظوظ الدنيا الفانية ، المقترنة بالمخاطر والآلام والمتاعب الكثيرة. والخلاصة : أن المطلوب هو العمل للآخرة وللجنة الخالدة ، لا أن يقصر العمل على المكاسب الدنيوية فقط.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن عذاب الكفار والمجرمين أمر حق وعدل ومؤكد الوقوع.

٢ ـ هذا الجزاء يكون بسبب العمل المنكر وهو الشرك والمعاصي ، وهذا رد على من قد يقول : كيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده؟

٣ ـ إن تنفيذ الأمر الإلهي واجتناب القبيح والمعصية يتطلبان الترغيب في الثواب ، والترهيب من العقاب ، لذا استثنى الله من الإخبار بالعذاب عباده الذين أخلصوا العمل لله تعالى ، فهم ناجون غير معذبين.

٤ ـ إن ثواب المؤمنين المخلصين هو الجنة ، وفيها الرزق المعلوم الصفات وهو الدائم الذي لا ينقطع ، المشتمل على أطيب المآكل من الثمار المختلفة الرطبة واليابسة ، في بساتين يتنعمون فيها ، ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه.

ولا ينظر بعضهم في قفا بعض ، وإنما يجلسون على أسرّة يتكئون عليها متقابلين وجها لوجه ، غير متدابرين.

وذلك الرزق مشتمل أيضا على أطيب المشارب من خمور تقدم لهم بكؤوس مترعة ، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ، وإنما تجري كما تجري العيون على وجه الأرض ، وخمر الجنة أشد بياضا من اللبن ، طيبة الطعم ، وطيبة الريح ، لا تغتال عقولهم ، ولا تذهب بها بشربها ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع ، ولا يسكرون منها.

ولهم أزواج من النساء العفيفات اللاتي قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم ، وهن حسان العيون ، ذوات جمال ولون بديع كبيض النعام المصون ، يخالط لونها صفرة قليلة ، وهو أحسن ألوان النساء.

٥ ـ يتجاذب أهل الجنة أطراف الأحاديث المسلّية التي يتذكرونها في الدنيا ، إتماما للأنس في الجنة ، فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا.

ومن موضوعات أحاديثهم : قصة المؤمن والكافر ، يقول المؤمن من أهل الجنة : كان لي في الدنيا قرين أي صديق ملازم ، فسألني متعجبا : هل أنت من

المصدقين بالبعث والجزاء؟ وهل نحن مجزيون محاسبون بعد الموت ، وهل يعقل أن نعود أحياء بعد أن متنا وصرنا ترابا وعظاما نخرة؟

وتتمة الموضوع أن يقول المؤمن لأهل الجنة : هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين ومآله؟ فلم يفعلوا ، وإنما اطلع هو ، فوجد قرينه معذبا في وسط النار. فيقول له موبخا : والله ، لقد قاربت أن توقعني في النار ، وتهلكني ، ولو لا فضل ربي ورحمته وعصمته من الضلال والباطل ، وإنعامه بالإرشاد والتوفيق إلى الحق ، لكنت محضرا معك في النار مثلك.

٦ ـ ثم يعود ذلك المؤمن إلى خطاب جلسائه الذين هم من أهل الجنة ، بعد أن يعلموا أنهم لا يموتون حين يمثل الموت بصورة كبش أملح فيذبح ، بعد أن كانوا لا يعلمون بذلك في أول دخولهم في الجنة ، فيقول مغتبطا مبتهجا : أنحن مخلّدون منعّمون ، فما نحن بميتين ولا معذّبين؟

٧ ـ النتيجة من القصة والحديث المتبادل : هي أن الظفر بنعيم الجنان هو الفوز الأعظم ، ولمثل هذا العطاء والفضل ينبغي أن يعمل العاملون العمل الصالح المؤدي إلى تلك النعمة الكبرى.

وقوله تعالى : ﴿**إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ**﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعد الله له في الجنة وما أعطاه ، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة ، ويحتمل أن يكون هو من قول الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الدنيا ، أي قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء ، فليعمل العاملون لمثل هذا ، كما تقدم إيجازه.

جزاء الظالمين وأنواع العذاب في جهنم

﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)﴾﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)﴾

الإعراب :

﴿إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ : إما وصف لشجرة ، وإما خبر بعد خبر ، وإما في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿تَخْرُجُ﴾. و ﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ : اي منبتها في قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

البلاغة :

﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ في قوله : ﴿خَيْرٌ﴾ أسلوب تهكمي للتهكم بهم.

﴿مُنْذِرِينَ الْمُنْذَرِينَ﴾ بينهما جناس ناقص ، يراد بالأول الرسل ، وبالثاني الأمم.

﴿طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ﴾ تشبيه مرسل مجمل حذف منه وجه الشبه ، أي في الهول والشناعة وتناهي القبح.

المفردات اللغوية :

﴿أَذلِكَ﴾ المذكور لهم. ﴿خَيْرٌ نُزُلاً﴾ ضيافة ، والنزل : ما يعد للنازل ضيفا وغيره من طعام وشراب. ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ شجرة معدة لأهل النار ، وهي شجرة صغيرة الورق تنبت

بتهامة ، لها ثمر مرّ كريه الرائحة ، يكره أهل النار على تناوله ، فهم يتزقمونه. والتزقم : البلع مع الجهد والألم. ﴿إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أي أنبتناها في قعر جهنم ، لتكون محنة للكافرين من أهل مكة ، إذ قالوا : كيف ذلك ، والنار تحرق الشجر ، فكيف تنبته؟ ولم يعلموا أن من قدر على خلق ما يعيش في النار ، فهو أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق ، وهناك أشياء نشاهدها اليوم غير قابلة للاحتراق.

﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي تنبت في قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. ﴿طَلْعُها﴾ ثمرها أو حملها المشبّه بطلع النخل ، وأصل الطلع : ثمر النخلة أول ظهوره ، أطلق على ثمر هذه الشجرة مجازا. ﴿كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ﴾ شبه المحسوس بالمتخيل ، وإن كان غير مرئي ، للدلالة على أن ثمرها في غاية القبح ، ونهاية البشاعة ، كتشبيه الفائق في الحسن بالملك ، وقيل : الشياطين : حيات هائلة قبيحة المنظر ، لها أعراف. ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها﴾ فإن الكفار لآكلون من تلك الشجرة مع قبحها لشدة جوعهم. ﴿فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ الملء : حشو الوعاء بما لا زيادة عليه. ﴿لَشَوْباً﴾ الشوب : الخلط ، يقال : شاب الطعام أو الشراب : خلطه بشيء آخر. ﴿حَمِيمٍ﴾ ماء شديد الحرارة ، يشربونه ، فيختلط بالمأكول من شجرة الزقوم ، فيصير شوبا له.

﴿مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرهم. ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتها أو إلى نفسها ، وهذا دليل على أنهم يخرجون من النار لشراب الحميم ، وأنه خارجها ، لقوله تعالى : ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٤٣ ـ ٤٤] يوردون إليه ، كما تورد الإبل إلى الماء ، ثم يردون إلى الجحيم.

﴿أَلْفَوْا﴾ وجدوا. ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يزعجون إلى اتباعهم ، ويسرعون إسراعا شديدا ، وهو تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال. والإهراع : الإسراع الشديد. ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك. ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الماضية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أنبياء أنذروهم من العواقب. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي مصير الكافرين من الأمم وهو العذاب. ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلا الذين تنبهوا بإنذارهم ، فأخلصوا دينهم لله ، فنجوا من العذاب ، والمخلصين : بفتح اللام : هم الذين أخلصهم الله للعبادة والطاعة ، وبكسر اللام : هم الذين أخلصوا في العبادة.

المناسبة :

بعد بيان ما أعده الله تعالى للأبرار في جنات النعيم من مآكل ومشارب وغيرها ، ذكر تعالى ما أعده للأشرار في نار جهنم ، من أنواع المآكل والمشارب بسبب تقليدهم الآباء في الكفر بالله وعبادة الأصنام والأوثان.

التفسير والبيان :

﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أهذا المذكور من نعيم الجنة وما فيها مآكل ومشارب وملاذ وغيرها خير ضيافة وعطاء ، أم شجرة الزقوم ذات الطعم المرّ الشنيع ، التي في جهنم؟ وهذا نوع من التهكم والسخرية بهم ، فهو طعام أهل النار يتزقمونه ، وهو نزلهم وضيافتهم.

﴿إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أي إنا جعلنا تلك الشجرة اختبارا للكافرين ، حين افتتنوا بها وكذبوا بوجودها ، فقالوا : كيف تكون الشجرة في النار ، والنار تحرق ما فيها؟

وهذا الاستبعاد لجهلهم بأن بعض الأشياء غير قابل للاحتراق ، ولأنهم لم يعلموا ولم يلاحظوا أن من قدر على خلق إنسان يعيش في النار ، فهو أقدر على خلق شجر فيها لا يحترق.

وصفات تلك الشجرة ما قاله تعالى :

١ . ﴿إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي إنها شجرة تنبت في قعر النار وقرار جهنم ، وترتفع أغصانها إلى دركاتها.

٢ . ﴿طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ﴾ أي إن ثمرها وما تحملها كأنه في تناهي قبحه وشناعة منظره كأنه رؤوس الشياطين ، تبشيعا لها وتكريها لذكرها ، فشبّه المحسوس بالمتخيل غير المرئي ، والعرب تشبّه قبيح الوجه بالشيطان ، وتشبه جميل الصورة بالملك ، كما جاء في القرآن حكاية على لسان صواحبات يوسف عليه السلام : ﴿ما هذا بَشَراً ، إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف ١٢ / ٣١].

وقيل : إن الشياطين هي حيّات لها رؤوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيات.

ثم ذكر الله تعالى أن هذه الشجرة مأكل الكفار أهل النار ، فقال :

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ، فَمَالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي إنهم يأكلون من ثمر هذه الشجرة السيء الريح والطعم والطبع ، فيملئون بطونهم منه ، بالإكراه والاضطرار ، لأنهم لا يجدون غير هذه الشجرة ونحوها ، كما قال تعالى : ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ، لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية ٨٨ / ٦ ـ ٧] فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة.

روى ابن أبي حاتم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم تلا هذه الآية ، وقال : «اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه؟»[1].

وبعد وصف طعامهم ، وصف تعالى شرابهم بما هو أبشع منه ، قائلا :

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي ثم إن لهم بعد الأكل منها لشرابا من ماء شديد الحرارة يخالط طعامهم. والمقصود من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول. ومكان هذا الماء خارج جهنم ، لقوله تعالى :

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي مرجعهم بعد شرب الحميم وأكل الزقوم إلى دار الجحيم. وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم ، مما يدل على أن الحميم في موضع خارج عن الجحيم ، فهم يوردون الحميم لشربه ، كما تورد الإبل إلى الماء ، ثم يردّون إلى الجحيم ، كما قال تعالى : ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٤٣ ـ ٤٤].

---

(١) قال الترمذي : حسن صحيح.

وبعد وصف عذابهم في أكلهم وشربهم ذكر الله تعالى علة العذاب قائلا :

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ ، فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي إنهم وجدوا وصادفوا آباءهم على الضلال ، فاقتدوا بهم وقلدوهم ، من غير تعقل ولا تدبر ، ولا حجة وبرهان ، فهم يتبعون آباءهم في سرعة ، كأنهم حرّضوا على ذلك ، وأزعجوا إلى اتباع آبائهم.

ثم بيّن الله تعالى أن الكفر ظاهرة قديمة ، وأتباعه كثر ، تسلية للرسول صلي الله عليه وآله وسلم في كفر قومه وتكذيبهم ، فقال :

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إن أكثر الأمم الماضية كانوا ضالين ، يجعلون مع الله آلهة أخرى.

ولكن رحمته تعالى لم تتركهم دون إنذار ، فقال :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي أرسل الله في الأمم الماضية أنبياء ورسلا ينذرونهم بأس الله ، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به ، وعبد غيره ، لكنهم تمادوا في مخالفة رسلهم وتكذيبهم فأهلكهم الله ، كما قال :

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فانظر أيها الرسول والمخاطب كيف كان مصير الكافرين المكذبين ، أهلكهم الله ودمّرهم وصاروا إلى النار ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، ثم استثنى تعالى منهم المؤمنين قائلا :

﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكن نجى الله عباده الذين اصطفاهم وأخلصهم لطاعته ، بتوفيقهم إلى الإيمان والتوحيد ، والعمل بأوامر الله ، ففازوا بجنان الخلد ، ونصرهم في الدنيا.

ويفهم من هذه التسلية للرسول صلي الله عليه وآله وسلم أنه يجب عليه أن يكون له أسوة بمن

تقدمه من الرسل ، فيصبر كما صبروا ، ويستمر على دعوته ، وإن تمرد المرسل إليهم ، فليس عليه إلا البلاغ.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ لا مجال للمقارنة بين ما أعده الله لعباده الأبرار من نعيم في الجنان ، وما أعده للأشرار من عذاب في النيران.

٢ ـ إن طعام أهل النار هو الزقّوم الثمر المرّ الكريه الطعم والرائحة ، العسير البلع ، المؤلم الأكل ، كما قال تعالى : ﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ**﴾ [الدخان ٤٤ / ٤٣ ـ ٤٦].

٣ ـ إن الإخبار عن وجود شجرة الزقوم في قعر جهنم فتنة وابتلاء واختبار للكفار الذين قالوا : كيف تكون الشجرة في النار وهي تحرق النار؟ لكن كان هذا القول جهلا منهم ، إذ إن هناك أشياء نشاهدها اليوم غير قابلة للاحتراق ، ولا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجرا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيّات والعقارب وخزنة النار.

٤ ـ وصف الله تعالى هذه الشجرة بصفتين : الأولى ـ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم أي منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. والصفة الثانية ـ ثمرها وحملها في قبحه وشناعته كأنه رؤوس الشياطين ، وهذا الشبه متصور في نفوس العرب ، وإن كان غير مرئي. ومن ذلك قولهم لكل قبيح : هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة كصورة الملك.

ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحبات يوسف : ﴿**ما هذا بَشَراً ، إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ [يوسف ١٢ / ٣١] وهذا تشبيه تخييلي.

وقال الزجاج والفرّاء : الشياطين حيات لها رؤوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيّات وأخبثها وأخفها جسما.

٥ ـ لا يكتفي أهل النار بتناول شيء قليل من الزقوم ، وإنما يأكلون منه بالإكراه حتى تمتلئ منه بطونهم ، فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة.

وبعد الأكل من الشجرة يشربون الماء المغلي الشديد الحرارة الذي يخالط طعام الزقوم ، قال الله تعالى : ﴿وَسُقُوا ماءً حَمِيماً ، فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ [سورة محمد ٤٧ / ١٥]. قيل : يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ، تغليظا لعذابهم ، وتجديدا لبلائهم.

٦ ـ يشرب أهل النار من ماء الحميم ويأكلون الزقوم من مكان خارج جهنم ، للآية : ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ فهذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غير النار ، ثم يردون إليها. والحميم كما قال مقاتل خارج الجحيم ، فهم يوردون الحميم لشربه ، ثم يردون إلى الجحيم ، لقوله تعالى : ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٤٣ ـ ٤٤].

٧ ـ إن سبب عذابهم الذي استحقوه هو تقليدهم آباءهم في الكفر بالله وتكذيب الرسل وعبادة الأصنام والأوثان ، فكأنهم يستحثون من خلفهم ، ويسرعون إلى تقليدهم ، ويزعجون من شدة الإسراع.

٨ ـ لقد كفر بالله وكذب الرسل وضل كثير من الأمم الماضية ، ولكن الله أرسل إليهم رسلا أنذروهم العذاب فكفروا ، فكان مصيرهم الدمار والهلاك وولوج النار.

٩ ـ ينجي الله دائما عباده المؤمنين الذين استخلصهم من الكفر ، وأخلصوا لله النية والعمل ، ففازوا بنعيم الجنان ، ونصرهم الله في الدنيا.

قصة نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)﴾

الإعراب :

﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، تقديره : فلنعم المجيبون نحن ، كقوله تعالى : ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [صلي الله عليه وآله وسلم ٣٨ / ٤٤] أي أيوب.

﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ سَلامٌ﴾ : مبتدأ ، و ﴿عَلى نُوحٍ﴾ : خبره ، وجاز الابتداء بالنكرة ، لأنه في معنى الدعاء ، كقوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين ٨٣ / ١] وقرئ سلاما بالنصب على أنه مفعول ﴿تَرَكْنا﴾ تقديره : تركنا عليه في الآخرين سلاما ، أي ثناء حسنا.

البلاغة :

﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ كناية ، كنى بذلك عن الذكر الجميل والثناء الحسن.

المفردات اللغوية :

﴿نادانا نُوحٌ﴾ دعانا حين أيس من قومه ، فالمراد من النداء الاستغاثة ، بقوله : ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر ٥٤ / ١٠]. ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ له نحن ، اي فأجبناه أحسن الإجابة ، والتقدير : فو الله لنعم المجيبون نحن ، فحذف ما حذف لقيام ما يدل عليه. ونوع الجواب : أنا أهلكناهم بالغرق.

﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي الغرق أو أذى قومه ، والكرب : الغم الشديد ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ أي أبقينا ذريته متناسلين إلى يوم القيامة ، فالناس كلهم من نسله عليه السلام ، وكان

له ثلاثة أولاد : سام وهو أبو العرب وفارس والروم ، وحام : وهو أبو السودان ، ويافث : أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج من الصين واليابان ونحوهم. روي أنه مات كل من معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم.

﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أبقينا عليه ثناء حسنا بين الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ، فمفعول ﴿وَتَرَكْنا﴾ محذوف ، كما في الثناء السابق بقوله : ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾. ﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ﴾ هذا الكلام جيء به على الحكاية ، والمعنى : يسلمون عليه تسليما ، أي يثنون عليه ثناء حسنا ويدعون له ويترحمون عليه. وقيل : هو سلام من الله عليه ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الذي جازيناه نجزي المحسنين ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان ، إظهارا لجلالة قدره وأصالة أمره ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي كفار قومه.

المناسبة :

هذه الآيات شروع في تفصيل القصص بعد إجمالها ، فبعد ذكر ضلال كثير من الأمم السابقة في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقوله : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أتبعه بتفصيل قصص الأنبياء عليهم السلام ، وهذه هي القصة الأولى ـ قصة نوح عليه السلام مع قومه ، في بيان بليغ موجز.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي تالله لقد دعانا نوح عليه السلام ، واستغاث بنا ، ودعا على قومه بالهلاك حيث قال : ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح ٧١ / ٢٦] بعد أن طال دعاؤهم إلى الإيمان ، فكذبوه وآذوه وهموا بقتله ولم يؤمن معه إلا القليل ، مع طول المدة التي لبثها فيهم وهي ألف سنة إلا خمسين عاما ، ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارا.

فأجاب الله دعاءه أحسن الإجابة ، وأهلك قومه بالطوفان.

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : «كان النبي صلي الله عليه وآله وسلم إذا

صلّى في بيتي ، فمرّ بهذه الآية : ﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ قال : صدقت ربنا ، أنت أقرب من دعي ، وأقرب من بغي ، فنعم المدعو ، ونعم المعطي ، ونعم المسؤول ، ونعم المولى ، أنت ربنا ، ونعم النصير».

وبعد بيان أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال ، بين أن الإنعام حصل في الإجابة من وجوه :

١ . ﴿وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي ونجينا نوحا وأهل دينه ، وهم من آمن معه وهم ثمانون ، من الغم الشديد وهو الغرق.

٢ . ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ أي وجعلنا ذريته وحدهم دون غيرهم هم الباقين على قيد الحياة ، وأهلكنا من كفر بدعائه ، ولم نبق منهم باقية ، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل ، ولم يبق إلا أولاده وذريته.

والآية تفيد الحصر ، وهو يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته قد فنوا. قال ابن عباس : ذريته بنوه الثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك.

٣ . ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي أبقينا له ثناء حسنا فيمن يأتي بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة.

﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ﴾ أي وقلنا : عليك يا نوح سلام منا في الملائكة وعالمي الإنس والجن. أو معناه أن الذي أبقي عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن : أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم. ويؤيد التفسير الأول آية : ﴿قِيلَ : يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود ١١ / ٤٨].

وعلة أنواع الإنعام السابقة ما قاله تعالى :

﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله عزّ وجلّ ، أو خصصنا نوحا عليه السلام بتلك النعم التي منها إبقاء ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسنا.

وعلة إحسانه ما قاله سبحانه :

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن السبب في كون نوح محسنا هو كونه عبدا لله مؤمنا. وهذا دليل على أن الإيمان بالله تعالى وإطاعته أعظم الدرجات وأشرف المقامات.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أغرقنا كفار قومه بالطوفان وأهلكناهم ، ولم نبق منهم أحدا ، وتلك عظة وعبرة : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق ٥٠ / ٣٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت قصة نوح عليه السلام على الآتي :

١ ـ أجاب الله تعالى دعاء نوح عليه السلام بإهلاك قومه ، فالداعي مضطر ، والمدعو وهو الله عزّ وجلّ نعم المقصود المجيب.

٢ ـ كانت النعمة العظمى هي إجابة الدعاء ، وكانت مظاهر الإنعام على نوح ثلاثة : هي نجاة نوح ومن آمن معه ، وجعل ذريته أصول البشر والأعراق والأجناس ، وإبقاء الذكر الجميل والثناء الحسن. وقال قوم : كان لغير ولد نوح أيضا نسل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء ١٧ / ٣].

ومما أبقي عليه : السلام الدائم في الأنبياء والأمم ، أو أن الله كافأه أيضا بالسلام منه عليه سلاما يذكر بين الأمم إلى يوم القيامة.

٣ ـ أهلك الله بالغرق قوم نوح عليه‌السلام ، ولم يبق أثرا لذريتهم.

٤ ـ وتلك النعم على نوح لأجل أنه كان محسنا ، وعلة إحسانه أنه كان عبد الله المؤمن المصدّق الموحد الموقن.

قصة إبراهيم عليه‌السلام

ـ ١٠ ـ

تحطيم الأصنام

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (٨٣) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (٩٦) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾

الإعراب :

﴿أَإِفْكاً آلِهَةً﴾ إفكا : منصوب ب ﴿تُرِيدُونَ﴾ تقديره : أتريدون إفكا ، و ﴿آلِهَةً﴾ بدل منصوب من «إفكا».

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ ما﴾ : مصدرية في موضع نصب بالعطف على الكاف والميم في الفعل المتقدم ، وهي مع الفعل مصدر ، تقديره : خلقكم وعملكم. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ استفهامية في موضع نصب ب ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على التحقير لعملهم والتصغير له ، والوجه الأول أظهر.

البلاغة :

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ ، إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ سَقِيمٌ الْجَحِيمِ حَلِيمٍ﴾ بينها ما يسمى بمراعاة الفواصل من المحسنات البديعية ، زيادة في الروعة والجمال.

﴿إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ في ﴿جاءَ﴾ استعارة تبعية ، شبه إقباله على ربه مخلصا بمن قدم على الملك بهدية ثمينة ، ففاز بالرضى والقبول.

﴿ابْنُوا لَهُ بُنْياناً﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿شِيعَتِهِ﴾ ممن سار على دينه ومنهاجه في الإيمان وأصول الشريعة ، قال البيضاوي : «ولا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالبا ، وكان بينهما ألفان وست مائة وأربعون سنة (٢٦٤٠) وكان بينهما نبيّان : هود وصالح صلوات الله عليهم». وأصل كلمة الشيعة : أتباع الرجل وأنصاره ، وكل قوم اجتمعوا على أمر ، فهم متشيعون له ، ثم صارت بعد موت سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ تطلق على جماعة خاصة في مواجهة أهل السنة.

﴿إِذْ جاءَ رَبَّهُ﴾ أي اذكر ، فهو متعلق بمحذوف ، وحقيقة المجيء بالشيء : نقله من مكانه ، والمراد هنا الإقبال على الله سليم القلب مخلصا ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشك وغيره ، الناصح لله في خلقه ، السالم من جميع العلل والآفات النفسية كالرياء وغيره من النيات السيئة ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ موبخا ، وهو في هذه الحالة السليمة و ﴿إِذْ﴾ بدل من إذ الأولى أو ظرف لجاء. ﴿ما ذا تَعْبُدُونَ﴾ ما الذي تعبدون؟.

﴿أَإِفْكاً﴾ الإفك : أسوأ الكذب ﴿آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله للإفك ، أي أتعبدون غير الله؟ ﴿فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ إذا لقيتموه ، وقد عبدتم غيره ، وما ترون يصنع بكم؟ والمعنى : إنكار ما يوجب ظنا ، فضلا عن قطع (أي يقين) يصدّ عن عبادته ، وهو كالحجة على ما قبله.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أوهمهم أنه يعتمد على النجوم ، حين سألوه أن يعبد معهم ﴿فَقالَ : إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مريض عليل ، أراد أن يتخلف عنهم في خروجهم من الغد يوم عيد لهم،

فاعتل بالسقم ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي تركوه وذهبوا إلى عيدهم ﴿فَرَاغَ إِلى آلِهَتِهِمْ﴾ ذهب أو مال خفية إلى أصنامهم وعندها الطعام ، ومنه يقال : روغان الثعلب أي الميل ﴿فَقَالَ : أَلا تَأْكُلُونَ﴾ قال استهزاء وسخرية : ألا تأكلون من الطعام الذي صنعوه لكم؟ فلم ينطقوا.

﴿ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ﴾ لا تجيبوني ، وقد علم أنها جمادات لا تنطق ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ مال عليهم يضربهم بقوة وشدة ، فكسرهم ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون المشي ، لما علموا بما صنعه بها ، فقالوا : نحن نعبدها وأنت تكسرها؟ ﴿قالَ : أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ﴾ أي قال لهم موبخا : أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها؟ ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾ أي خلقكم وخلق الذي تصنعونه ، فاعبدوه وحده.

﴿قالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْياناً ، فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي تشاوروا فيما بينهم أن يبنوا له بنيانا من حجارة ، ويملأوه حطبا ، ويضرموه ، ثم يلقوه فيه. والجحيم : النار الشديدة ﴿فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً﴾ بإلقائه في النار لتهلكه ﴿فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين ، فصارت النار بعد إلقائه عليها بردا وسلاما ، ولم تؤثر فيه.

﴿وَقالَ : إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ مهاجر من بلد قومي دار الكفر إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه وهو الشام ، أو إلى حيث أتمكن من عبادته ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ولدا صالحا يعينني على طاعتك ، ويؤنسني في الغربة ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ أي بصبي ذكر يكبر ويصير حليما ، أي ذا حلم كثير.

المناسبة :

هذه قصة ثانية تبين مدى الصلة الوثيقة والارتباط العميق بين الأنبياء في رسالاتهم ، افتتحت بأن إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح ، أي من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه ، فهما مصدر الخير والسعادة للناس ، فكانت قصة إبراهيم أبي الأنبياء بعد قصة نوح أبي البشر الثاني عليهما السلام ، والأول نجاه الله من الغرق ، والثاني نجاه الله من النار.

التفسير والبيان :

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ﴾ أي وإن إبراهيم عليه السلام ممن سار على دين نوح عليه السلام ومنهجه وسلك طريقه في الدعوة إلى توحيد الله والإيمان به

وبالبعث ، وغير ذلك من أصول الشريعة ، وإن اختلفا في الفروع ، وقد يكونان متفقين فيها.

﴿إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي اذكر حين أقبل على ربه بقلب مخلص صادق الإيمان ، خال من شوائب الشرك والشك والرياء ، ناصح لله في خلقه ، كأنه جاءه بتحفة من عنده لربه ، فاستحق الفوز والرضوان.

ومن خصاله وأعماله المجيدة :

﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : ما ذا تَعْبُدُونَ﴾؟ أي من مظاهر إخلاصه لربه حين قال لجماعته : ما الذي تعبدونه من هذه الأصنام من دون الله؟ وهذا إنكار على عبادتهم وتوبيخ على منهجهم وخطتهم ، ولوم صريح على عبادة الأصنام والأنداد ، لذا قال :

﴿أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ، فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله تعبدونها إفكا وكذبا ، دون حجة ولا دليل ، وما ظنكم إذا لقيتم ربكم أنه فاعل بكم ، وقد عبدتم معه غيره ، وما ترونه يصنع بكم؟ فهو استفهام توبيخ وتحذير وتوعد ، أي أيّ شيء ظنكم بمن هو يستحق لأن تعبدوه إذ هو رب العالمين ، حتى تركتم عبادته وعدلتم به الأصنام؟!!

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي نظر إبراهيم في علوم النجوم وفي معانيها لا أنه نظر إليها تعظيما وتقديسا كما كان يفعل قومه ، مريدا بذلك أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون.

أو أن المراد تأمل في الكون والسماء وأطال الفكر ، قال قتادة : إن العرب تقول للشخص إذا تفكر وأطال الفكرة : نظر في النجوم ، أي أطال الفكرة فيما هو فيه.

﴿فَقالَ : إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي مريض عليل ، قاصدا بذلك أنه مريض القلب من إقبال قومه على الكفر والشرك وعبادة الأوثان.

والخلاصة : إن نظر إبراهيم في النجوم ، وقوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ من قبيل التورية ، فإنه أراد شيئا ، وفهموا منه شيئا آخر ، تمهيدا لخطته التي بيّتها في أن يكايد أصنامهم ، حينما سيخرجون من الغد في يوم عيد لهم ، وذلك بالتخلف عن الخروج معهم ، دون أن يطلعوا على ما بيّت عليه النية.

وبه يتبين أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم على النظر إلى النجوم كما يفعل عبدتها ، فذلك غير جائز ، ولم يكن كاذبا في قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي تركوه وذهبوا إلى عيدهم ومعبدهم.

﴿فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ ، فَقالَ : أَلا تَأْكُلُونَ﴾؟ أي فمال خفية وذهب في سرعة إلى تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها ، وقد وضعوا لها الطعام في عيدهم لتباركه ، وقال لها تهكما واستهزاء : ألا تأكلون من هذا الطعام المقدم إليكم؟

﴿ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ﴾؟ أي ما الذي يمنعكم من النطق والجواب عن سؤالي؟ ومراده التهكم والاحتقار ، لأنه يعلم أنها جمادات لا تنطق.

﴿فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ فمال عليهم يضربهم بقوة وشدة حتى حطمهم إلا كبيرا لهم ، كما في سورة الأنبياء.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي فأقبل إليه قومه بعد عودتهم من عيدهم مسرعين ، يسألون عمن كسرها ، وقد قيل : إنه إبراهيم ، وعرفوا أنه هو ، فقالوا له : نحن نعبدها وأنت تكسرها؟!!

ولما جاؤوا يعاتبونه ، أخذ يؤنبهم ويعيبهم ، فقال : ﴿قالَ : أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ﴾؟ أي أتعبدون من دون الله أصناما أنتم تصنعونها وتنحتونها بأيديكم؟

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾ أي والله هو الجدير بالعبادة ، لأنه الخالق ، خلقكم وخلق تلك الأصنام التي تعملونها بأيديكم. وفيه دلالة على أن الله خلق الإنسان وخلق أعماله. روى البخاري عن حذيفة ﷺ مرفوعا قال : «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته».

فلما قامت عليهم الحجة لجؤوا إلى الانتقام بالقوة والإيذاء ، فقالوا :

﴿قالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي ابنوا له بنيانا واسعا واملؤوه حطبا كثيرا ، وأضرموا فيه النار ، ثم ألقوه في تلك النار المسعرة.

﴿فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً ، فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي أرادوا به سوءا بحيلة ومكر ، وإحراقه في النار ، فأنجيناه منها ، وجعلناها بردا وسلاما عليه ، ولم تؤثر فيه أدنى تأثير ، وجعلنا له النصر والغلبة ، وجعلناهم المهزومين المغلوبين الأذلّين حيث أبطلنا كيدهم.

ولما نجا إبراهيم عليه السلام ونصره الله على قومه ، وأيس من إيمانهم قرر الهجرة ومفارقتهم ، كما قال تعالى :

﴿وَقالَ : إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي إني مهاجر من بلد قومي الذين آذوني ، تعصبا للأصنام ، وكفرا بالله ، وتكذيبا لرسله ، إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه ، حيث أتمكن من عبادته ، وإنه سيهديني إلى ما فيه صلاح ديني ودنياي ، وهو الأرض المقدسة بالشام.

وهذا دليل على وجوب الهجرة من المكان إلى مكان آخر ، إذا لم يتمكن المؤمن من إقامة شعائر دينه.

وفي أثناء الهجرة دعا ربه بأن يرزقه الولد ، فقال :

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي رب هب لي ولدا صالحا يعينني على طاعتك ، ويؤنسني في الغربة.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي فبشرناه بصبي ذكر يكبر ويصير ذا حلم كثير. وهذا الغلام كما قال ابن كثير : هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشّر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ، ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة (٨٦) وولد إسحاق ، وعمر إبراهيم عليه السلام تسع وتسعون سنة (٩٩).

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الأنبياء والرسل وإن طال الزمان بينهم مهمتهم واحدة وهي الدعوة إلى توحيد الله والإيمان بالرسل وبالبعث ، وإلى أصول الأخلاق والفضائل.

٢ ـ كان إبراهيم الخليل عليه السلام ذا قلب مخلص من الشرك والشك ، ناصح لله عزوجل في خلقه ، عالم بأن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من في القبور.

٣ ـ من جملة آثار سلامة قلب إبراهيم عليه السلام أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد ، فقال : ﴿ما ذا تَعْبُدُونَ﴾؟ قاصدا بذلك الكلام تقبيح طريقتهم ولومهم على فعلهم.

٤ ـ ندد بعبادتهم الأصنام ، مبينا أنها إفك وأسوأ الكذب ، وحذر من سخط الله حين لقائه ، وقد عبدوا غيره.

٥ ـ لجأ إلى الإيهام وأخذ بالتورية في أمرين أظهر فيهما شيئا ، وأراد شيئا

آخر ، وهما النظر في النجوم ، وقوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، قاصدا بالأول أنه يعلم بعلوم النجوم ، وأنه تفكر فيما يعمل لما كلّفوه الخروج معهم ، وبالثاني أنه سيمرض مرض الموت ، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ، ثم يموت ، فتوهموا هم أنه سقيم الآن ، وهذا تورية وتعريض ، كما قال للملك لما سأله عن سارّة : هي أختي ، يعني أخوة الدين.

وفي الصحيح الذي أخرجه أحمد والشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات» والكذب تعريضا والتورية أمر جائز مباح. وقيل : أراد أنه سقيم النفس لكفرهم ووثنيتهم.

٦ ـ دبر إبراهيم عليه السلام خطة ناجحة لتحطيم الأصنام ، فقد مكث في البلدة حينما خرج القوم لعيدهم ومعبدهم ، بعد أن قدموا طعاما لأصنامهم لتباركه بزعمهم ، أو للسدنة ، فجاء إليهم ، وخاطبهم كما يخاطب العقلاء قائلا على جهة التهكم والاستهزاء : ﴿أَلا تَأْكُلُونَ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ﴾؟ فلم يجيبوا ، وهو يعلم ذلك ، فانهال عليهم ضربا بقوة وشدة ، حتى دمرهم إلا كبيرا لهم ، كما في سورة الأنبياء ، لإلزام القوم بالحجة ، وتعريفهم خطأهم وأن هذه الأصنام لا تقدر حماية أنفسها.

٧ ـ أقبل إليه القوم مسرعين ، بعد أن عرفوا أن الفاعل هو إبراهيم ، فقالوا : من فعل هذا بآلهتنا؟ فقال محتجا : ﴿أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ﴾؟ أي أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم ، والنحت : النجر والبري.

ثم قال : ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾ أي خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام بالخشب والحجارة وغيرهما ، وبإيجاز : خلقكم وعملكم.

وقد استدل أهل السنة بهذه الآية على أن الأفعال خلق لله عزّ وجلّ ، واكتساب للعباد ، وفي هذا إبطال مذاهب القدرية والجبرية. أخرج البخاري

عن أبي هريرة مرفوعا كما تقدم عن النبي ﷺ قال : «إن الله خالق كل صانع وصنعته» وأخرجه البيهقي من حديث حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عزّ وجلّ صنع كل صانع وصنعته ، فهو الخالق ، وهو الصانع سبحانه».

٨ ـ تشاور القوم في أمر إبراهيم عليه السلام لما غلبهم بالحجة فقالوا : ابنوا له بنيانا ، تملؤونه حطبا ، فتضرمونه ، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم. قال عبد الله بن عمرو بن العاص : فلما صار في البنيان قال : حسبي الله ونعم الوكيل.

وأرادوا بإبراهيم الكيد ، أي المكر والاحتيال لإهلاكه ، فجعلهم الله المقهورين المغلوبين الأذلين ، إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها ، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم.

٩ ـ الهجرة والعزلة واجبة إذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه ، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين خلصه الله من النار ﴿قالَ : إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾ أي مهاجر من بلد قومي ومولدي ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ، فإنه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ فيما نويت إلى الصواب. قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارّة ، إلى الأرض المقدسة وهي أرض الشام.

١٠ ـ مشروعية الدعاء بالولد ، فلما عرف إبراهيم عليه السلام أن الله مخلصه ، دعا الله ليعضده بولد يأنس به في غربته ، فقال : رب هب لي ولدا صالحا من الصالحين ، فبشره الله تعالى على لسان الملائكة ـ كما تقدم في هود ـ بغلام يكون حليما في كبره ، فكأنه بشّر ببقاء ذلك الولد ، لأن الصغير لا يوصف بذلك.

٢٠

قصة الذبيح

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (١٠٩) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾

الإعراب :

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ مَعَهُ﴾ متعلق بمحذوف لا ببلغ ، فإن بلوغهما لم يكن معا ، كأنه قال: فلما بلغ السعي ، فقيل : مع من؟ فقيل : معه.

﴿فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ من الرأي ، وليس من رؤية العين ، و ﴿ما ذا﴾ في موضع نصب ب ﴿تَرى﴾. ويجوز جعل ﴿فَلَمَّا﴾ استفهامية في موضع رفع مبتدأ ، و ﴿ذا﴾ بمعنى الذي في موضع خبر المبتدأ.

﴿فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ في جواب «لما» ثلاثة أوجه : إما محذوف تقديره : فلما أسلما رحما أو سعدا ، وإما ﴿نادَيْناهُ﴾ والواو زائدة ، وإما ﴿تَلَّهُ﴾ والواو زائدة ، والوجه الأول أوجه.

البلاغة :

﴿مُحْسِنٌ وَظالِمٌ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي وصل إلى السن التي تمكنه من أن يسعى معه في أعماله ويعينه ، قيل : بلغ سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ﴿إِنِّي أَرى﴾ أي رأيت ، ورؤيا الأنبياء حق ، وأفعالهم بأمر الله تعالى. قيل : إنه رأى ليلة التروية أن قائلا يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك ، فلما أصبح روّى أنه من الله أو من الشيطان ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فهمّ بنحره ، ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر.

من الذبيح؟

قال البيضاوي : والأظهر أن المخاطب به إسماعيل ، لأنه الذي وهب له إثر الهجرة ، ولأن البشارة بإسحاق معطوفة على البشارة بهذا الغلام ، ولقوله صلي الله عليه وآله وسلم فيما رواه الحاكم في المناقب : «أنا ابن الذبيحين» فأحدهما جدّه إسماعيل ، والآخر أبوه عبد الله ، فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا ، إن سهل الله له حفر بئر زمزم ، أو بلغ بنوه عشرة ، فلما سهل الله له ذلك ، أقرع ، فخرج السهم على عبد الله ، ففداه بمئة من الإبل ، ولذلك ثبتت الدية مائة ، ولأن ذلك كان بمكة ، وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة ، حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير ، ولم يكن إسحاق ثمة ، ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه ، فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقا.

وما روي أنه صلي الله عليه وآله وسلم سئل : أي النسب أشرف؟ فقال : «يوسف صدّيق الله ، ابن يعقوب إسرائيل الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله» فالصحيح أنه قال : «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» والزوائد من الراوي. وما روي أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك ، لم يثبت [١].

وقال ابن كثير : وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكي ذلك عن طائف من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة ﷺ أيضا ، وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وأخذ ذلك مسلّما من غير حجة ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه ـ الذبيح ـ إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢].

﴿فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ من الرأي ، شاوره ليتهيأ للذبح ، وينقاد للأمر به ، وليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله ، فيثبت ، ويسلّم الأمر لله ﴿يا أَبَتِ﴾ التاء عوض عن ياء الإضافة ﴿افْعَلْ

---

(١) تفسير البيضاوي : ٥٩٥

(٢) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٤

﴿مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به ، وإنما ذكر بلفظ المضارع لتكرر الرؤيا ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على الذبح أو على قضاء الله.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ استسلما لأمر الله ، وخضعا وانقادا له ﴿وَتَلَّهُ﴾ كبّه على وجهه ، لئلا يرى فيه تغيرا يرق له ، فلا يذبحه ، أو أضجعه على شقه ، فوقع جبينه على الأرض. وكان ذلك عند الصخرة بمنى. والجبين : أحد جانبي الجبهة ، والجبهة : بين جبينين ، واللام في قوله ﴿لِلْجَبِينِ﴾ لبيان ما صرع عليه ، كقوله تعالى : ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠٩]. ﴿صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ حققت ما طلب منك بالعزم والإتيان بالمقدمات ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزيناك نجزي المحسنين لأنفسهم بامتثال الأمر ، وهذا تعليل لتفريج تلك الشدة عنهما ، وهو إحسانهما ﴿إِنَّ هذا﴾ الذبح المأمور به ﴿لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ الاختبار الظاهر الذي يتميز فيه المخلص من غيره. ﴿وَفَدَيْناهُ﴾ أي المأمور بذبحه ، وهو إسماعيل عليه السلام على الأرجح ، وقيل : إسحاق ﴿بِذِبْحٍ﴾ بكبش يذبح بدله ﴿عَظِيمٍ﴾ عظيم الجثة ، سمين. واستدل به الحنفية على أن من نذر ذبح ولده ، لزمه ذبح شاة.

﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أبقينا عليه ثناء حسنا في الأجيال اللاحقة ﴿سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ﴾ أي سلام منا عليه ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين لأنفسهم بطاعة الله تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ علة الإحسان.

﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ﴾ بشارة بولد آخر بأن يوجد إسحاق ، وهو دليل على أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق ﴿نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ مقضيا نبوته ، مقدرا كونه من الصالحين ﴿وَبارَكْنا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلى إِسْحاقَ﴾ ولد إبراهيم ، بأن جعلنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم ، أي أكثر الأنبياء من نسله ، مثل أيوب وشعيب عليهما السلام . ﴿مُحْسِنٌ﴾ مؤمن ﴿وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ كافر عاص ﴿مُبِينٌ﴾ بيّن الكفر ، ظاهر الظلم. قال البيضاوي : وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال ، وإن الظلم في أعقاب إبراهيم وإسحاق لا يعود عليهما بنقيصة وعيب.

المناسبة :

هذه تتمة القصة الثانية ـ قصة إبراهيم عليه السلام ، فبعد أن قال سبحانه وتعالى : ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه سن الطاقة على العمل. ثم أتبعه بقصة الذبيح إسماعيل والفداء ، ثم بشره تعالى

بإسحاق نبيا من الصالحين ، مباركا عليه وعلى إسحاق ، وجعل أكثر الأنبياء من نسلهما ، وأن من ذريتهما محسن فاعل للخير ، وظالم لنفسه بالمعاصي.

التفسير والبيان :

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ : يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ أي فلما كبر إسماعيل وشبّ وبلغ الحد الذي يقدر فيه على السعي والعمل ، قال الفرّاء : «كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة» قال إبراهيم لابنه المأمور بذبحه وهو ابنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، وقال بعد ذلك : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال له : يا بني إني رأيت في المنام أني أذبحك ، فما رأيك؟ وقد أخبره بذلك ليستعد لتنفيذ أمر الله ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله ، وليعلم صبره لأمر الله ، وإلا فرؤيا الأنبياء وحي لازم الامتثال.

وأما ما ذكر في التوراة : «اذبح بكرك وحيدك إسحاق» فكلمة إسحاق من زياداتهم وتحريفهم لكتاب الله ، وإلا فإن «إسحاق» لم يكن بكر إبراهيم ، ولم يكن وحيده ، بل الذي كان كذلك هو إسماعيل. ثم لما بذل إبراهيم ابنه للذبح وأطاع ، أعطاه الله ولدا آخر هو إسحاق.

فأجابه إسماعيل معلنا الطاعة قائلا :

﴿قالَ : يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي قال إسماعيل : امض لما أمرك الله من ذبحي ، وافعل ما أوحي إليك ، سأصبر على القضاء الإلهي ، وأحتسب ذلك عند الله عَزَّوَجَلَّ . وهذا مصداق وصفه السابق بالحلم ، ومصداق ما أخبر الله عنه بقوله : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ ، وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا. وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ، وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٥٤ ـ ٥٥].

وبدأ تنفيذ أمر الله ، فقال تعالى :

﴿فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي فلما استسلما وانقادا لأمر الله وأطاعاه ، وفوّضا أمرهما إلى الله ، وأكب إبراهيم ابنه على وجهه حتى لا تأخذه العاطفة فيتردد في الذبح ، أو ألقاه على جنبه ، فوقع جبينه (جانب الجبهة) على الأرض والموضع الذي أراد ذبحه فيه : هو المنحر بمنى عند الجمار.

قال مجاهد : قال إسماعيل لأبيه : لا تذبحني وأنت تنظر إلى وجهي ، عسى أن ترحمني ، فلا تجهز عليّ ، اربط يدي إلى رقبتي ، ثم ضع وجهي للأرض ، ففعل.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما أمر إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام بالمناسك ، عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه السلام ، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات ، حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات ، وثم تلّه للجبين ، وعلى إسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت ، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنني فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودي من خلفه : ﴿أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ فالتفت إبراهيم ، فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا أن نتتبع ذلك الضرب من الكباش.

﴿وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ لما أضجعه للذبح ناداه من خلفه من الجبل ملك : قد حصل المقصود من رؤياك ، وتحقق المطلوب وصرت مصدّقا بمجرد العزم ، وإن لم تذبح ، وأتيت بما أمكنك.

ثم عدد الله تعالى نعمه على إبراهيم وهي :

١ . ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثلما جازيناك بالعفو عن الذبح ، والتخلص من الشدة والمحنة ، نجزي كل محسن على طاعته ، ونثيبه على فعله. وهو تعليل لما أنعم الله على إبراهيم وابنه من الفرج بعد الشدة والسلامة من المحنة.

ثم عظم الله تعالى شأن هذه المحنة في العادة ، فقال :

﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ أي إن هذا الاختبار لهو الاختبار الصعب الواضح والمحنة التي لا محنة أصعب منها ، حيث اختبره الله في مدى طاعته بذبح ولده ، فصبر محتسبا الأجر عند ربه. وقيل : إن هذا لهو النعمة الظاهرة ، يقال : أبلاه الله إبلاء وبلاء : إذا أنعم عليه.

٢ . ﴿وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي جعلنا له فداء ولده بتقديم كبش عظيم الجثة سمين ، أو عظيم القدر. قال الحسن البصري : ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأروى (وعل) هبط عليه من ثبير ، فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه. وهذا قول علي رضي الله عنه .

وفي هذا دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر. وهو مذهب المالكية ، لطيب اللحم.

٣ . ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ﴾ أي أبقينا له في الأمم القادمة ثناء حسنا وذكرا جميلا ، فأحبّه أتباع الملل كلها ، اليهودية والنصرانية والإسلام ، وكذا أهل الشرك ، كما قال تعالى : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

سلام منا على إبراهيم ومن الملائكة والإنس والجن. وقيل : السلام : هو الثناء الجميل.

﴿كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء نجزي جميع المحسنين بالفرج

بعد الشدة. ولم يذكر هنا «إنا» كأمثاله اكتفاء بذكره السابق عن ذكره هنا مرة ثانية.

٤ ـ ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ووهبناه ولدا آخر وهو إسحاق ، وجعلناه نبيا صالحا من زمرة الصالحين. وهذه هي النعمة الرابعة.

٥ ـ ﴿وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ﴾ أي تابعنا إمدادهما بالنعم والبركات الدنيوية والأخروية ، ومنها كثرة الولد والذرية ، وجعل أكثر الأنبياء من نسلهما ونسل إسماعيل.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ أي إن بعض ذريتهما محسن فاعل للخيرات ، وبعضها ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي.

وهذا دليل على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال ، وأن النفع ليس بالوراثة والنسب أو الانتماء ، وإنما الانتفاع بالأعمال ، وأنه لا يعيب الأصول ولا ينتقصهم سوء بعض ذريتهم ، لقوله تعالى : ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ [الأنعام ٦ / ١٦٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١ ـ أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام في المنام ثلاث ليال متتابعات ، لا في اليقظة بذبح ابنه ، لأنه تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقا ، لتقوية الدلالة على كونهم صادقين. قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾. وقال سبحانه في حق يوسف عليه السلام : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ [يوسف ١٢ / ٤]. وقال تعالى في حق محمد صلي الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ ..﴾ [الفتح ٤٨ / ٢٧].

٢ ـ احتج أهل السنة بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، فإنه سبحانه أمر بالذبح ، وما أراد وقوعه.

٣ ـ احتجوا أيضا بالآية على جواز نسخ الحكم قبل وجود زمن الامتثال.

٤ ـ إن الذبيح بحسب دلالة هذه الآيات وترتيبها هو إسماعيل عليه السلام ، لأنه هو المبشر به أولا ، وأما إسحاق فبشّر به بعد إسماعيل ، مما يدل على أن إسماعيل هو الابن الأكبر ، وهو الذي كان ذبيحا بالاتفاق عند الأكثرين. ولو كان الذبيح إسحاق ، لكان الذبح يقع ببيت المقدس ، لا بالمنحر من منى ، وهذا موضع الذبح اتفاقا.

ويؤيده أدلة أخرى منها :

قول النبي صلي الله عليه وآله وسلم فيما رواه الحاكم في المناقب : «أنا ابن الذبيحين» أي إسماعيل ، وأبيه عبد الله الذي نذر أبوه عبد المطلب أن يذبح ولدا إذا رزق عشرة من الولد ، أو إذا سهل الله عليه حفر بئر زمزم ، فتم له الأمران ، فأقرع ، فخرج السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله وقالوا له : افد ابنك بمئة من الإبل ، ففداه بمئة من الإبل.

ومنها : ما نقل عن الأصمعي أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعي ، أين عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه ، والمنحر بمكة.

ومنها : أن الله تعالى وصف إسماعيل بالصبر ، دون إسحاق ، في قوله تعالى : ﴿وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٨٥] وهو صبره على الذبح ، ووصفه أيضا بصدق الوعد في قوله : ﴿إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم ١٩ / ٥٤] لأنه وعد أباه الصبر على الذبح ، فوفى به.

ومنها : الآثار الصحيحة المقطوع بها بان الذبيح إسماعيل عليه السلام ، وهو

منقول عن ابن عباس ، وابن عمر ، وعلي ، وأبي هريرة ، وأبي الطّفيل عامر بن واثلة من الصحابة ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، ومجاهد ، والشعبي ، ويوسف بن مهران ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن كعب القرظي ، والكلبي ، وعلقمة ، وأبي جعفر محمد بن علي ، وأبي صالح من التابعين رضي الله عنهم ، قالوا : الذبيح إسماعيل [1]. قال القرطبي : وهذا القول أقوى في النقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن الصحابة والتابعين.

ولكن اليهود حسدوا العرب على هذا الفضل بأن يكون أبوهم إسماعيل هو الذبيح ، فزادوا في التوراة وحرفوها ، ودسّوا في روايات الآثار وبعض الأحاديث أن الذبيح إسحاق ، وسرى ذلك بين بعض الصحابة وبعض المسلمين محتجين بدليلين :

الأول ـ إنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال : ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ والمراد منه بالإجماع مهاجرته إلى الشام ، ثم قال : ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحاق. ثم قال بعده : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ والغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام ، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحاق. وكذلك آخر الآية يدل أيضا على ذلك ، لأنه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإنما بشره بهذه النبوة لتحمّله هذه الشدائد في قصة الذبيح ، فأول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام .

الثاني ـ ما اشتهر من كتاب يعقوب عليه السلام ونصه : «من يعقوب إسرائيل نبي الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله».

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٧ ـ ١٩ ، تفسير الرازي : ٢٦ / ١٥٣ وبعدها ، تفسير القرطبي : ١٥ / ١٠٠ ، تفسير الخازن ٦ / ٢٢.

وهذا هو المروي الصحيح عن عبد الله بن مسعود : أن رجلا قال له : يا ابن الأشياخ الكرام ، فقال عبد الله : ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله عليه السلام .

وروي ذلك أيضا عن عمر ، وجابر ، والعباس ، وكعب الأحبار من الصحابة ، وعن بعض التابعين مثل قتادة ، ومسروق ، وعكرمة ، وعطاء ، ومقاتل ، والزهري ، والسدّي ، وعن مالك بن أنس ، كلهم قالوا : الذبيح إسحاق. لكن يلاحظ أن لكعب الأحبار في هذه الأخبار ضلعا واضحا ، وهي أخبار من الكتب القديمة غير موثوقة ، وتلقاها بعض المسلمين عنه ، وسرت فيما بينهم. وقد نقلنا عن ابن كثير والبيضاوي تفنيد هذه الروايات.

وكان الزجاج يقول : الله أعلم أيهما الذبيح؟ وهذا مذهب ثالث.

٥ ـ الحكمة في مشاورة إبراهيم ابنه بقوله : ﴿فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ : أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ، ليظهر له صبره في طاعة الله ، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم ، والصبر درجة عالية ، وليحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة ، والثناء الحسن في الدنيا ، فقال إسماعيل : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

وإنما علّق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن ، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله. قال بعض أهل الإشارة : لما استثنى ، وفقه الله للصبر.

٦ ـ قوله ﴿فَلَمَّا أَسْلَما﴾ أي انقادا لأمر الله : دليل على أن الأب والابن كانا في درجة واحدة من التسليم والتفويض لأمر الله تعالى.

٧ ـ عدد الله تعالى بمناسبة هذه القصة على إبراهيم عليه السلام ـ كما تقدم ـ نعما خمسا : هي جزاؤه الحسن ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نجزيهم بالخلاص

من الشدائد في الدنيا والآخرة ، والفداء العظيم بالكبش ، والثناء الحسن بين الأمم والسلام من الله ، وبشارته بولد آخر ، وجعل أكثر الأنبياء من بني إسرائيل وغيرهم من ذريته وذرية إسحاق وإسماعيل.

٨ ـ الفداء بالكبش دليل ـ كما تقدم ـ على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر.

واختلف العلماء : هل الأضحية أفضل أو الصدقة بثمنها؟ قال مالك وأصحابه : الضحية أفضل إلا بمنى ، لأنه ليس موضع الأضحية. وقال أصحاب الرأي : إن الضحية أفضل ، كذلك قال أحمد بن حنبل : الضحية أفضل من الصدقة ، لأن الضحية سنة مؤكدة كصلاة العيد. ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من سائر النوافل ، وكذلك صلوات السنن أفضل من التطوع كله.

وقد روي في فضل الضحايا آثار حسان ، منها ما خرّجه الترمذي عن عائشة أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قال : «ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحبّ إلى الله من إهراق الدم ، إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض ، فطيبوا بها نفسا».

والأضحية عند الجمهور ليست بواجبة ، ولكنها سنة ومعروف.

وقال أبو حنيفة : الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار ، ولا تجب على المسافر. وخالفه أبو يوسف ومحمد ، فقالا : ليست بواجبة ولكنها سنة ، غير مرخص لمن وجد السبيل إليها في تركها.

والذي يضحى به بإجماع المسلمين : الأزواج الثمانية : وهي الضأن والمعز والإبل والبقر. والأخيران يجزئ الواحد منهما عن سبعة.

ويتّقى من الضحايا ـ كما روى الخمسة (أحمد وأصحاب السنن الأربعة) عن

البراء بن عازب . أربع : «العرجاء البين ضلعها (عرجها) ، والعوراء البيّن عورها ، والمريضة البيّن مرضها ، والعجفاء التي لا تنقي» [١]. وفي الخبر الذي رواه أحمد والأربعة عن علي : «أمرنا رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم أن نستشرف العين والأذن ..».

٩ . دلت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه : أنه يفديه بكبش ، كما فدى به إبراهيم ابنه ، قال ذلك ابن عباس. وعنه رواية أخرى : ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبد المطلب ابنه. روى الشعبي عنه الروايتين. والأولى أصح.

وقال الشافعي : هو معصية يستغفر الله منها.

وقال أبو حنيفة : هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة ، ولا يلزمه في غير ولده شيء. وهذا قول ابن العربي أيضا ، لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعا ، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد ، وأخرجه عنه بذبح شاة ، والله تعالى يقول : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ [الحج ٢٢ / ٧٨] والإيمان : التزام أصلي ، والنذر التزام فرعي ، فيجب أن يكون محمولا عليه.

١٠ . بشر الله بنبوة إسحاق من الأنبياء الصالحين ، وكان هذا بعد إيراد قصة الذبيح ، مما يدل على أنه إسماعيل. قال المفضل : الصحيح الذي يدل عليه القرآن أنه إسماعيل ، وذلك أنه قص قصة الذبيح ، فلما قال في آخر القصة : ﴿وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم قال : ﴿سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ. كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ قال : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَبارَكْنا عَلَيْهِ﴾ أي على إسماعيل وعلى إسحاق ، كنى به ، لأنه قد تقدم ذكره ، ثم قال : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما﴾ فدل على أنها ذرية إسماعيل وإسحاق ، وليس تختلف الرواة في أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة. والأدق أن يقال : باركنا على إبراهيم في أولاده.

---

(١) النّقي : مخّ العظام وشحمها ، يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها.

١١ ـ لما ذكر تعالى البركة في الذرية والكثرة ، قال : منهم محسن ومنهم مسيء ، وأن المسيء لا تنفعه بنوة النبوة ، فاليهود والنصارى ، وإن كانوا من ولد إسحاق ، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل ، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء ، والمؤمن والكافر. وفي التنزيل رد عليهم : ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى : نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ الآية [المائدة ٥ / ١٨] أي أبناء رسل الله ، فرأوا لأنفسهم فضلا.

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)﴾

المفردات اللغوية :

﴿مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ نجيناهما من تغلب فرعون واستعباده بني إسرائيل قومهما ، ومن الغرق ﴿وَنَصَرْناهُمْ﴾ الضمير يعود عليهما مع القوم ، والنصر على القبط ﴿فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ﴾ على فرعون وقومه.

﴿وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ البليغ في بيانه وفيما أتى به من الحدود والأحكام وغيره ، وهو التوراة ﴿الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريق الموصل إلى الحق والصواب ﴿وَتَرَكْنا﴾ أبقينا عليهما ثناء حسنا ﴿سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ﴾ سلام منا عليهما ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين المطيعين لله. ﴿إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ شهادة لهما بالإيمان ، وهي علة الإحسان إليهما.

المناسبة :

هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، فبعد أن ذكر الله تعالى إنجاء إسماعيل من الذبح ، ونجاة إبراهيم من النار ، ذكر هنا ما منّ به على موسى وهارون من وجوه الإنعام المحصورة في نوعين : إيصال المنافع إليهما في قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ**﴾ ودفع المضار عنهما في قوله تعالى : ﴿**وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾.

التفسير والبيان :

﴿**وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ**﴾ أي تالله لقد أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية. أما منافع الدنيا كما ذكر الرازي : فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما. وأما منافع الدنيا : فالعلم والطاعة ، وأعلى هذه الدرجات : النبوة الرفيعة ، المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة. وتفصيل هذه النعم في قوله تعالى :

١ . ﴿**وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾ أي ونجيناهما وقومهما بني إسرائيل من استعباد فرعون إياهم ، بقتل الآباء واستحياء النساء وتشغيلهم في أخسّ الأشياء والصناعات والمهن ، كما نجيناهما مع القوم من الغرق الذي أهلك فرعون وقومه قبط مصر.

٢ . ﴿**وَنَصَرْناهُمْ ، فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ**﴾ أي نصرناهم على أعدائهم ، فغلبوهم ، وأخذوا أرضهم وأموالهم التي جمعوها طوال حياتهم ، فكانوا أصحاب الدولة بعد أن كانوا رعية أذلاء.

٣ . ﴿**وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ**﴾ أي وأنزلنا عليهما الكتاب العظيم الواضح الجلي الشامل لأمور الدنيا والآخرة ، وهو التوراة ، كما قال تعالى : ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ..**﴾ [المائدة ٥ / ٤٤] وقال

سبحانه : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٤٨].

٤ . ﴿وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أرشدناهما إلى طريق الحق والصواب في الأقوال والأفعال ، والإسلام وشرع الله.

٥ . ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ﴾ أبقينا لهما من بعدهما ذكرا حسنا جميلا وثناء حسنا في الأمم المتأخرة. قال ابن كثير والشوكاني وغيرهما : ثم فسره بقوله : ﴿سَلامٌ ...﴾ إلخ. وقال آخرون : الآتي كلام مستقل ، وهو ما أرجحه ، لكثرة الفوائد.

٦ . ﴿سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ﴾ أي سلام منا على موسى وهارون ، ومن الملائكة والإنس والجن أبد الدهر.

والسبب ما قاله تعالى :

﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء نجزي بالخلاص من الشدائد والمحن كل من أحسن عمله فأطاع الله وانقاد له ، وعلة الإحسان : أنهما من زمرة عبادة الله المؤمنين إيمانا صحيحا كاملا.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ . أنعم الله على موسى وهارون بنعم كثيرة دينية ودنيوية ، أرفعها درجة النبوة ، ثم ذكر تعالى هذه النعم وهي :

أ . نجاهما وقومهما بني إسرائيل من الرق الذي لحق بني إسرائيل واستعباد فرعون لهم ، وقيل : من الغرق الذي لحق فرعون.

ب . نصرهما وقومهما على أعدائهم قبط مصر.

ج ـ أنزل عليهما التوراة الكتاب المنير الواضح البليغ في بيانه الشامل لمصالح الدنيا والآخرة.

د ـ هداهما إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ، وهو دين الإسلام بالمعنى العام القائم على التوحيد ، وأرشدهما إلى طريق الحق والصواب ، وأمدهما بالتوفيق والعصمة.

هـ ـ أبقى عليهما الثناء الحسن بين الأمم ، وتلك نعمة عظمي.

و ـ حظيا بالسلام من الله تعالى ومن الملائكة والإنس والجن أبد الدهر.

٢ ـ إن سنة الله تعالى الدائمة الجزاء الحسن للمحسنين أعمالهم بالخلاص من الشدائد ، والسلامة من المحن ، وذلك يشمل موسى وهارون عليهما السلام وأمثالهما.

٣ ـ إن سبب هذه الفضائل : الإيمان الذي هو أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل.

قصة إلياس عليه السلام

﴿وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (١٢٥) اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾

الإعراب :

﴿اللهَ رَبَّكُمْ .. اللهَ﴾ : منصوب على أنه بدل من قوله تعالى : ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ ويقرأ بالرفع على الابتداء ، و ﴿رَبَّكُمْ﴾ : الخبر.

﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ مفعول ﴿تَرَكْنا﴾ محذوف ، تقديره : وتركنا عليه في الآخرين الثناء الحسن ، ثم ابتدأ فقال : ﴿سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ﴾.

﴿سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ سَلامٌ﴾ : مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور بعده ، والجملة في موضع نصب ب ﴿تَرَكْنا﴾. و ﴿إِلْ ياسِينَ﴾ : إما لغة في إلياس كميكال وميكائيل ، وإما جمع (إلياسي) فحذف ياء النسب ، كالأعجميين والأشعريين ، وإنما حذفت لثقلها وثقل الجمع ، وقد تحذف هذه في جمع التكسير ، وفي جمع التصحيح مثل المهالبة جمع المهالبيّ.

البلاغة :

﴿تَدْعُونَ وَتَذَرُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿إِلْياسَ﴾ أحد أنبياء بني إسرائيل ، وهو إلياس بن ياسين سبط هارون أخ موسى ، بعث بعده ، أرسل إلى قوم في بعلبك ونحوها. ﴿إِذْ﴾ منصوب بفعل مقدر هو : اذكر. ﴿قالَ لِقَوْمِهِ : أَلا تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله ، فتعبدونه ، وتتركون ما ينهاكم الله عنه من الشرك والمعاصي ، فتأمنون عذاب الله. ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ أي أتعبدون بعلا وهو اسم لصنم من ذهب ، كان لأهل بعلبك ، وبه سمي البلد أيضا مضافا إلى (بك) في لبنان. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ﴾ تتركون عبادة الله تعالى الذي هو أحسن المصورين الخالقين.

﴿اللهَ رَبَّكُمْ ..﴾ الذي يربيكم بنعمه بعد أن أوجدكم من العدم ، أنتم وأجدادكم ، فهو الذي تحقّ له العبادة. ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين اصطفاهم الله للطاعة ، وأخلصوا لله العبادة ، فهم ناجون من العذاب. ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أبقينا عليه ثناء حسنا.

﴿سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ﴾ أي سلام منا على إلياس ، أو عليه وعلى قومه الذين آمنوا معه ، فجمعوا تغليبا ، كقولهم للمهلب وقومه : المهلبون. وقرئ : آل ياسين بالمد ، والمراد به أهل إلياس. ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزي كل من أحسن عمله لله. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ علة الإحسان المتقدم.

المناسبة :

هذه هي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة ، والمقصود بها بيان جهود النبي إلياس عليه‌السلام أحد أنبياء بني إسرائيل في الدعوة إلى توحيد الله ، ومقاومة الشرك وعبادة الأصنام ، كمن تقدمه من الأنبياء مثل نوح وإبراهيم عليهما‌السلام .

التفسير والبيان :

﴿وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران أخي موسى عليهما‌السلام ، بعثه الله في بني إسرائيل بعد حزقيل عليه‌السلام ، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له (بعل) فدعاهم إلى توحيد الله تعالى ، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

﴿إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ : أَلا تَتَّقُونَ﴾ أي اذكر حين قال لقومه : هلا تخافون الله عزّوجلّ في عبادتكم غيره ، وتتركون ما ينهاكم عنه من الشرك والمعاصي.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ ، اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أتعبدون صنما أنتم صنعتموه ، وتتركون عبادة المستحق للعبادة وحده لا شريك له؟ فهو الذي صوّركم وأنشأكم ، وهو أحسن المصورين الخالقين ، ولا خالق سواه ، وهو الذي يربيكم بنعمه بعد أن أوجدكم من العدم ، أنتم وأجدادكم. ويلاحظ الترتيب أنه لما عابهم على عبادة غير الله ، صرح بالتوحيد ونفي الشركاء.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي فكذبوا دعوته ونبوته ، فصاروا بسبب تكذيبه لمحضرون في العذاب يوم القيامة ، ويجازون على ما قدموا من سوء الأعمال.

ثم استثنى الله تعالى من كان مؤمنا من قومه ، الذين وحدوا الله توحيدا خالصا وعبدوه ، وأخلصوا العمل لله ، فهؤلاء ناجون من العذاب ، مثابون ثوابا حسنا على صالح أعمالهم ، لا يحضرون العقاب المقرر للمشركين.

ثم ذكر الله تعالى ما أنعم به على النبي إلياس ، فقال :

﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي أبقينا عليه ثناء جميلا في الأمم المتتالية.

﴿سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ﴾ أي سلام من الله وملائكته وإنسه وجنّه على إلياس الذي آمن بكتاب الله ، وقاوم الشرك والوثنية. وفي قراءة آل ياسين أي عليه وعلى أهل دينه الذين آمنوا برسالته ، واتبعوا الحق.

﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كما جازيناه بالتخلص من الشدة والمحنة ، نجازي كل محسن عمله لله تعالى ، وعلة الجزاء الحسن : أنه مؤمن من جملة عباد الله المصدقين بوجود الله وتوحيده واتصافه بالصفات الحسنى.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن إلياس عليه السلام أحد الأنبياء المرسلين إلى قومه الذين عبدوا الأصنام ، وتركوا عبادة الله تعالى.

٢ ـ لقد حذّرهم إلياس من عذاب الله ، وعابهم على عبادة الأصنام ، وأمرهم بما فيه ترغيب وتعقل أمرا بعبادة الله الخالق الرازق المنعم ، الذي يربيهم بنعمه ، هم وأجدادهم المتقدمون ، وكذا الأجيال اللاحقة إلى يوم القيامة.

٣ ـ أخبر الله تعالى عن قوم إلياس أنهم كذبوه فاستحقوا الإحضار إلى عذاب جهنم في الآخرة.

٤ ـ نجّى الله من العذاب الذين آمنوا بالله من قومه.

٥ ـ أبقى الله على إلياس الثناء الجميل في الأمم المتعاقبة والأجيال المتلاحقة.

٦ ـ سلام من الله وملائكته وإنسه وجنّه على إلياس على مدى الحياة.

٧ ـ يجزي الله الجزاء الأوفى كل من أحسن عمله لله تعالى ، وسبب الجزاء لإلياس ومن آمن معه : أنه مؤمن بالله إيمانا صادقا خالصا من أي شائبة.

قصة لوط عليه‌السلام

﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾

المفردات اللغوية :

﴿وَإِنَّ لُوطاً﴾ هو لوط بن هاران أخي إبراهيم عليه‌السلام ابن تارح ، آمن بإبراهيم ، وأرسله الله إلى أهل سدوم أهل المنكرات والمعاصي والفواحش. ﴿الْغابِرِينَ﴾ الباقين في العذاب. ﴿دَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿الْآخَرِينَ﴾ كفار قومه. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ﴾ وإنكم يا أهل مكة لتمرون على منازلهم وآثارهم في أسفاركم ومتاجركم إلى الشام ، فإن (سدوم) في طريقه. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الدخول في الصباح ، أي أول النهار. ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ أي وفي المساء. ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ؟﴾ أفليس فيكم عقل تعتبرون به يا أهل مكة؟

المناسبة :

هذه هي القصة الخامسة من قصص هذه السورة ، ذكرها تعالى ليعتبر بها مشركو العرب ، فإن الذين كفروا وعصوا من قوم لوط عليه‌السلام هلكوا ، والذين آمنوا نجوا.

التفسير والبيان :

﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإن لوطا من الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى قومه (أهل سدوم) لارتكابهم الفواحش ، فنصحهم فأبوا نصحه ، فأهلكهم الله بالزلزال أو بالصيحة والحجارة المحرقة ، فجعل بلادهم عاليها سافلها ، ونجاه وأهله الذين آمنوا به إلا امرأته ، كما قال تعالى :

﴿إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ﴾ أي نجينا لوطا وأهله المؤمنين به جميعا ، إلا امرأته ، فإنها هلكت وبقيت في العذاب ، لرضاها بفعل القوم ، وتواطؤها معهم على القوم الذين يأتون إلى لوط عليه السلام .

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي ثم أهلكنا قومه الذين كذّبوا برسالته وهم أهل الفاحشة (اللواط) عدا من نجيناهم.

وهنا نبّه الله تعالى مشركي مكة إلى الاعتبار بمصير هؤلاء المكذبين العصاة ، فقال :

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أي وإنكم يا أهل مكة تمرون على منازلهم التي فيها آثار العذاب في وقت الصباح ، أي بالنهار ذهابا إلى الشام ، وفي الليل أثناء رجوعكم من الشام أفلا تتدبرون بعقل واع ، وتتعظون بما تشاهدونه في ديارهم من آثار التدمير وعقوبة الله النازلة بهم ، فتخافوا من أن يحلّ بكم نفس العذاب ، وتصيروا إلى مثل المصير ، لمخالفتهم رسولهم.

وأشار الله تعالى إلى الصباح والليل ، لأن المسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار.

فقه الحياة أو الأحكام :

يقص الله تعالى قصص الأنبياء السابقين للعظة والعبرة ، ومن هذه

القصص : قصة لوط عليه السلام مع قومه أهل سدوم ، فأرشدهم إلى عبادة الله تعالى ، وترك عبادة الأصنام ، واجتناب الفواحش والمنكرات ، ومنها إتيان الرجال ، فكذبوه وعصوا أمر ربهم ، فعاقبهم الله بالزلزال ، فدمر ديارهم وأهلكهم ، ونجّى الله لوطا وأهله الذين آمنوا برسالته إلا زوجته التي كانت راضية بأفعال القوم ، وتدلهم على ضيوف لوط عليه السلام .

هذه عبرة وأي عبرة ، لذا حذّر تعالى مشركي مكة الذين يرون في أسفارهم ومتاجرهم إلى الشام آثار ذلك الدمار ، ونبههم إلى ضرورة العظة والاعتبار بمصير هؤلاء الذين كذبوا رسولهم ، حتى لا يحل بهم ما حل بغيرهم.

قصة يونس عليه السلام

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْ لا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (١٤٨)﴾

الإعراب :

﴿أَوْ يَزِيدُونَ أَوْ﴾ : إما للتخيير ، أي يتخير الرائي في أن يعدهم مائة ألف أو يزيدون ، وإما للشك من الرائي ، إذا رآهم شك في عدتهم لكثرتهم ، وإما بمعنى (بل) وإما بمعنى الواو ، والوجهان الأولان مذهب البصريين ، والوجهان الآخران مذهب الكوفيين.

البلاغة :

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ في ﴿أَبَقَ﴾ استعارة تصريحية ، شبه خروج يونس عليه السلام بغير إذن ربه بإباق العبد ، أي هربه من سيده.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ هو نبي الله يونس بن متى ، من أنبياء اليهود بني إسرائيل في الظاهر أرسله الله عقيب نبوته إلى مدينة كبري ليدعو أهلها (هم أهل نينوى) إلى توحيد الله ، وترك الوثنية. ﴿أَبَقَ﴾ أصل الإباق : الهرب من السيد ، والمراد هنا أنه ترك البلد بغير إذن ربه. ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ السفينة المملوءة في صورة المغاضب لربه ، وهو في الحقيقة غاضب من قومه ، لما لم ينزل بهم العذاب الذي وعدهم به ، فركب السفينة ، فوقفت في لجّة البحر ، فقال الملاحون : هنا عبد أبق (هرب) من سيده ، تظهره القرعة.

﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع من في الفلك ، أي اقترع أهل السفينة. ﴿الْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين بالقرعة ، فقال : أنا الآبق ، فألقوه في البحر. ﴿فَالْتَقَمَهُ﴾ ابتلعه. ﴿مُلِيمٌ﴾ آت بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر ، وركوبه السفينة بلا إذن من ربه. ﴿الْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره ، وفي بطن الحوت بقوله : ﴿لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٨٧]. ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أحياء ، أي لصار بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة.

﴿فَنَبَذْناهُ﴾ ألقيناه من بطن الحوت ، بأن حملنا الحوت على لفظه. ﴿بِالْعَراءِ﴾ بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت ، في الساحل ، في يومه أو بعد أيام ، والله أعلم ، روي أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ، حتى انتهوا إلى البر ، فلفظه. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عليل مما ناله ، قيل : صار بدنه كبدن الطفل حين يولد. ﴿وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ﴾ أي فوقه. ﴿شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ وهو الدّباء أو القرع المعروف ، غطّته بأوراقها عن الذباب ، وظلّلته بساق على خلاف العادة في امتداد القرع على الأرض ، معجزة له ، وقيل : هو الموز يتغطى بورقه ، ويستظل بأغصانه ، ويفطر على ثماره ، وقيل : التين. قيل لرسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : إنك لتحب القرع؟ قال : «أجل ، هي شجرة أخي يونس». ويقال : وكانت تأتيه وعلة صباحا ومساء يشرب من لبنها حتى قوي.

﴿وَأَرْسَلْناهُ﴾ بعد ذلك إلى قوم هم أهل نينوى من أرض الموصل. ﴿إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظر ، إذا نظر إليهم قال : هم مائة ألف أو أكثر ، والمراد : الوصف بالكثرة. ﴿فَآمَنُوا﴾ عند معاينة أمارات العذاب الموعودين به. ﴿فَمَتَّعْناهُمْ﴾ أبقيناهم ممتعين بما لهم في الدنيا. ﴿إِلى حِينٍ﴾ إلى أجلهم المسمى ومنتهى أعمارهم.

المناسبة :

هذه هي القصة السادسة والأخيرة في هذه السورة ، وإنما جعلت خاتمة

للقصص ، لأن يونس عليه‌السلام لما لم يصبر على أذى قومه ، وأبق إلى الفلك ، وقع في تلك الشدائد ، وفي هذا عبرة ودرس وتعليم للنبي صلي الله عليه وآله وسلم ليصبر على أذى قومه. جاء في الصحيحين عن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم أنه قال : «ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أمه ، وفي رواية : إلى أبيه.

التفسير والبيان :

ذكر الله يونس في القرآن باسمه أربع مرات [١] ، وذكره بوصفه مرتين ، في سورة الأنبياء : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً﴾ [٨٧] وفي سورة القلم : ﴿وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ ، إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [٤٨].

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إن يونس بن متى وهو ذو النون أحد الأنبياء المرسلين إلى قومه أهل نينوى بالموصل. قال المفسرون : كان يونس قد وعد قومه العذاب ، فلما تأخر عنهم العذاب ، خرج عنهم وقصد البحر ، وركب السفينة ، فكان كالفارّ من مولاه ، فوصف بالإباق.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي اذكر حين هرب من قومه مغاضبا قومه إلى السفينة المملوءة بغير إذن ربه ، فقارع أهل السفينة ، فكان من المغلوبين في القرعة التي اقترعوها ليلقوا بعضهم في البحر ، خوفا من غرق السفينة الثقيلة الحمولة ، فألقوه في البحر بعد أن وقعت القرعة عليه ثلاث مرات.

وأصل الإباق : هرب العبد من السيد ، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه ، وصف به.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ فابتلعه الحوت ، وهو مليم نفسه على ما فرط

---

(١) في سورة النساء (١٦٣) والأنعام (٨٦) ويونس (٩٨) والصافات (١٣٩).

منها أو هو آت ما يلام عليه ، من ترك قومه بغير إذن ربه ، وكان عليه أن يصبر على أذى قومه. والخروج بغير إذن الله كبيرة على الأنبياء ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

﴿فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي لو لا أنه كان في حياته من الذاكرين الله كثيرا ، المسبحين بحمده ، المصلين له ، للبث ميتا في بطن الحوت ، وصار له قبرا إلى يوم القيامة ، لأن العادة أن يهضم كسائر أنواع الغذاء.

جاء في الحديث الصحيح الذي ذكره النووي في الأربعين النووية عن ابن عباس في رواية غير الترمذي : «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» وكما كان مسبّحا ربه في حياته ، سبح الله في بطن الحوت ، كما قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَنادى فِي الظُّلُماتِ : أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنا لَهُ ، وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٨٧ ـ ٨٨].

﴿فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ألقيناه ، بأن جعلنا الحوت يلقيه ، في مكان خال ليس فيه شجر ولا نبت ولا بناء ، على جانب دجلة ، وهو عليل الجسم ضعيف البدن ، كهيئة الصبي حين يولد.

﴿وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ أي أنبتنا عليه شجرة فوقه تظلل عليه هي شجرة الدّبّاء وهو القرع ، وهذا سريع النمو ، وقدرة الله تجعل الشيء كن فيكون. ذكر بعضهم في القرع فوائد : منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمرته ، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبّه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم كان يحب الدباء ، ويتتبعه من حواشي الصّحفة. وقد مكث يونس في هذه الحالة حتى اشتد لحمه ونبت شعره ، ثم جاءه الأمر الإلهي :

﴿وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، فَآمَنُوا ، فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ أي

أرسله الله عائدا إلى القوم الذين هرب منهم إلى البحر ، وهم أهل نينوى من أرض الموصل ، وعددهم مائة ألف ، بل أكثر من ذلك ، فهم يزيدون عن هذا العدد ، فدعاهم إلى ربه مرة أخرى ، فصدقوه كلهم وآمنوا به ، بعد ما شاهدوا أعلام نبوته ، وأمارات العذاب ، فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ومنتهى أعمارهم ، كقوله تعالى : ﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا ، كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ [يونس ١٠ / ٩٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت قصة يونس إلى ما يأتي :

١ ـ وقعت حادثة التقام الحوت يونس عليه السلام بعد أن صار رسولا ، لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك.

٢ ـ لا يصح لنبي المهاجرة عن بلد القوم الذين أرسل إليهم إلا بإذن ربه ، فلما ذهب يونس عليه السلام بغير إذن ربه ، وصف فعله بالإباق. قال العلماء : إنما قيل ليونس : أبق عن العبودية ، لأنه خرج بغير أمر الله عزوجل ، مستترا من الناس. وإنما العبودية : ترك الهوى ، وبذل النفس عند أمور الله عزوجل ، فلما آثر هواه لزمه اسم الآبق.

ولم يبين لنا القرآن الكريم سبب إباقه ، وقد فهم ذلك بالأمارات.

٣ ـ القرعة جائزة شرعا ، وملزمة الأثر كالقسمة ، لقوله تعالى : ﴿فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾. لكن المستقر في تشريعنا أنه لا يجوز الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر ، وإنما تطبق عليه الحدود والتعزيرات على مقدار جنايته. وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه ، وزيادة في إيمانه.

٤ ـ أتى يونس عليه‌السلام بما يلام عليه ، فأصابته القرعة ثلاث مرات ، فألقوه في البحر ، تخفيفا لحمولة السفينة ، فالتقمه الحوت ، وهو آت بما يلام عليه.

٥ ـ لم يبين القرآن الكريم مدة لبثه في بطن الحوت ، لذا اختلف العلماء في تعيين المدة ، فقيل : بعض يوم ، أو ساعة واحدة ، وقيل : ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة أيام ، وقيل : عشرين يوما ، وقيل : أربعين يوما [١]. والمعول عليه أن الله أبقاه حيا في بطن الحوت ، فجعله عسير الهضم عليه ، في مدة قليلة أو كثيرة ، معجزة له.

٦ ـ لقد نجى الله تعالى يونس عليه‌السلام ، لأمرين : أنه كان من المسبحين الذاكرين الله كثيرا طوال عمره ، ومن تعرف على الله وقت الرخاء عرفه وقت الشدة ، وأنه أعلن توبته في بطن الحوت الذي حماه الله من هضمه ، فقال : ﴿**لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾. لذلك قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر. وقال الحسن البصري : ما كان له صلاة في بطن الحوت ، ولكنه قدم عملا صالحا في حال الرخاء ، فذكّره الله به في حال البلاء ، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه ، وإذا عثر وجد متكأ.

ومن هذا المعنى قوله صلي الله عليه وآله وسلم فيما رواه الضياء عن الزبير : «من استطاع منكم أن تكون له خب (أي خبيئة) من عمل صالح فليفعل» أي فليجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويسترها عن خلقه ، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه.

أما تسبيحه فقال القرطبي : الأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان. جاء في كتاب أبي داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلي الله عليه وآله وسلم قال : «دعاء ذي النون

---

(١) تفسير القرطبي : ١٥ / ١٢٣

في بطن الحوت : ﴿لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له».

٧ ـ كان من تتمة نعمة الله على يونس عليه السلام أنه بعد أن ألقاه الحوت ، وهو في حال من الضعف ، بساحل قرية من الموصل ، أنبت عليه لحمايته وتظليله شجرة من يقطين. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : طرح يونس بالعراء ، وأنبت الله عليه يقطينة ، قلنا : يا أبا هريرة ، وما اليقطينة؟ قال : شجرة الدّبّاء ، هيأ الله له أروية [١] وحشية تأكل من خشاش الأرض ـ أو هشاش الأرض ـ فتفشج [٢] عليه ، فترويه من لبنها ، كل عشية وبكرة حتى نبت.

٨ ـ بعد أن اشتد لحمه ونبت شعره ، أعاده الله إلى قومه الذين يزيد عددهم عن مائة ألف ، فدعاهم إلى ربه ، فآمنوا لما رأوا أعلام نبوته ، ليظهر الله إرادته وقدرته له في الإيمان ، ولما آمنوا أزال الله الخوف عنهم ، وآمنهم من العذاب ، ومتعهم الله بمتاع الدنيا إلى منتهى أعمارهم.

تفنيد عقائد المشركين

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)

---

(١) الأروية : الأنثى من الوعول.

(٢) تفشج : تفرج ما بين رجليها.

﴿فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (١٦١) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾

الإعراب :

﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ﴾ مكسورة بعد ﴿أَلا﴾ لأنها مبتدأة ، ولو لا اللام في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ لجاز فتحها على أن تكون ﴿أَلا﴾ بمعنى : حقا ، تقول : أحقا أنك منطلق.

﴿أَصْطَفَى الْبَناتِ ..﴾ قرئ بهمزة من غير مد ، أصله «اصطفى» بهمزة وصل ، فأدخلت عليه همزة الاستفهام ، فاستغني بها عن همزة الوصل ، فحذفت ، مثل «أستغفرت». ومن قرأه بالمد أبدل من همزة الوصل مدة كإبدال همزة لام التعريف ، نحو : آلرجل عندك ، ونحو ﴿آللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس ١٠ / ٥٩].

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ مَنْ﴾ : في موضع نصب ب ﴿بِفاتِنِينَ﴾ وقرئ ﴿صالِ الْجَحِيمِ﴾ وفيه ثلاثة أوجه : إما حذف لام ﴿صالِ﴾ وهي الياء ، وإما قلب اللام التي هي الياء من «صالي» إلى موضع العين ، فصار «صايل» ثم حذف الياء ، فبقيت اللام مضمومة ، وفيه بعد ، وإما أصله «صالون» جمع صال ، حملا على معنى «من» فحذفت النون منه للإضافة ، وحذف الواو لالتقاء الساكنين.

﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ تقديره : وما منا أحد إلا له مقام معلوم.

﴿وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ﴾ إن : مخففة من الثقيلة ، وتقديره : وإنهم كانوا ليقولون ، ودخلت اللام فرقا بين المخففة والثقيلة.

البلاغة :

﴿الْبَناتِ﴾ و ﴿الْبَنِينَ﴾ بينهما طباق.

﴿أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ﴾ : تتابع الاستفهام للتوبيخ.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأصل : وتجعلون ، للإهمال والإبعاد من رحمة الله.

المفردات اللغوية :

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ استخبرهم واطلب منهم الفتيا توبيخا لهم ، وهو معطوف على مثله في أول السورة ، فإنه تعالى أمر رسوله أولا باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة ، حيث جعلوا لله البنات ، ولأنفسهم البنين ، في قولهم : الملائكة بنات الله. ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ﴾ بزعمهم أن الملائكة بنات الله. ﴿وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ فيختصون بالأعلى ، ويجعلون لله الأدنى.

﴿وَهُمْ شاهِدُونَ﴾ الخلق ، لأن أمثال ذلك لا يعرف إلا بالشهود أو الحضور. ﴿أَمْ﴾ بمعنى «بل» الإضرابية ، مع همزة الاستفهام. ﴿إِفْكِهِمْ﴾ الإفك : أشد الكذب. ﴿وَلَدَ اللهُ﴾ بقولهم : الملائكة بنات الله. ﴿لَكاذِبُونَ﴾ فيما ادعوه ، وتدينوا به. ﴿أَصْطَفَى﴾ اختار ، والاصطفاء : أخذ صفوة الشيء. وهو استفهام إنكار واستبعاد.

﴿ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد الذي لا يرتضيه عقل. ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه منزه عن ذلك من الولد والشريك والند والنظير. ﴿سُلْطانٌ مُبِينٌ﴾ حجة واضحة ، نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته ، أو أن لله ولدا. ﴿فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في ادعائكم أو قولكم ذلك.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ أي جعل المشركون بينه تعالى وبين الملائكة نسبا أي صلة وارتباطا بقولهم : إنها بنات الله ، وسموا بالجنّة لاستتارهم عن الأبصار. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ إن الكفرة قائلي ذلك. ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ للنار للعذاب فيها. ﴿سُبْحانَ اللهِ﴾ تنزيها لله. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد (بأن لله ولدا) والنسب ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكن عباد الله الذين اصطفاهم ربهم ينزهون الله تعالى عما يصفه هؤلاء ، وهو استثناء منقطع.

﴿فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام ، وهو عود لخطابهم. ﴿ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ على الله ﴿بِفاتِنِينَ﴾ أحدا ، مفسدين الناس بالإغواء ، حاملين إياهم على الضلال والفتنة. وعليه : متعلق بفاتنين. ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ﴾ إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار يصلاها لا محالة ، يقال : صلي النار : دخلها.

﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ أي قال جبريل للنبي صلي الله عليه وآله وسلم : ما منا معشر الملائكة أحد إلا له مقام معلوم في السموات ، يعبد الله فيه لا يتجاوزه. وهذا اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ صفوفا في أداء الطاعة ومنازل الخدمة. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ

﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون الله عما لا يليق به. ﴿وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ﴾ أي وإن كان كفار مكة ليقولون. ﴿وَإِنْ﴾ مخففة من الثقيلة أي وإنهم.

﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ كتابا من الكتب التي أنزلت على الأمم الماضية. ﴿لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة له ، ولم نخالف مثلهم. ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أي لما جاءهم القرآن الذي هو أشرف الأذكار والمهيمن عليها كفروا به. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم.

سبب النزول :

نزول الآية (١٥٨):

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ ..﴾ : أخرج جويبر عن ابن عباس قال : أنزلت هذه الآيات في ثلاثة أحياء من قريش : سليم ، وخزاعة ، وجهينة : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾. ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا : إن قريشا وأجناس العرب : جهينة وبني سلمة ، وخزاعة ، وبني مليح قالوا : الملائكة بنات الله.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد قال : قال كبار قريش : الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصديق : فمن أمهاتهم؟ قالوا ، بنات سراة الجن ، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

نزول الآية (١٦٥):

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ..﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال : كان الناس يصلون متبددين ، فأنزل الله : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ فأمرهم النبي صلي الله عليه وآله وسلم أن يصفوا.

المناسبة :

بعد افتتاح هذه السورة بتوبيخ المشركين على إنكارهم البعث ، وبعد بيان قصص الأنبياء التي هي في الأعم الأغلب درس بليغ للمشركين ، بدأ الله تعالى

ببيان عقائد المشركين وتفنيدها وتقبيحها ، ومن تلك العقائد : إثبات الأولاد لله تعالى ، ونسبة البنات لله بقولهم : «الملائكة بنات الله» وجعل البنين لأنفسهم ، ثم افتراؤهم بجعل الملائكة إناثا لا ذكورا ، ثم أعلن تعالى حملته الشديدة على المشركين ، فأبان أنهم عاجزون عن إضلال أحد إلا إذا كان هو من أهل الضلال وأصحاب الجحيم ، في علم الله السابق. وناسب بعدئذ إيراد تصريح الملائكة بعبوديتهم لله للرد على المشركين الذين زعموا أنهم بنات الله.

التفسير والبيان :

عطف الله تعالى هذه الآيات على قوله في أول السورة : ﴿**فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا**﴾ فقال : ﴿**فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ**﴾ أي استخبرهم يا محمد على سبيل التوبيخ ، وسلهم مؤنبا ومقرعا ومنكرا على هؤلاء المشركين في قسمتهم وسفه عقولهم ، في جعلهم لأنفسهم البنين ، وهو النوع الجيد ، ولله تعالى البنات التي يكرهونها أشد الكره ، كما قال تعالى : ﴿**وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ [النحل ١٦ / ٥٨] أي يسوؤه ذلك ، ولا يختار لنفسه إلا البنين ، فكيف يجعلون لله أدنى الجنسين وهو الإناث ، ولهم أعلاها وهم الذكور؟.

والمراد بالآية : بيان جور القسمة وإظهار شدة الغرابة ، كيف نسبوا إلى الله تعالى النوع الذي لا يختارونه لأنفسهم؟ كما في قوله عزّ وجلّ : ﴿**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ، تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى**﴾ [النجم ٥٣ / ٢١ ـ ٢٢].

﴿**أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ**﴾ بل كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث ، وما شاهدوا خلقهم؟ وهذا انتقال عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه ، فكيف جعلوهم إناثا ، وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم ، وذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة ، ولم يشهدوا ، فلم يقم لهم دليل يدل على قولهم ، لا من النقل الصحيح ، ولا من العقل السليم.

ونظير الآية قوله سبحانه : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ؟ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ١٩] أي ويسألون عن ذلك يوم القيامة.

﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : وَلَدَ اللهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ أي إن قولهم هذا هو من الكذب والافتراء ، الذي لا دليل له ولا شبهة دليل. فكيف يقولون : صدر منه الولد ، إنهم فيما يقولون أكذب الكاذبين.

وبه يتبين أنهم ذكروا في الملائكة ثلاثة أوصاف في غاية الكفر والكذب ، وهي أنهم جعلوهم بنات الله ، فنسبوا الولد لله ، وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون الله.

ثم أنكر الله تعالى عليهم حكمهم الجائر فقال :

﴿أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ؟﴾ المعنى : أي شيء يحمله على اختيار البنات دون البنين؟ كما قال تعالى : ﴿أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ [الإسراء ١٧ / ٤٠] أي كيف يعقل تفضيله البنات على البنين ، مع أن البنين أفضل؟

أليس لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ أفلا تعتبرون وتتفكرون فتتذكروا بطلان قولكم؟.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ؟ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ المعنى : بل ألكم حجة واضحة على هذا القول؟ فإن كان لكم برهان ، فهاتوا برهانا على ذلك ، مستندا إلى كتاب منزّل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه ، إن صدقتم في ادعائكم.

ويلاحظ من تتابع هذه الاستفهامات وتكرارها مدى التوبيخ والتبكيت والإنكار الشديد لأقاويلهم ، وتسفيه أحلامهم ، فإن ما يقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يجوزه العقل أصلا.

ثم أكد الله تعالى افتراء المشركين على الله بنسبة الملائكة إليه نسبا ، فقال :

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ أي جعل المشركون بين الله وبين الجن وهم هنا الملائكة صلة نسب ، فقالوا : الملائكة بنات الله ، وسموا جنا لاجتنانهم واستتارهم عن الأبصار.

والقائل بهذه المقالة كنانة وخزاعة ، قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجن ، فزوجوه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. وما هذا إلا وهم واختراع القصاصين منهم ، وقيل : القبائل هم اليهود ، قالوا لعنهم الله : إن الله صاهر الجن ، فكانت الملائكة من بينهم. وكل هذا بسبب تشبيه الخالق ﷻ بالبشر ، ووصفه بالمادية الجسدية ، وهو كفر.

ثم أخبر الله تعالى عن عذابهم قائلا :

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي وتالله ، لقد علمت الملائكة الذين ادعى المشركون أن بينهم وبينه تعالى نسبا ، إن أولئك المشركين لمحضرون للحساب والعذاب في النار ، لكذبهم وافترائهم بقولهم المتقدم.

ثم نزّه الله تعالى نفسه عن كل ما لا يليق به من نقائص البشر ، قائلا.

﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله تعالى وتقدس عن أن يكون له ولد ، وعما يصفه به الظالمون الملحدون ، وتعالى علوا كبيرا.

﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكن عباد الله المخلصين وهم المتّبعون للحق

المنزل على كل نبي مرسل ناجون ، فلا يحضرون إلى عذاب النار ، وهذا استثناء منقطع.

ثم تحدى الله تعالى المشركين ، وأثبت عجزهم عن إضلال أحد أو فتنته ، فقال مخاطبا المشركين :

﴿فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ. ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ. إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ [١] الْجَحِيمِ﴾ أي فإنكم وآلهتكم التي تعبدون من دون الله لستم بقادرين على فتنة أحد عن دينه وإضلاله إلا من هو أضل منكم ممن هو من أهل الجحيم الذي سبق في علم الله تعالى أنهم لما علم من سوء استعدادهم ممن يدخلون النار ويصلونها ، وهم المصّرون على الكفر ، كما قال تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها ، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها ، أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٩] فهذا النوع من الناس : هو الذي ينقاد للشرك والضلالة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٨ ـ ٩] أي إنما يضل به من هو مأفوك مبطل.

ثم نزه الله تعالى الملائكة مما نسبوا إليه من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله.

﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ هذا حكاية من الله تعالى عما تقوله الملائكة معناه : وما منا ملك إلا له مرتبة معلومة من المعرفة والعبادة والمكان ، لا يتجاوزها. والمراد به الإشارة إلى درجاتهم في طاعة الله تعالى ، مبالغة في العبودية لله عَزَّوَجَلَّ . قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد ، أو قائم» [٢].

---

(١) هذا محمول على معنى من ومعناها جماعة ، فالتقدير : صالون ، ثم حذفت النون للإضافة ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين.

(٢) رواه ابن مردويه عن أنس بلفظ : «أطت السماء ، ويحق لها أن تئط ، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر ، إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبّح الله بحمده».

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي قالت الملائكة أيضا : وإنا لنحن الصافون صفوفا في مواقف العبودية ، وإنا لنحن المسبحون باللسان وبالصلاة ، المنزهون الله تعالى عما لا يليق به ، فنحن عبيد فقراء لله. والمقصود أن صفات الملائكة هي التذلل والعبادة لله ، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله ، وهو إشارة إلى درجاتهم في المعارف ، كما أن الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة.

ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : «خرج علينا رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم ، ونحن في المسجد ، فقال : ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربها ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف تصفّ الملائكة عند ربها؟ قال : يتمّون الصفوف الأوّل ، ويتراصّون في الصف».

وفي صحيح مسلم أيضا عن حذيفة ﷺ قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدا ، وتربتها طهورا».

وكان عمر ﷺ إذا قام للصلاة يقول : أقيموا صفوفكم ، واستووا ، إنما يريد الله بكم هدي الملائكة عند ربها ، ويقرأ : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبّر.

ثم ذكّر تعالى بما كان يقول المشركون قبل البعثة النبوية : ﴿وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ : لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ ، لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي إن المشركين كانوا قبل بعثة النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، إذا عيّروا بالجهل ، قالوا : لو كان عندنا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل ، لأخلصنا العبادة لله ، ولم نكفر به ، فجاءهم محمد صلي الله عليه وآله وسلم بالذّكر المبين فكفروا به ، وسوف يعلمون عاقبة كفرهم ومغبته. وهذا وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم وبالقرآن وبالرسول صلي الله عليه وآله وسلم.

وذلك كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ [فاطر ٣٥ / ٤٢] وقوله سبحانه: ﴿أَنْ تَقُولُوا : إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا ، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللهِ ، وَصَدَفَ عَنْها ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٦ ـ ١٥٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما هو آت :

١ ـ من أكاذيب المشركين الوثنيين وافتراءاتهم أنهم قالوا : البنات لله. والملائكة بنات الله ، والملائكة إناث ، وكل ذلك باطل ، لأنهم نسبوا لله الولد وهو الذي لم يلد ولم يولد ، وكان يستنكفون من البنت ، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه ، كيف يمكن إثباته للخالق ، ولم يشهدوا كيفية تخليق الله الملائكة ، فكيف يزعمون أنهم إناث؟!!

٢ ـ لكل هذا وبخهم الله تعالى بجمل متتابعة متكررة من الاستفهامات المذكورة في الآيات ، والتي تناقض الحس والعقل والمنطق والنظر ، ولا دليل عليها من نقل يوثق به ، ولا تعتمد على حجة وبرهان.

٣ ـ قال كفار قريش : الملائكة بنات الله ، جاعلين نسبا بينه وبينهم ، والملائكة مبرؤون من هذا الزعم ، ويعلمون يقينا أن أولئك الكفار محضرون للعذاب في نار جهنم.

٤ ـ نزّه الله تعالى نفسه عما قالوا من الكذب ، وعما وصفوا من المزاعم ،

وذلك تنزيه واجب واقع لا شك فيه ، يستحق ربنا به تمام الحمد والشكر على تعريفنا بما يجب لذاته الكريمة من تقديس.

٥ ـ إن عباد الله المخلصين لله العبادة ، المتبعين أوامر ربهم ، هم الناجون.

٦ ـ لا يقر هؤلاء الكفار ولا آلهتهم التي يعبدون من دون الله على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان سبق في علم الله أنه من أهل النار ، لإصراره على الكفر ، وعدم استعداده للإيمان.

قال الرازي : وهذا دليل لأهل السنة على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته ، وإنما المؤثر قضاء الله وتقديره ، لأن قوله تعالى : ﴿فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ﴾ تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ، ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال. وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ﴾ يعني إلا من كان كذلك في حكم الله وتقديره [1]. وهي رد على القدرية. فإن حكم الله وقدره لا جبر فيه ولا إكراه.

٧ ـ وصف الملائكة أنفسهم بثلاث صفات ، تعظيما لله عَزَّوَجَلَّ ، واعترافا بالعبودية له ، وإنكارا منهم عبادة من عبدهم ، وهي : أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ، ودرجة لا يتعدى عنها ، وأنهم صافون صفوفا في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية ، وأنهم دائما يسبحون الله تعالى ، والتسبيح : تنزيه الله عما لا يليق به.

وجاءت الصفتان الثانية والثالثة بصفة الحصر ، ومعناه : أنهم في مواقف العبودية لا غيرهم ، وأنهم هم المسبحون لا غيرهم ، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم ، حتى يصح هذا الحصر ، كما ذكر الرازي. ثم عقب على ذلك قائلا : فكيف يجوز مع هذا الحصر أن

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦ / ١٧٠

يقال : البشر تقرب درجته من الملك ، فضلا عن أن يقال : هل هو أفضل منه أم لا؟!!

٨ ـ إن أخبار قريش عجيبة وغريبة ، سواء قبل البعثة النبوية أم بعدها. فقد كانوا يتمنون قبل بعثة النبي صلي الله عليه وآله وسلم لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله ، وما كان من أمر القرون الأولى ، ويأتيهم بكتاب الله ، ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار ، والكتاب المهيمن على كل الكتب ، وهو القرآن ، فكفروا به ، وكذبوا رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم ، وما وفوا بما قالوا : فاستحقوا الوعيد والتهديد ، وهو أنهم سوف يعلمون مغبة كفرهم ، وعاقبة تكذيبهم.

نصر جند الله تعالى

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٢)﴾

الإعراب :

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ لَهُمُ﴾ : ضمير فصل بين اسم «إن» وهو «هم» وخبرها ﴿الْمَنْصُورُونَ﴾ وأدخلت اللام على الضمير. ولا يجوز أن يكون ﴿لَهُمُ﴾ صفة لاسم «إن» ، لأن اللام لا تدخل على الصفة. ويجوز جعل ﴿لَهُمُ﴾ مبتدأ ، و ﴿الْمَنْصُورُونَ﴾ خبره ، والجملة منهما في موضع رفع خبر «إن».

البلاغة :

﴿فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه العذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم بغتة ، فلم ينتصحوا بكلام ناصح ، ولا استعدوا للدفاع ، حتى هزمهم وأفناهم.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدناهم بالنصر والغلبة ، وذلك بقوله تعالى : ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١] وقوله هنا : ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾. وإنما سماها كلمة وهي كلمات لانتظامها في معنى واحد.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ الغالبون في الحرب وغيرها ، وهذا باعتبار الغالب ، وبشرط نصرة دين الله. ﴿وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ أي إن جندنا المؤمنين أتباع الرسل غالبون الكفار في الدنيا بالحجة والنصرة عليهم ، فإن لم ينتصروا في الدنيا انتصروا في الآخرة.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم. ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أي إلى أن يحين موعد نصرك عليهم وهو في عهد النبوة يوم بدر أو يوم الفتح ـ فتح مكة. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ انظر إليهم وارتقب ما ينالهم من الأسر والقتل في الدنيا ، والتعذيب في الآخرة حين نزول العذاب بهم. ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ عاقبة كفرهم ، وما قضينا لك من التأييد والنصر في الدنيا ، والثواب في الآخرة. وسوف للوعيد لا للتبعيد.

﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ؟﴾ هذا قول من الله يتضمن التهديد لهم ، روي أنه لما نزل.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا : متى هذا؟ فنزل قوله تعالى : ﴿فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ﴾ أي إذا نزل العذاب بفنائهم : وهو المكان الواسع ، قال الفراء : العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم. ﴿فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي بئس صباحا صباح المنذرين بالعذاب. وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر لتسجيل صفة الإنذار عليهم.

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كرره تأكيدا لتهديدهم ، وتسلية للنبي ص. ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ الغلبة والقوة. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بأن له ولدا. ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ المبلغين عن الله التوحيد والشرائع. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ على نصرهم وهلاك الكافرين.

سبب النزول : نزول الآية (١٧٦):

﴿أَفَبِعَذابِنا ..﴾ : أخرج جويبر عن ابن عباس قال : قالوا : يا محمد ، أرنا

العذاب الذي تخوفنا به ، عجّله لنا ، فنزلت : ﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو صحيح على شرط الشيخين.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ أي لقد سبق وعدنا بالنصر والظفر على الكفار في الدنيا والآخرة لعبادنا الرسل الذين أرسلناهم للإنذار والتبشير ، ففي الدنيا : تكون الغلبة والقهر لهم بالأسر والقتل والتشريد أو الإجلاء أو بالحجة والبرهان ، ونحو ذلك ، وفي الآخرة : الظفر بالجنة ، والنجاة من النار ، وهذا في الأعم الأغلب. وجند الله : حزبه ، وهم الرسل وأتباعهم.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١] وقوله سبحانه : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [غافر ٤٠ / ٥١].

وشرط النصر معروف ، وهو الإيمان الصحيح بالله عزّ وجلّ ، والعمل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، والتزام دين الله شرعا ودستورا ونظاما ومنهج حياة ، قال تعالى : ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم ٣٠ / ٤٧] وقال سبحانه : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [سورة محمد ٤٧ / ٧] وقال عزّ وجلّ : ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٨].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ أي أعرض عنهم ، واصبر على أذاهم لك ، إلى مدة معلومة عند الله سبحانه ، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ، كالأسر والقتل ، وسوف يبصرون كل ما وعدتهم به

من العقاب ، وما وعدناك به من النصر وانتشار دينك في الآفاق ، وذلك حين لا ينفعهم الإبصار. وكرر تعالى ذلك تأكيدا.

والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة : الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأن حدوثها قريب ، وفي ذلك تسلية للرسول صلي الله عليه وآله وسلم وتنفيس عنه عما يناله من أذى كفار قومه قريش.

ثم وبخهم الله تعالى وهددهم على طلبهم تعجيل العذاب قائلا :

﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ؟﴾ أي كيف يجرءون على استعجال عذابنا الشديد؟ والواقع أنهم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك ، قائلين : متى هذا العذاب؟ والعذاب نازل بهم قطعا لا محالة.

﴿فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي فإذا نزل العذاب بهم أو بمحلّتهم ، فبئس ذلك اليوم يومهم ، لإهلاكهم ودمارهم. ورد في الصحيحين عن أنس ﷺ قال : صبّح رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم خيبر ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ، ورأوا الجيش ، رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس ـ الجيش ـ فقال النبي صلي الله عليه وآله وسلم : «الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين» ورواه أحمد أيضا بلفظ آخر ، وهو صحيح على شرط الشيخين.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي وأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين إلى أجل آخر يحين فيه هلاكهم ، وانظر إليهم وارتقبهم ، فسوف يرون ما يحل بهم من عقاب.

وهذا تأكيد لما تقدم من الأمر بالكف عنهم ، والصبر على أذاهم.

ثم ختمت السورة بخاتمة عظيمة فيه تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، ومدحه للرسل الكرام ، فقال سبحانه :

﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي تنزيها لربك أيها الرسول وتقديسا وتبرئة عما يقول الظالمون المكذبون المفترون المعتدون ، فهو رب القوة والغلبة والعزة التي لا ترام ، وسلام الله على الرسل الكرام الذين أرسلهم إلى أقوامهم ، في الدنيا والآخرة ، لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ، والحمد والشكر لله في الأولى والآخرة في كل حال ، فهو رب الثقلين : الإنس والجن ، دون سواه. وهذا تعليم من الله للمؤمنين أن يقولوا ذلك.

روى ابن أبي حاتم عن الشعبي ، والبغوي عن علي كرم الله وجهه ، قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر ، يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾. ووردت أحاديث في كفارة المجلس : «سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك».

وذكر الثعلبي عن أبي سعيد الخدري قال : «سمعت رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف : ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ سبق الوعد الإلهي بنصر المرسلين بالحجة والغلبة ، ونصر جند الله وهم الرسل وأتباعه على أعدائهم ، وذلك على الغالب. والنصر إما بقوة الحجة ، أو بالدولة والاستيلاء ، أو بالدوام والثبات.

٢ ـ كان النبي صلي الله عليه وآله وسلم والمؤمنون في مكة قبل الهجرة مأمورين بالكف عن المشركين ، والصفح عنهم ، والصبر على أذاهم ، وترك مقاتلتهم.

٣ ـ هدد الله المشركين وأوعدهم بما سينالهم من عذاب الدنيا والآخرة ، وحينئذ سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار.

٤ ـ من الحماقة الشديدة استعجال الكفار وقوع عذاب الله ، فإنه لا داعي للاستعجال ، والعذاب واقع بهم لا محالة ، وهو عذاب شديد مدمر ، فإذا حلّ بهم أو بديارهم فبئس صباح الذين أنذروا بالعذاب.

٥ ـ يسن ختم الصلاة والمجلس بآية : ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ وفي هذه الآية أنواع ثلاثة من صفات الله تعالى : هي تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الألوهية وهو كلمة سبحان ، ووصفه بكل ما يليق بصفات الألوهية وهو قوله : ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ وكونه منزها عن الشريك والنظير.

وقوله ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ يدل على أنه القادر على جميع الحوادث التي خلقها.

وقوله : ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم. والمهم أن يعرف العاقل كيف يعامل نفسه ويعامل الناس في الدنيا.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ص

مكيّة ، وهي ثمان وثمانون آية.

تسميتها :

سميت سورة صلي الله عليه وآله وسلم لافتتاحها بهذا الحرف العربي أحد أحرف الهجاء الثمانية والعشرين ، للدلالة على أن هذا القرآن العظيم مكون ومنظوم من حروف الهجاء العربية ، ومع ذلك لم يستطع العرب الفصحاء الإتيان بمثل أقصر سورة منه ، فبدئ به بهذه السورة كغيرها من السور المبدوءة بحروف هجائية ، بقصد تحدي العرب ، وإثبات إعجاز القرآن.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجهين :

الأول ـ أن الله تعالى حكى في آخر سورة الصافات التي قبلها قول الكفار : ﴿**لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ ، لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾ ثم كفروا به ، ثم افتتح هذه السورة بالقسم بالقرآن ذي الذكر ، لتفصيل المجمل هناك.

الثاني ـ أن هذه السورة بعد الصافات ، كطس ـ النمل بعد الشعراء ، وكطه والأنبياء بعد مريم ، وكيوسف بعد هود ، في كونها متممة لها بذكر من بقي من الأنبياء ممن لم يذكر في تلك ، مثل داود ، وسليمان ، وأيوب ، وآدم ، وأشار إلى بقية من ذكر.

مشتملاتها :

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية في بيان أصول العقيدة الإسلامية «التوحيد ، والنبوة ، والبعث» من خلال مناقشة المشركين في عقائدهم المناقضة لتلك الأصول ، وإيراد قصص الأنبياء للعظة والعبرة ، وبيان حال الكفار والمشركين يوم القيامة ، ووصف عذاب أهل النار ، ونعيم أهل الجنة.

ابتدأت السورة بالوصف الناقد لصفات المشركين من الكبرياء وإباء الحق والإعراض عنه ، مع تذكيرهم بعاقبة الماضين الذين حادوا عن الحق ، فهلكوا ، مثل قوم نوح وعاد وفرعون وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة.

ومن أهم تلك الصفات ثلاث : إنكار الوحدانية ، وإنكار نبوة محمد صلي الله عليه وآله وسلم ، وإنكار البعث والحساب.

ثم ذكرت قصة داود وسليمان وأيوب مفصلا ، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل مجملا عليهم السلام .

وانتقل البيان إلى الغاية الكبرى وهي إثبات البعث والحساب ووصف نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

ثم توجهت السورة بقصة بدء الخلق. قصة آدم عليه السلام وسجود الملائكة له إلا إبليس ، وطرده من الجنة ، وصبّ اللعنة عليه إلى يوم القيامة ، وتوعده وأتباعه بملء جهنم منهم.

وختمت السورة ببيان إخلاص النبي صلي الله عليه وآله وسلم في تبليغ رسالته دون طلب أجر ، مما يدل على نبوته ، وأردفه بإعلان كون القرآن رسالة للثقلين : الإنس والجن ، وأن المشركين بعد موتهم يعلمون حقيقة أمره.

مناقشة المشركين في عقائدهم

﴿صلي الله عليه وآله وسلم وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (٦) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (١٠) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (١١)﴾

الإعراب :

﴿صلي الله عليه وآله وسلم﴾ قرئ «صاد» بسكون الدال وفتحها وكسرها بلا تنوين وبتنوين. فمن قرأ بالسكون فعلى الأصل ، لأن الأصل في حروف الهجاء البناء ، والأصل في البناء أن يكون على السكون. ومن قرأ بالفتح جعله اسما للسورة ، كأنه قال : اقرأ صاد. ومن قرأ بالكسر بغير تنوين فهو إما أمر من المصاداة وهي المقابلة ، أي قابل القرآن بعملك ، وإما بإعمال حرف القسم مع حذفه ، مثل : الله لأفعلن ، وفيه ضعف. ومن قرأ بالكسر مع التنوين شبهه بالأصوات التي تنون للفرق بين التعريف والتنكير ، مثل صه وصه.

﴿وَالْقُرْآنِ﴾ مجرور على القسم وجوابه إما ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ وإما ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وإما ﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ﴾ وإما ﴿كَمْ أَهْلَكْنا﴾ وتقديره : لكم أهلكنا ، فحذفت اللام ، كما حذفت في قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ [الشمس ٩١ / ٩] أي لقد أفلح.

﴿وَلاتَ حِينَ مَناصٍ لاتَ﴾ : حرف بمعنى ليس ، وله اسم وخبر ، أي ولات الحين حين مناص. والجملة حال من فاعل نادوا. ومن قرأ ﴿وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾ بالرفع ، أضمر الخبر ، وهو شاذ لا يقاس عليه. وتاء لات لتأنيث الكلمة ، وهي عند البصريين بمنزلة تاء الفعل ، مثل : ضربت وذهبت ، والوقف عليها بالتاء ، وعليه خط المصحف ، وهي عند الكوفيين بمنزلة تاء الاسم ، نحو : ضاربة وذاهبة ، والوقف عليها بالهاء ، والأقيس مذهب البصريين ، لأن الحرف إلى الفعل أقرب منه إلى الاسم.

﴿أَنِ امْشُوا﴾ أن مفسرة ، تقديره : أي امشوا ، وهو من المشاية : كثيرة النتاج ، دعا لهم بكثرة الماشية.

﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ جُنْدٌ﴾ مبتدأ ، و ﴿ما﴾ زائدة ، و ﴿هُنالِكَ﴾ صفة جند ، تقديره : جند كائن هنالك ، و ﴿مَهْزُومٌ﴾ خبر المبتدأ. وقيل : هنالك متعلق بمهزوم ، والأول أوجه.

البلاغة :

﴿كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي أهل قرن ، فهو مجاز مرسل ، والقرن : مائة عام.

﴿وَقالَ الْكافِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير ، والأصل : وقالوا ، لرصد كفرهم.

﴿كَذَّابٌ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَوَّابٌ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾ تأكيد الجملة الخبرية بإنّ واللام لزيادة التعجب والإنكار منهم.

﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ﴾ التنوين في ﴿جُنْدٌ﴾ للتقليل والتحقير ، وزيادة ﴿ما﴾ لتأكيد القلة.

﴿إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ﴾ : توافق الفواصل الذي يزيد الكلام روعة وبهاء وجمالا.

المفردات اللغوية :

﴿صلي الله عليه وآله وسلم﴾ معناه : أن القرآن مركب من هذه الحروف العربية ، وأنتم أيها العرب قادرون على تكوين الجمل والكلام منها ، ولستم قادرين على معارضة القرآن والإتيان بمثله ، فهو للدلالة على

التحدي والتنبيه على الإعجاز. وقيل : إن هذه الفواتح وأمثالها لها معان أخرى [١].

﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ يقسم الله تعالى بالقرآن ، والإقسام بالقرآن : فيه تنبيه على شرف قدره وعلوّ محله. ومعنى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ : البيان ، أو الشرف والشهرة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٤٤]. وجواب القسم في رأي جماعة محذوف تقديره : إنه لكلام معجز ، أو ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ﴾ أي لا ريب فيه قطعا ، بل المشركون من أهل مكة وأمثالهم في تكبر وتجبر عن الإيمان ، واعتزاز بالباطل ، والعزة أيضا : الغلبة والقهر و ﴿شِقاقٍ﴾ أي خلاف وعداوة لله ولرسوله ﴿كَمْ﴾ كثير ﴿أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي قد أهلكنا قبلهم كثيرا من الأمم الماضية الذين كانوا أشد قوة وأكثر أموالا ﴿فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾ أي نادوا حين نزول العذاب بهم أي استغاثوا ، وليس ذلك الوقت وقت خلاص وفرار ومنجى. وهذا وعيد على كفرهم بالقرآن استكبارا وشقاقا.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ تعجبوا من مجيء رسول من أنفسهم ينذرهم ويخوفهم بالعذاب بالنار إن استمروا على الكفر ، وهو النبي صلي الله عليه وآله وسلم ﴿وَقالَ الْكافِرُونَ : هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ قالوا ذلك لما شاهدوا المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً﴾ أصيّرها إلها واحدا؟ حين قال لهم : قولوا : لا إله إلا الله ، أي كيف يكون للخلق كلهم إله واحد؟ ﴿عُجابٌ﴾ عجيب ، بالغ في العجب إلى الغاية ، وإنما تعجبوا ، لأنه كان لكل قبيلة إله.

﴿الْمَلَأُ﴾ الأشراف ، انطلقوا من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب بعد سماعهم قول النبي صلي الله عليه وآله وسلم كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب والعجم ، قالوا : فما هي؟ قال : لا إله إلا الله ﴿أَنِ امْشُوا﴾ يقول بعضهم لبعض : امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه ﴿وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ﴾ اثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ﴾ أي إن هذا الذي يريده محمد صلي الله عليه وآله وسلم بنا وبآلهتنا ، من دعوته إلى التوحيد لشيء من ريب الزمان يراد بنا ، ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا.

﴿الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ هي ملة النصرانية ﴿اخْتِلاقٌ﴾ كذب اختلقه محمد صلي الله عليه وآله وسلم وافتراه ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا؟﴾ أأنزل عليه القرآن ، ونحن الرؤساء والأشراف ، أكبر منه سنا ، وأعظم منه شرفا ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أي من القرآن أو الوحي ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ﴾ أي بل لم يذوقوا عذابي بعد ، فإذا ذاقوه زال شكهم. والمعنى : إنهم لا يصدّقون به حتى يمسهم العذاب ، فيلجئهم إلى تصديقه.

---

(١) انظر تفسير الرازي : ٢٦ / ١٧٤

﴿خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ مفاتيح نعم ربك ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب ﴿الْوَهَّابِ﴾ من النبوة وغيرها ، حتى يعطوها لمن شاؤوا ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ﴾ أي فليصعدوا في المعارج والوسائل التي توصلهم إلى السماء والاستيلاء على العرش ، حتى يحكموا بما يريدون ﴿جُنْدٌ ما﴾ جند حقير من الكفار ﴿هُنالِكَ﴾ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول ، وتكذيب النبي ﴿مَهْزُومٌ ، مِنَ الْأَحْزابِ﴾ صفتان ل ﴿جُنْدٌ﴾ فهم مغلوبون ، متحزبون على الأنبياء قبلك ، فقهروا وهلكوا ، فكذلك نهلك هؤلاء.

سبب النزول :

نزول الآية (٥):

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ ..﴾ : أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب ، فجاءته قريش ، وجاءه النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، فشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ، ما تريد من قومك؟ قال : أريد منهم كلمة ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم العجم الجزية كلمة واحدة ، قال : وما هي؟ قال : لا إله إلا الله ، فقالوا : إلها واحدا؟ إن هذا لشيء عجاب ، فنزل فيهم ﴿صلي الله عليه وآله وسلم وَالْقُرْآنِ ..﴾ إلى قوله : ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ﴾.

التفسير والبيان :

﴿صلي الله عليه وآله وسلم ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ صلي الله عليه وآله وسلم أحد حروف الهجاء العربية ، افتتح بها هذه السورة كغيرها من السور للتحدي والتنبيه على إعجاز القرآن ، وتنبيه المخاطب للإصغاء إلى الكلام الآتي بعده. وأقسم بالقرآن ذي البيان الشامل لكل ما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد من الدين الجامع للعقائد الثابتة الصحيحة ، والشرائع الناظمة للحياة الإنسانية ، والوعد والوعيد ، وهو أيضا ذو الشرف والشهرة والرفعة ، أقسم به إنه لكلام معجز منزل من الله ، وإن محمدا لصادق فيما يدعيه من النبوة ، والرسالة من رب العالمين إلى البشرية جمعاء ، وهو أيضا تذكير كقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠] أي تذكيركم.

وسبب كفر المشركين هو :

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ﴾ أي إن هذا القرآن ذكرى لمن يتذكر ، وعبرة لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون ، لأنهم في استكبار عنه ، وترفع عن اتباع الحق ، ومخالفة لله ولرسوله صلي الله عليه وآله وسلم ومعاندة ومكابرة وحرص على المخالفة.

ثم خوّفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم ، فقال :

﴿كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ، فَنادَوْا ، وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾ أي قد أهلكنا قبلهم كثيرا من الأمم الخالية بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فاستغاثوا وجأروا إلى الله تعالى حين جاءهم العذاب ، فلم يجدهم شيئا ، لأن الوقت ليس وقت خلاص وفرار من العذاب ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ ، لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٢ ـ ١٣] و ﴿يَرْكُضُونَ﴾ يهربون. وقال سبحانه : ﴿حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٦٤].

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقالَ الْكافِرُونَ : هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي تعجب المشركون من بعثة محمد صلي الله عليه وآله وسلم بشيرا ونذيرا ، وبشرا رسولا من أنفسهم ، وقال الكافرون لما رأوا معجزاته الباهرة : هذا ساحر خدّاع كذاب فيما يدعيه من النبوة ، وينسبه إلى الله من الوحي.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قالَ الْكافِرُونَ : إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس ١٠ / ٢].

وفي الآية دلالة على أن المشركين ذوي العزة والشقاق كذبوا الرسول صلي الله عليه وآله وسلم من غير حجة وبرهان ، وحسدا من عند أنفسهم ، وطمعا في أن يكون الرسول صلي الله عليه وآله وسلم

أحد الزعماء والرؤساء ، ولم يجدوا تهمة أرخص من اتهامه بالسحر والكذب ، وذلك دليل الإفلاس.

ثم أورد الله تعالى لهم شبهات ثلاثا في وصف النبي بالكذب : الأولى تتعلق بالألوهية أو التوحيد ، والثانية بالنبوة ، والثالثة بالمعاد ، وهنا ذكر شبهتين ، والثالثة ستأتي في آية ﴿وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾.

١ ـ توحيد الإله : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾ أصيّر الآلهة إلها واحدا ، وقصر الألوهية على الله سبحانه ، إن هذا لشيء بالغ النهاية في العجب. وإنما تعجبوا لأنه كان لكل قبيلة إله ، وكانوا يقولون : إنما نعبدهم ليقربونا زلفى إلى الله ، والله يملكهم ، فأي ضير في هذا؟ وادعوا العجب ممن رفض الآلهة المتعددة ، وقالوا : إن آباءهم على كثرتهم ورجاحة عقولهم لا يعقل أن يكونوا جاهلين مبطلين ، ويكون «محمد صلي الله عليه وآله وسلم» وحده محقّا صادقا. وهذا مجرد تقليد أعمى وإرث منقول دون دليل عقلي ولا نقلي.

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات كما تقدم : ما رواه الترمذي وغيره بلفظ آخر عن ابن عباس ، قال : «مرض أبو طالب ، فجاءت قريش إليه ، وجاء النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ، قال : وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ، ما تريد من قومك؟ فقال : يا عم ، إنما أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم بها الجزية العجم ، فقال : وما هي؟ قال : لا إله إلا الله ، قال : فقالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً﴾؟ فنزل فيهم القرآن ﴿صلي الله عليه وآله وسلم ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾[1].

ورواه بلفظ آخر ابن أبي حاتم وابن جرير عن السدّي.

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح.

وفي رواية : لما أسلم عمر بن الخطاب ﷺ شقّ على قريش إسلامه ، فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا : اقض بيننا وبين ابن أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبي صلي الله عليه وآله وسلم فقال : يا ابن أخي ، هؤلاء قومك يسألونك السواء [١] ، فلا تمل كل الميل على قومك. قال : «وماذا يسألونني؟» قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال النبي صلي الله عليه وآله وسلم : «أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» فقال أبو جهل : لله أبوك! لنعطينكها وعشر أمثالها. فقال النبي صلي الله عليه وآله وسلم : «قولوا : لا إله إلا الله» فنفروا من ذلك وقاموا ، فقالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً﴾؟ فكيف يسع الخلق كلّهم إله واحد؟ فأنزل الله فيهم هذه الآيات ، إلى قوله : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ﴾ أي وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب قائلين : امضوا على ما كنتم فيه ، واثبتوا على عبادة آلهتكم ، واصبروا على ذلك ، إن هذا التحول عن الآلهة لأمر عظيم يريده محمد صلي الله عليه وآله وسلم ، ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا ، فيتحكم فينا بما يريد.

٢ ـ عدم وجود التوحيد في النصرانية : ﴿ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾ ما سمعنا بهذه الدعوة إلى توحيد الإله في الملة الآخرة وهي النصرانية ، وما هذا إلا افتراء وكذب لا حقيقة له ، وليس له مستند من وحي ودين سماوي ، ولا من عقل صحيح فيما يزعمون ، فوجب أن يكون باطلا.

٣ ـ تخصيص النبوة في محمد : ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا؟﴾ استفهام إنكار ، أي كيف ينزل القرآن على محمد دوننا ، ونحن الرؤساء والأشراف؟ فهذا أمر مستبعد ، كما حكي عنهم في آية أخرى : ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣١] فرد الله عليهم قائلا : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ

---

(١) أي العدل.

﴿رَبِّكَ؟ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣٢].

وسبب استبعادهم هذا ، الناشئ عن جهلهم وقلة عقلهم : الشك في أمر القرآن وحسد النبوة :

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ﴾ أي بل الحقيقة أنهم في شك من القرآن أو الوحي ، بل إنما شكوا وتركوا النظر والاستدلال ، لأنهم لم يذوقوا عذابي ، فإذا ذاقوه صدقوا بالقرآن ، وزال عنهم الشك والحسد. و ﴿لَمَّا﴾ بمعنى «لم» وما : زائدة ، مثل : ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٤٠] و ﴿فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ﴾ [النساء ٤ / ١٥٥ أو المائدة ٥ / ١٣].

ثم رد الله تعالى عليهم استبعادهم نبوة محمد صلي الله عليه وآله وسلم وجعلها في صناديدهم قائلا :

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أي بل أهم يملكون مفاتيح نعم ربك القوي الغالب ، المانح الواهب الكثير المواهب ، حتى يعطوا نعمة النبوة لمن يشاءون؟ كما في آية أخرى : ﴿قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ ، وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠٠].

ثم أنكر الله تعالى ما هو أشد ، فقال :

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ﴾ أي بل أهم يملكون السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعوالم ، فإن فرض أنهم يملكون ، فليصعدوا في المعارج التي توصلهم إلى السماء ، حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع ، ويدبروا أمر العالم بما يشتهون.

ثم أجمل الله تعالى وصفهم بالقلة والحقارة فقال :

﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ﴾ أي ما هم إلا جند مغلوبون

هنالك ، أي في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد صلي الله عليه وآله وسلم ، والذي يتحزبون فيه على المؤمنين. وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ : نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ، وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٤ ـ ٤٦]. وهذا وعد من الله بنصر نبيه صلي الله عليه وآله وسلم وأن الغلبة ستكون له.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١ ـ أقسم الله عزّ وجلّ بالقرآن العظيم ذي الشرف والشهرة والمجد على صدق نبوة محمد صلي الله عليه وآله وسلم وأنه رسول من الله إلى الناس كافة.

٢ ـ إن سبب إعراض كفار قريش عن الإيمان برسالة النبي صلي الله عليه وآله وسلم هو التكبر والتجبر والاستعلاء عن اتباع الحق ، ومخالفة الله تعالى ورسوله صلي الله عليه وآله وسلم ومعاداتهما وإظهار مباينتهما.

٣ ـ أنذرهم الله وحذرهم من الإهلاك كما أهلك الأمم الماضية الذين كانوا أمنع منهم وأشد قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فاستغاثوا وتابوا ، ولكن في وقت لا ينفع فيه التوبة ، ولا ينفع العمل.

٤ ـ لقد تعجب كفار قريش بسبب جهلهم أن جاءهم رسول بشر من أنفسهم ، يبشرهم وينذرهم ، فلم يجدوا حجة للإعراض عنه إلا أن قالوا : ساحر كذاب ، أي يجيء بالكلام المموّه الذي يخدع به الناس ، ويكذب في دعوى النبوة.

٥ ـ وبالغوا في التعجب من دعوته إلى التوحيد وتصييره الآلهة إلها واحدا.

٦ ـ لم يجد هؤلاء الكفار سبيلا إلا أن أعلنوا إصرارهم على وثنيتهم ، وقال

الرؤساء للأتباع : امضوا على ما كنتم فيه ، ولا تدخلوا في دين محمد صلي الله عليه وآله وسلم ، واثبتوا على عبادة آلهتكم المخصصة لكل قبيلة ، فإنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا ، فيتحكم فينا بما يريد ، فاحذروا أن تطيعوه.

٧ ـ أيدوا وثنيتهم بآخر الملل وهي النصرانية ، فإن النصارى يجعلون مع الله إلها ، وإن الدعوى إلى توحيد الإله ما هو في زعمهم إلا كذب وافتراء وتخرّص وابتداع على غير مثال.

٨ ـ إن شعورهم بالعزة والاستكبار دفعهم أيضا إلى إنكار اختصاص محمد صلي الله عليه وآله وسلم بإنزال القرآن عليه ونزول الوحي على قلبه ، دونهم ، وهم في رأيهم أحق بذلك ، لأنهم السادة والرؤساء والأشراف.

٩ ـ إن حقيقة أمرهم أنهم شكوا فيما أنزل الله تعالى على رسوله صلي الله عليه وآله وسلم ، هل هو من عنده أم لا؟ وكذلك اغتروا بطول الإمهال ، ولو ذاقوا عذاب الله على الشرك لزال عنهم الشك ، ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ.

١٠ ـ عجيب أمر هؤلاء المشركين ، هل يملكون مفاتيح نعم الله ، فيمنعون محمدا صلي الله عليه وآله وسلم مما أنعم الله عزّوجلّ به عليه من النبوة؟ فالله المالك للنعم يرسل من يشاء ، لأن خزائن السموات والأرض له.

وهل يملكون عالم السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات ، فإن ادّعوا ذلك ، فليصعدوا إلى السموات ، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد صلي الله عليه وآله وسلم.

١١ ـ ما هؤلاء الكفار إلا مجرد جند من الأحزاب مهزومون ، متحزبون في موضع تحزّبهم لقتال محمد صلي الله عليه وآله وسلم ، وذلك الموضع مكة ، وهم في النهاية أذلّة لا حجة لهم ، ولا قدرة لأن يصلوا إلى الاستيلاء على سلطان الله وملكه ، فيتصرفوا في الناس كيف يريدون.

وهذا تأنيس للنبي صلي الله عليه وآله وسلم ، ووعد له بالنصر والغلبة ، ولهم بالهزيمة ، وقد تحقق هذا يوم بدر. قال الرازي : والأصوب عندي حمله على يوم فتح مكة.

إنذار الكفار بحال الأمم المكذبة قبلهم

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (١٤) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (١٥) وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (١٦)﴾

الإعراب :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إنما دخلت التاء في ﴿كَذَّبَتْ﴾ لتأنيث الجماعة ، أي كان تأنيث ﴿قَوْمُ﴾ باعتبار المعنى.

البلاغة :

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ﴾ استعارة مكنية ، شبه الملك بخيمة كسيرة شدّت حبالها بالأوتاد لترسخ في الأرض ، ولا تقتلعها الرياح ، وذكر الأوتاد تخييل.

المفردات اللغوية :

﴿ذُو الْأَوْتادِ﴾ الوتد : هو الذي يدق في الأرض أو الحائط لربط الأشياء به من حبال وغيرها ، والمراد هنا ذو الملك الثابت ، والبناء المحكم ، والحكم الراسخ ﴿الْأَيْكَةِ﴾ الغيضة من الشجر الكثير الملتف ، وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب عليه السلام ﴿إِنْ كُلٌ﴾ أي ما كل أحد من الأحزاب ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي إلا وقع منه تكذيب الرسل ، وجمع الرسل ، لأنهم إذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوا جميعهم ، لأن دعوتهم واحدة ، وهي دعوة التوحيد ﴿فَحَقَّ عِقابِ﴾ وجب عقابي عليهم بتكذيبهم ، وإن تأخر.

﴿وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ﴾ أي ينتظر كفار مكة ﴿صَيْحَةً﴾ هي نفخة القيامة ، تحل بهم العذاب

﴿فَواقٍ﴾ بضم الفاء وفتحها : أي توقف مقدار من الزمن وهو ما بين حلبتي الناقة أو الرضعتين ، حتى يجتمع الحليب في الضرع ، أو الفواق : الرجوع والترداد ، فإن في الفواق يرجع اللبن بعد سويعة إلى الضرع ، أي إذا جاءت الصيحة لا تتوقف مقدار فواق ناقة ، وفي الحديث الذي رواه البيهقي عن أنس ، وهو ضعيف : «العيادة فواق ناقة» ﴿وَقالُوا﴾ كفار مكة استهزاء ﴿قِطَّنا﴾ قسطنا من العذاب الذي توعدنا به ، أو كتاب أعمالنا ، استعجلوا ذلك استهزاء.

المناسبة :

بعد بيان أن المشركين توانوا وتكاسلوا عن النظر والاستدلال ، لأنه لم ينزل بهم العذاب ، بيّن الله تعالى في هذه الآيات أن أقوام سائر الأنبياء كانوا هكذا ، حتى نزل بهم العقاب. والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول صلي الله عليه وآله وسلم في إخباره عن نزول العقاب بهم.

التفسير والبيان :

ذكر الله ستة أصناف من الكفار الذين كذبوا الرسل في الأمم الغابرة وهم :

١ ـ ٣ : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ﴾ أي كذبت الرسل قبل قريش قوم نوح ، وقبيلة عاد ، وفرعون ذو الحكم الراسخ وقومه.

أما قوم نوح عليه السلام فكذبوه وآذوه وهزئوا به ، وقالوا عنه : إنه مجنون ، فأهلكهم الله بالغرق والطوفان ، ونجّى الله نوحا ومن آمن به ، كما قال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنا ، وَقالُوا : مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً ، فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾ [القمر ٥٤ / ٩ ـ ١٤].

وأما عاد قوم هود عليه السلام فكذبوه أيضا ، فأهلكهم الله بالريح ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ ، سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ

أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى ، كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٦ ـ].

وأما فرعون الطاغية الجبار ذو الحكم الثابت الراسخ القوي ، فأرسل الله تعالى إليه موسى عليه السلام بآيات أو معجزات تسع ومعه أخوه هارون ، فكذب وعصى ، فأهلكه الله بالغرق ، ونجى موسى وقومه المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى ، إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ، اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى ، فَقُلْ : هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى ، فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى ، فَكَذَّبَ وَعَصى ، ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى ، فَحَشَرَ فَنادى ، فَقالَ : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى ، فَأَخَذَهُ اللهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى﴾ [النازعات ٧٩ / ١٥ ـ ٢٦]. وقال سبحانه : ﴿وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ ، فَأَنْجَيْناكُمْ ، وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٥٠].

٤ ـ ٦ : ﴿وَثَمُودُ ، وَقَوْمُ لُوطٍ ، وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ ، أُولئِكَ الْأَحْزابُ﴾ أي كذبت قبيلة ثمود قوم صالح ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة ، أي الغيضة ، أولئك الأحزاب ، أي هم الموصوفون بالقوة والكثرة ، كمن تحزّب عليك أيها النبي.

أما ثمود قوم صالح عليه السلام فكذبوه ، وعقروا الناقة المعجزة ، فأهلكهم الله بالصيحة ، أو بالطاغية ، فصاروا كهشيم المحتظر ، كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٥] وقال سبحانه : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ، فَقالُوا : أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ ، إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى أن قال : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر ٥٤ / ٢٣ ـ ٣١].

وأما قوم لوط عليه السلام فكذبوه أيضا فأهلكوا بالخسف أو الزلزلة ، كما قال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ، إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر ٥٤ / ٣٣ ـ ٣٤].

وأما أصحاب الأيكة (أي الشجر الكثير الملتف بعضه على بعض) فهم قوم شعيب عليه السلام ، كذبوه ، فأهلكوا بعذاب يوم الظلّة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ ، فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ ، وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر ١٥ / ٧٨ ـ ٧٩]. وقال سبحانه : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٨٩].

وسبب إهلاكهم تكذيبهم الرسل ، كما قال تعالى :

﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ، فَحَقَّ عِقابِ﴾ أي ما كل أحد من هؤلاء الأقوام الغابرة إلا كذب الرسل ، فوجب عقاب الله لهم ، جزاء وفاقا. وهذا يعني أن علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر ، وهذا مفاد الآية التالية :

﴿وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ﴾ أي ما ينتظر كفار قريش إلا عقابا بنفخة الساعة التي هي النفخة الثانية وهي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرافيل أن يطولها ، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عزوجل . وما لها من فواق : أي ما لها من انتظار وراحة وإفاقة.

وتحدث تلك النفخة بلا توقف مقدار فواق الناقة : وهو الزمن الذي بين الحلبتين.

والمعنى : ليس بينهم وبين حلول ما أعد الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية ، وإذا حل هذا الموعد فلا تأخر عنه أبدا ، كما قال تعالى : ﴿ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ، فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٤٩ ـ ٥٠] وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت.

ثم ذكر تعالى الشبهة الثالثة للكفار في تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي المتعلقة بالمعاد [١] ، فقال:

---

(١) والشبهتان الأولى والثانية في الآيات المتقدمة : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ .. (٥ ـ ٨).

﴿وَقالُوا : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾ أي وقال المشركون تهكما واستهزاء حين سمعوا بالمعاد والحساب والعقاب : ربنا عجّل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به ، ولا تؤخره إلى يوم القيامة. وهذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ، كما قالوا : ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢].

وقائل ذلك : النضر بن الحارث الذي قال الله فيه ﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ﴾ [المعارج ٧٠ / ١] أو أبو جهل ، ورضي الآخرون بقوله.

ثم أمر الله رسوله بالصبر على أذى المشركين وعلى سفاهتهم قائلا : ﴿اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى قومك المشركين ، فإنهم في النهاية مقهورون أذلاء ، ونبشرك على صبرك بالظفر والنصر والعاقبة الحميدة.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات عظة بليغة وعبرة مؤثرة يتأثر بها ذوو الإحساس الإنساني السليم الذي يتخلى صاحبه عن الكبر والاستعلاء. وما أعظمها عبرة وشاهدا محسوسا لكفار مكة.

إن أمامهم آثار الدمار والخراب والهلاك ، أو إنهم يسمعون ما حدث للأمم التي كذّبت رسلها ، وما جرى على المثيل يجري على مثيله. فإن الله القوي القاهر أغرق قوم نوح بالطوفان ، وأهلك فرعون وجنوده بالإغراق في البحر ، وقوم هود بالريح الصرصر العاتية ، وقوم صالح بالصيحة أو بالطاغية (وهي الصيحة المجاوزة للحدّ في الشدة) وقوم لوط بالخسف أو الزلزلة ، وأصحاب الأيكة بعذاب الظلة.

وما ينتظر كفار مكة إلا صيحة القيامة ليزجّ بهم في عذاب النار التي إذا جاءت لا تؤخر أبدا ، أو لا تستأخر لحظة واحدة : ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٦١].

ولكن اغتر الكفار بطول المهلة ، ولما سمعوا أن الله منع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا ، إكراما للنبيّ صلي الله عليه وآله وسلم : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٣] وجعل عذابهم في الآخرة ، قالوا سخرية واستهزاء : ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل يوم القيامة والحساب إن كان الأمر كما يقول محمد صلي الله عليه وآله وسلم. وهذا غاية الجهل والسفاهة والحمق.

ثم أمر الله نبيه صلي الله عليه وآله وسلم بالصبر على أذاهم وسفاهتهم لما استهزءوا به ، فما بعد الصبر إلا الفرج ، وسيكون النصر والظفر قريبا.

قصة داود عليه‌السلام

﴿اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (٢٠) وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (٢٢) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (٢٣) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ

وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (٢٤) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (٢٦)﴾

الإعراب :

﴿**إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ إِذْ دَخَلُوا .. إِذْ**﴾ الأولى تتعلق ب ﴿**نَبَأُ**﴾ و ﴿**تَسَوَّرُوا**﴾ بلفظ الجمع ، لأن الخصم مصدر يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، فجمع حملا على المعنى. و ﴿**إِذْ**﴾ الثانية : بدل من الأولى. و ﴿**خَصْمانِ**﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره : نحن خصمان ، فحذف المبتدأ.

﴿**وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ**﴾ عزّني بالتشديد على الأصل من عزّه : إذا غلبه ، وقرئ بالتخفيف على أنه مخفف من المشدد ، كما يقال في «ربّ : رب». والخطاب : مصدر خاطب أو مصدر خطب ، نحو الأول : ضارب ضرابا ، ونحو الثاني كتب كتابا.

﴿**بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ**﴾ تقديره : بسؤاله إياك نعجتك ، فحذف الهاء التي هي فاعل في المعنى ، والمفعول الأول ، وأضاف المصدر إلى المفعول الثاني ﴿**الْخُلَطاءِ**﴾ جمع خليط بوزن فعيل صفة فيجمع على فعلاء إلا إن كان فيه واو فيجمع على فعاة ، نحو طويل وطوال.

﴿**وَقَلِيلٌ ما هُمْ بَعْضُهُمْ**﴾ : مبتدأ ، و ﴿**قَلِيلٌ**﴾ : خبره ، و ﴿**ما**﴾ زائدة ، ﴿**وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ**﴾ أي تيقن ، وقرئ ﴿**فَتَنَّاهُ**﴾ بالتخفيف ، أراد به فتنة الملكين. ﴿**فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ ذلِكَ**﴾ منصوب ب غفرنا ، ويصح جعله خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك.

البلاغة :

﴿**يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ**﴾ بينهما طباق ، لأن المراد بهما المساء والصباح.

﴿**وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ**﴾ ورد بأسلوب التشويق.

﴿**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ..**﴾ ورد بأسلوب الإطناب.

المفردات اللغوية :

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ﴾ واذكر لهم قصته تعظيما للمعصية في أعينهم ، فإنه مع علوّ شأنه ، واختصاصه بعظائم النعم والمكرمات ، لما توهم أو ظن أنه أتى صغيرة استغفر ربه وأناب ، فما الظن بالكفرة وأهل الطغيان؟ ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ القوة والجلد في العبادة ، كان يصوم يوما ، ويفطر يوما ، ويصوم نصف الليل ، وينام ثلثه ، ويقوم سدسه ﴿أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى الله وإلى طاعته ومرضاته.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ﴾ بالمساء والصباح ، وأصل العشي : وقت العشاء ، و ﴿الْإِشْراقِ﴾ وقت شروق الشمس ووضوح ضوئها ﴿مَحْشُورَةً﴾ مجموعة إليه من كل جانب ، تسبح معه ﴿كُلٌّ لَهُ﴾ من الجبال والطير لأجل تسبيحه ﴿أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى التسبيح منقاد يسبح تبعا له ﴿وَشَدَدْنا مُلْكَهُ﴾ قويناه حتى ثبت ، وآزرناه بالهيبة والنصر ، وبالحرس والجنود ﴿الْحِكْمَةَ﴾ النبوة وكمال العلم وإصابة الصواب في القول والعمل ﴿وَفَصْلَ الْخِطابِ﴾ البيان الشافي ، والكلام الفاصل بين الحق والباطل.

﴿وَهَلْ أَتاكَ﴾ أيها الرسول أي خبرهم وقصتهم ، ويراد بالاستفهام هنا التعجب والتشويق إلى استماع ما بعده ﴿الْخَصْمِ﴾ جماعة الخصوم ، ويطلق الخصم على المفرد والجمع ، مذكرا ومؤنثا ﴿تَسَوَّرُوا﴾ أتوه من أعلى السور ، ودخلوا إلى المنزل والمسجد الذي يصلي فيه ، حيث منعوا الدخول عليه من الباب ، لشغله بالعبادة ﴿فَفَزِعَ﴾ خاف ﴿خَصْمانِ﴾ نحن فوجان متخاصمان ، والمشهور أنهما ملكان ، والأقرب أنهما بشران عاديان صاحبا نعاج أي مواشي ، والخصومة حقيقية ﴿بَغى﴾ جار وظلم ﴿وَلا تُشْطِطْ﴾ لا تجر في الحكم ولا تبعد عن الحق ﴿وَاهْدِنا﴾ أرشدنا ﴿سَواءِ الصِّراطِ﴾ وسط الطريق الصواب.

﴿إِنَّ هذا أَخِي﴾ أي على ديني ﴿نَعْجَةً﴾ أنثى الضأن ﴿أَكْفِلْنِيها﴾ اجعلني كافلها وملكنيها ﴿وَعَزَّنِي﴾ غلبني ﴿فِي الْخِطابِ﴾ في الجدال والمخاطبة والمحاجة ﴿بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ﴾ سؤاله نعجتك ليضمها إليه ﴿الْخُلَطاءِ﴾ الشركاء ، والمعارف أو الأعوان الذين بينهم خلطة وامتزاج ، جمع خليط ﴿وَقَلِيلٌ ما هُمْ ما﴾ زائدة لتأكيد القلة ﴿وَظَنَ﴾ من الظن وهو رجحان تصور الشيء ، أو بمعنى تيقن وعلم ﴿فَتَنَّاهُ﴾ ابتليناه أو امتحناه بتلك الحكومة ، واختبرناه بهذه الحادثة ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ للظن السيء بالرجلين أنهما أتياه لقتله وهو منفرد في محرابه ﴿وَخَرَّ راكِعاً﴾ ساجدا ﴿وَأَنابَ﴾ تاب ورجع إلى الله وطاعته.

﴿فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ﴾ أي عفونا عنه ذلك الظن السيء بالرجلين ، وهذا من قبيل «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين». ﴿لَزُلْفى﴾ قرب من الله ﴿مَآبٍ﴾ مرجع في الآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ استخلفناك على الملك فيها لتدبير أمور الناس ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى﴾ هوى النفس ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ عن الدلائل الدالة على الحق ﴿بِما نَسُوا﴾ بنسيانهم ﴿يَوْمَ الْحِسابِ﴾ المرتب لهم ، لضلالهم عن السبيل الحق ، فإن تذكر يوم الحساب يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى.

المناسبة :

بعد إنذار قريش بحال الكفار الغابرين ، وبعد أمر النبي صلي الله عليه وآله وسلم بالصبر على أذى قريش وسفاهتهم ، أمره الله تعالى بتذكر حال تسعة من الأنبياء ، حال ثلاثة منهم تفصيلا ، وحال ستة آخرين منهم إجمالا ، ليتأسى بما لاقوا من أذى قومهم ، محتسبين أجرهم عند الله تعالى.

وبدأ بذكر قصة داود عليه السلام ، ليتذكر حال ذلك النبي الشاكر الصابر ، ذي القوة في الدين والبدن معا.

ويجب أن تفهم هذه القصة ـ قصة المحاكمة ـ على النحو الظاهري المبين في القرآن الكريم ، وأن تستبعد الإسرائيليات منها ، لمناقضتها مبدأ عصمة الأنبياء ، فقد روي في الإسرائيليات أن داود عليه السلام وقع بصره على امرأة تستحم ، فأعجبته وعشقها ، وكانت زوجة أحد قواده واسمه «أوريا الحثي» فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها ، فأرسله في إحدى المعارك وحمّله الراية ، وأمره بالتقدم فانتصر ، فأرسله مرارا ليتخلص منه حتى قتل ، فتزوجها.

قال البيضاوي : هذا هزء وافتراء ، ولذلك قال علي رضي الله عنه : «من حدّث بحديث داود على ما يرويه القصاص ، جلدته مائة وستين». وهو حد الفرية على الأنبياء ، أي مضاعفا[1].

وأبطل الإمام الرازي هذه الحكاية المفتراة بوجوه ثلاثة ملخصها :

---

(١) تفسير البيضاوي : ٦٠٢

الأول : أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورا لاستنكف منها.

الثاني ـ أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين : السعي في قتل رجل مسلم بغير حق ، وإلى الطمع في زوجته ، وكلاهما منكر.

الثالث ـ أن الله تعالى وصف داود عليه‌السلام قبل ذكر هذه القصة بصفات عشر ، ثم وصفه أيضا بصفات كثيرة بعد هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه‌السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح [١].

والرواية الصحيحة لهذه القصة : أن داود عليه‌السلام كان يقسم وقته الأسبوعي أثلاثا : ثلث لشؤون الملك ، وثلث للقضاء بين الناس ، وثلث آخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور في المحراب [٢] ، فتجاوز خصمان هذا النظام ، وتسورا عليه المحراب من فوق الجدار طلبا للمحاكمة في غير موعدها ، ففزع منهما ، وظن أنهما جاءا لاغتياله ، وهو منفرد في محرابه لعبادة ربه ، والخصمان بشران لا ملكان ، والنعاج : المواشي ، لا النساء. إلا أنه بادر إلى الحكم والقضاء قبل سماع بينة الخصم الآخر ، فعاتبه الله على ذلك ، ونبهه إلى وجوب تثبت القاضي وسماع الخصم الآخر ، قبل إصدار الحكم. وسأبين أن هذا أيضا محل نظر ، فإنه لا يعقل أن يحكم داود عليه‌السلام قبل سماع قول الخصم الآخر ، فهذا من مبادئ الحكم الأولية التي لا تترك.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦ / ١٨٩

(٢) وقال ابن عباس : جزّأ أزمانه أربعة أجزاء : يوما للعبادة ، ويوما للقضاء ، ويوما للاشتغال بخواص أموره ، ويوما لجميع بني إسرائيل ، فيعظهم ويبكيّهم ، فجاءوه في غير القضاء ، ففزع منهم ، لأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله ، لا يتركون من يدخل عليه ، فخاف أن يؤذوه. (البحر المحيط : ٧ / ٣٩١).

التفسير والبيان :

تضمنت قصة داود عليه السلام في هذه السورة ثلاثة موضوعات :

الأول ـ تعداد الصفات التي أنعم الله بها على داود والتي أهّلته لسعادة الدنيا والآخرة.

الثاني ـ إصدار الحكم في واقعة بين خصمين.

الثالث ـ استخلاف الله تعالى إياه بعد تلك الواقعة.

الموضوع الأول ـ صفات داود عليه السلام

ذكر الله تعالى عشر صفات لداود عليه السلام آتاه الله إياها ، وهي تحقق كمال السعادة الدنيوية والأخروية.

١ ـ ٤ : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ، ذَا الْأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ هذا معطوف على مطلع الآية المذكور في نهاية المقطع السابق وهو ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ﴾ والمعنى : اذكر أيها الرسول لقومك قصة عبدنا داود ذي القوة في العلم والعمل وطاعة الله ، قال قتادة : أعطي داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام قوة في العبادة ، وفقها في الإسلام ، وكان يقوم ثلث الليل ، ويصوم نصف النهار ، ثبت في الصحيحين أن النبي صلي الله عليه وآله وسلم قال : «أحبّ الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عزّ وجلّ صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ، ويفطر يوما ، ولا يفرّ إذا لاقى ، وإنه كان أوّابا». أي رجّاعا إلى الله عزّ وجلّ في جميع أموره وشؤونه. وفي تاريخ البخاري عن أبي داود قال : «كان النبي صلي الله عليه وآله وسلم إذا ذكر داود وحدث عنه قال : كان أعبد البشر».

والصفات الأربع المذكورة هنا هي :

١ ـ الصبر : فقد أمر الله تعالى محمدا صلي الله عليه وآله وسلم على جلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله.

٢ ـ والعبودية : فقد وصفه ربه بقوله ﴿عَبْدَنا داوُدَ﴾ وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم ، والوصف بالعبودية لله غاية التشريف ، كوصف محمد صلي الله عليه وآله وسلم بها ليلة المعراج : ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء ١٧ / ١]. فإن وصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسب الاجتهاد في الطاعة.

٣ ـ والقوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي ، في قوله تعالى : ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾.

٤ ـ والرجاع إلى طاعة الله في أموره كلها ، في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

٥ ـ ٦ : تسبيح الجبال والطير معه : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ﴾ أي إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٠] قال ابن كثير : وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجّع بترجيعه ، إذا مرّ به الطير ، وهو سابح في الهواء ، فسمعه ، وهو يترنم بقراءة الزبور ، لا يستطيع الذهاب ، بل يقف في الهواء ، ويسبح معه ، وتجيبه الجبال الشامخات ، ترجّع معه ، وتسبّح تبعا له [1]. وهذا ما قاله تعالى :

٧ ـ ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي وسخرنا له الطير ، حال كونها محبوسة في الهواء ، تسبح بتسبيحه ، وكل من الجبال والطير مطيع ، يسبح تبعا له ، فكلما سبح داود جاوبته. وهذا يومئ أن داود عليه السلام كان حسن الترتيل ، جميل الصوت.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٢٩

٨ ـ قوة الملك : ﴿وَشَدَدْنا مُلْكَهُ﴾ أي قوينا ملكه بالجند أو الحرس ، وجعلنا له ملكا كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

٩ ـ إيتاء الحكمة : ﴿وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ﴾ أعطيناه الفهم والعقل والفطنة ، والعلم ، والعدل ، وإتقان العمل ، والحكم بالصواب. ولما كمّل الله تعالى نفس نبيه داود بالحكمة ، أردفه ببيان كمال خلقه في النطق والعبادة ، فقال : ﴿وَفَصْلَ الْخِطابِ﴾.

١٠ ـ حسن الفصل في الخصومات : ﴿وَفَصْلَ الْخِطابِ﴾ أي وألهمناه حسن الفصل في القضاء بإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإيجاز البيان ، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل.

الموضوع الثاني ـ القضاء في خصومة

﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ، قالُوا : لا تَخَفْ ، خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ ، وَلا تُشْطِطْ ، وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ﴾ هذا نبأ عجيب يشوق السامع سماعه ومعرفته ، لذا ذكره الله لرسوله ، ومعناه: هل علمت ذلك الخبر المهم العجيب؟ وبدأه بهذا الاستفهام ، ليكون مدعاة إلى الإصغاء له والاعتبار به.

إنه نبأ جماعة من الخصوم تسلقوا سور غرفة داود المخصصة للصلاة ، فدخلوا عليه وهو منهمك بالصلاة وعبادة الله وترانيم الزبور ، في غير موعد المحاكمة المخصص للناس ، فخاف منهم ظنا منه أنهم جاؤوا لاغتياله ، وهو منفرد في محرابه للعبادة ، في أشرف مكان في داره ـ وقد كان اغتيال الأنبياء معروفا في بني إسرائيل ، فقد قتلوا إشعيا وزكريا ، كما قال تعالى : ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍ﴾ [آل عمران ٣ / ٢١] فقالوا له : لا تخف ، نحن متخاصمان جار بعضنا على

بعض ، فاحكم بيننا حكما عادلا ، ولا تجر في الحكم ، واهدنا إلى الطريق الحق العدل.

وموضوع الخصومة هو :

﴿إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ ، فَقالَ : أَكْفِلْنِيها ، وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ﴾ أي إن هذا أخ لي في الدين والإنسانية ، يملك تسعا وتسعين شاة ، وأملك شاة واحدة ، فقال : ملكنيها وغلبني في المخاصمة والجدال والحجة ، فأتى بحجج لم أستطع ردها. والنعجة : هي الأنثى من الضأن ، وقد يقال لبقر الوحش : نعجة.

فحكم داود عليه‌السلام بقوله :

﴿قالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ﴾ أي قال داود الحاكم بعد إقرار المدعى عليه بالدعوى : لقد ظلمك بهذا الطلب ، وطمع عليك.

ويقال : إن خطيئة داود هي قوله : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت ، فربما كان صاحب النعجة الواحدة هو الظالم.

﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾ أي وإن كثيرا من الشركاء في المال أو المعارف والأعوان المتعاملين ليظلم بعضهم بعضا ، إلا من آمن بالله وخاف ربه وعمل صالح الأعمال ، فإنه لا يظلم ، وهؤلاء الصالحون قلة ، كما قال تعالى : ﴿وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٠٢].

﴿وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ، وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ﴾ أي وعلم داود وأيقن أنما اختبرناه بهذه الواقعة ، وهي تعرضه للاغتيال ثم نجاته منه ، فاستغفر ربه لذنبه وهو سوء ظنه بالخصمين ، وأنهما أتيا لاغتياله ، وهو الأصح ، أو أنه حكم

بين الخصمين في النعاج قبل أن يسمع بيّنه الخصم الآخر ، وكان الحق له ، وخر ساجدا . وعبر بالركوع عن السجود . ورجع إلى الله بالتوبة من ذنبه.

﴿فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي فغفرنا له سوء ظنه أو ما كان منه مما يقال فيه : إن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ، وإن له عند ربه لقربا وحسن مرجع ، وهو الجنة.

والظاهر أن الذنب : هو همّ داود الانتقام من هذين الشخصين اللذين كانا يقصدان اغتياله ، فاصطنعا هذه الخصومة ، لأنهما رأيا أن الحرس سيقتلونهما ولن يفلتا من العقاب ، ثم رأى داود أن العفو والصفح أقرب لمقام النبوة ، فاستغفر ربه مما كان قد عزم عليه من الانتقام.

الموضوع الثالث . الاستخلاف في الأرض

﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ يخاطب الله تعالى داود عليه السلام بأنه استخلفه حاكما بين الناس في الأرض ، فله السلطة والحكم ، وعليهم السمع والطاعة. ثم بيّن الله تعالى له قواعد الحكم تعليما لغيره من الناس :

١ . ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ﴾ أي فاقض بين الناس بالعدل الذي قامت به السموات والأرض. وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

٢ . ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى﴾ أي لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا ، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار ، لذا قال :

﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال والانحراف عن جادة الحق ، وما عاقبته إلا الخذلان ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾ أي إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل ، لهم عقاب شديد يوم القيامة

والحساب الأخروي ، بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم ، وما فيه من حساب دقيق لكل إنسان ، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم ، ومنه القضاء بالعدل.

والعبرة من هذا الموضوع : الوصية من الله عَزَّوَجَلَّ لولاه الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق ، ولا يحيدوا عنه ، فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد الله تعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والحساب الشديد.

روى ابن أبي حاتم أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد : أخبرني ، أيحاسب الخليفة؟ فإنك قد قرأت القرآن وفقهت! فقال : يا أمير المؤمنين أقول؟ قال : قل في أمان الله ، قال : يا أمير المؤمنين : أنت أكرم على الله أو داود عليه‌السلام؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة ، ثم توعده في كتابه ، فقال : ﴿**يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى ، فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ..**﴾ الآية [١].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ وصف الله تعالى داود عليه‌السلام بعشر صفات : هي كما تقدم الصبر ، والعبودية لله ، والقوة في الدين ، وكونه أوابا كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وتسبيح الجبال ، والطير مع تسبيحه وترنيمه ، وإتيان الطير طائعة له ، وتشديد ملكه في الدين والدنيا ، وإيتاؤه الحكمة (الفهم والعقل والفطنة والحكم بالصواب) وحسن الفصل في الخصومات.

٢ ـ بمناسبة تسبيح الجبال معه بالعشي والإشراق ، أي في المساء والصباح ، ذكر القرطبي أن صلاة الضحى نافلة مستحبة ، جاء في صحيح مسلم عن أبي ذرّ

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٣٢

عن النبي صلي الله عليه وآله وسلم أنه قال : «يصبح على كل سلامي [١] من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى». وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «من حافظ على شفعة الضحى ، غفر له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر». وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وصلاة الضحى ، ونوم على وتر».

وأقل الضحى كما في هذه الأحاديث وغيرها ركعتان ، وأكثره ثنتا عشرة ركعة.

٣ ـ ذكر الله تعالى لداود بعد قصة المحاكمة عشر صفات منها سؤال المغفرة من ربه فغفر له ، ومنها السجود شكرا لله والإنابة ، ومنها : ﴿**وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ**﴾ ومنها ﴿**يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**﴾. قال مجاهد عن عبد الله بن عمر : الزلفى : الدنو من الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة.

٤ ـ ليس الحاكم ملزما كل يوم بالاستعداد لفصل القضاء في الخصومات بين الناس ، وإنما له تخصيص أيام في الأسبوع لتلك المهمة الخطيرة.

٥ ـ الفزع ظاهرة إنسانية في المفاجآت ، وقد فزع النبي داود عليه‌السلام من الرجلين اللذين أتياه ليلا في غير وقت دخول الخصوم ، أو لدخولهم عليه بغير إذنه ، أو لأنهم تسوروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب. وقد شاع بين بني إسرائيل قتل الأنبياء وإيذاؤهم.

---

(١) أصل السلامى : عظام الأصابع والأكفّ والأرجل ، ثم استعمل هنا في سائر عظام الجسد ومفاصله ، وهي كما في حديث آخر ثلاث مائة وستون مفصلا.

٦ ـ إن القصة التي يرويها بعض المفسرين بما يتعارض مع مبدأ «عصمة الأنبياء» لا أصل لها ، ولا مستند عليها ، وإنما هي من الإسرائيليات الدخيلة.

٧ ـ لم يكن خطأ داود عليه‌السلام في أنه قضى لأحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر ، فهذا من أصول الحكم التي لا يمكن تجاوزها ، قال ابن العربي : وهذا مما لا يجوز عند أحد ، ولا في ملة من الملل ، ولا يمكن ذلك للبشر ، وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين ادّعى ، والآخر سلم في الدعوى ، فوقعت بعد ذلك الفتوى [١]. وقد قال النبي صلي الله عليه وآله وسلم لعلي رضي‌الله‌عنه فيما أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما : «إذا جلس إليك الخصمان ، فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر».

٨ ـ أجمع العلماء على أن الأنبياء معصومون عن الكبائر ، وفي الصغائر اختلاف ، الأصح كما قرر ابن العربي وغيره أنهم معصومون عن الصغائر والكبائر.

٩ ـ استدل العلماء على مشروعية الشركة بأدلة ، منها : ما ورد على لسان داود عليه‌السلام : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ أي الشركاء في المال كما تقدم.

١٠ ـ الصلحاء في كل زمان قليلون ، لقوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾ يعني الصالحين. سمع عمر رضي‌الله‌عنه رجلا يقول في دعائه : اللهم اجعلني من عبادك القليل ، فقال له عمر : ما هذا الدعاء؟ فقال : أردت قول الله عزوجل : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾ فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر.

١١ ـ اختلف العلماء في سجدة داود ، هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أو لا؟ أي هل هي سجدة تلاوة؟

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٤ / ١٦٢٥

فقال المالكية والحنفية : ليست موضع سجود ، لما في البخاري وغيره عن ابن عباس أنه قال : «صلي الله عليه وآله وسلم ، ليست من عزائم القرآن ، وقد رأيت النبي صلي الله عليه وآله وسلم يسجد فيها». وأنكر المالكية أيضا سجدة الشكر.

وقال الشافعية والحنابلة : إنها ليست من عزائم السجود ، بل هي سجدة شكر ، استدلالا بفعل النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، كما نص الحديث المتقدم ، وروى النسائي أن النبي صلي الله عليه وآله وسلم قال : «سجدها داود توبة ، ونحن نسجدها شكرا».

١٢ ـ ليس في استغفار داود ما يشعر بارتكاب ذنب أو أمر يستغفر منه ، وما زال الاستغفار شعار الأنبياء المشهود لهم بالعصمة.

١٣ ـ الأصل في مشروعية الأقضية أو التقاضي قوله تعالى : ﴿**يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ**﴾ وقوله : ﴿**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ**﴾ [المائدة ٥ / ٤٩] وقوله تعالى : ﴿**لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ**﴾ [النساء ٤ / ١٠٥] وقوله تعالى : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ**﴾ [النساء ٤ / ١٣٥].

١٤ ـ إن قاعدة الحكم الأساسية الحكم بالعدل والحق : ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ**﴾ ومن قواعده : أن القاضي لا يحكم في الوقائع إلا بالدعوى ورفع الأمر إليه ، فيجب الحكم بالحق ، وألا يميل القاضي إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع ، أو سبب يقتضي الميل من صحبة أو صداقة أو غيرهما.

١٥ ـ هذه الآية : ﴿**يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ..**﴾ تمنع الحاكم من القضاء بعلمه الشخصي في الحوادث ، لأن الحكام لو مكّنوا أن يحكموا بعلمهم ، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّه (صديقه) ويهلك عدوه إلا ادعى علمه فيما حكم به. وبذلك يمنع من هذا القضاء للتهمة ، قال أبو بكر رضي الله عنه : لو رأيت رجلا على حدّ من حدود الله ، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري.

وروي أن امرأة جاءت إلى عمر ، فقالت له : احكم لي على فلان بكذا ، فإنك تعلم ما لي عنده ، فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم ، وأما الحكم فلا.

وأخرج أبو داود وغيره عن النبي صلي الله عليه وآله وسلم أنه اشترى فرسا فجحده البائع ، فلم يحكم بعلمه ، وقال : «من يشهد لي؟» فقام خزيمة فشهد فحكم. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس : أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قضى بيمين وشاهد.

إثبات البعث والثواب والعقاب وبيان فضل القرآن

﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (٢٩)﴾

الإعراب :

﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا كتاب.

البلاغة :

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ الآية : مقابلة بين المؤمنين والمفسدين ، وبين المتقين والفجار ، وهذا من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية :

﴿باطِلاً﴾ عبثا ولعبا ﴿ذلِكَ﴾ أي خلق السماء والأرض باطلا ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مظنون كفار مكة ﴿فَوَيْلٌ﴾ هلاك وعذاب شديد ، أو هو واد في جهنم ﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار ، أي إنكار التسوية بين الفريقين ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ نزل لما قال كفار مكة للمؤمنين : إنا

نعطى في الآخرة مثلما تعطون. والآية تدل على صحة القول بالحشر والمعاد ، والفجار : الأشقياء ﴿مُبارَكٌ﴾ كثير الخير والبركات والمنافع الدنيوية والأخروية ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ ليتدبروا أي ليتفكروا وينظروا في معاني الآيات ، فيؤمنوا ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ يتعظ ﴿أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أصحاب العقول ، جمع لب : وهو العقل.

المناسبة :

بعد تهديد الضالين عن سبيل الله بالعذاب الشديد يوم الحساب في القيامة ، أخبر تعالى بأن هذا اليوم آت لا ريب فيه ، لأنه خلق الخلق لهدف معين ، ثم يحاسبهم في نهاية الأمر ، ثم بيّن عدم المساواة في الحساب بين المؤمنين والكفار وبين المتقين والفجار ، ثم أخبر عن فضل القرآن العظيم ، وأنه كثير المنافع الدينية والدنيوية.

التفسير والبيان :

﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾ أي ما أوجدنا السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثا لا حكمة فيه ، أو لهوا ولعبا ، بل خلقناهما للدلالة على قدرتنا العظيمة ، وليعمل فيهما بطاعتنا وعبادتنا وتوحيدنا ، كما قال تعالى : ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥١ / ٥٦].

﴿ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي إن الذين كفروا يظنون أن هذه الأشياء خلقت عبثا لغير غرض ، فلا قيامة ولا حساب ، فيا هلاك هؤلاء الكافرين في النار يوم المعاد والنشور ، جزاء ما قدموا من الشرك والمعصية ، وكفران نعم الله ، وإنكار البعث ، وظنهم الباطل. ونظير القسم الأول من الآية قوله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١١٥].

ونظير القسم الثاني قوله سبحانه : ﴿وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٢] وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم ١٩ / ٣٧].

ثم أبان الله تعالى منهج الحساب أو عدم التسوية بين المؤمنين والكافرين ، فقال : ﴿أَمْ[1] نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي بل أنجعل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله ، وعملوا بفرائضه ، وأصلحوا أعمالهم ، فأدّوا ما يجب للخالق والمخلوق ، كالمفسدين في الأرض بالمعاصي ، أم نجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين والمنافقين والمنهمكين في معاصي الله من المسلمين؟!! فليس ذلك إن فعلناه عدلا ، ولا يتفق مع الحكمة ، ومقتضى أي نظام.

أي ليس من عدل الله وحكمته التسوية بين المؤمنين والكافرين ، فلا يستوي الفريقان عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بدّ من دار أخرى يثاب فيها المطيع ، ويعاقب فيها الفاجر ، إذ لو لا البعث والحساب والجزاء لكان الفريقان سواء.

ويؤيد هذا المبدأ العقول السليمة والفطر المستقيمة أنه لا بد من معاد وجزاء ، فلا يعقل أن يكون جزاء المحسن كجزاء المسي ، ولا تتقبل النفس الإنسانية أن يترك الظالم دون عقاب ، وألا ينصف المظلوم أو المحزون أو المعدم من الظالم الباغي المترف ، وألا يعوض عن كمده وحرمانه في الدنيا.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟!﴾ [القلم ٦٨ / ٣٤ ـ ٣٦].

---

(١) هذه أَمْ المنقطعة التي هي بمعنى «بل» للإضراب الانتقالي ، ويراد بالهمزة الاستفهامية : الإنكار.

وإذا ثبت قرآنا ودينا وعقلا وفطرة أن هنالك فرقا واضحا بين المؤمن وغيره ، وأن للمؤمن حياة سعيدة دائمة في الجنان ، وأن للكافر عذابا أليما في النيران ، فما الطريق إلى السعادة؟ الطريق قوله تعالى :

﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أي إن طريق السعادة الأبدية هو اتباع القرآن الذي أنزله الله هدى ورحمة للمؤمنين ، وهو كثير الخير والبركة ، فيه الشفاء لمن تمسك به ، والنجاة لمن تبعه ، وقد أنزله تعالى للناس للتدبر والتفكر في معانيه ، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر ، وليتعظ أهل العقول الراجحة به وببيانه. قال الحسن البصري : والله ما تدّبره بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : قرأت القرآن كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ ليس خلق السموات والأرض عبثا وهزلا ولعبا ، وإنما له غاية عظمي وهدف صحيح وهو الدلالة على قدرة الله. والذين يظنون أن الله خلقهما باطلا عبثا هم الكفار ، فيا ويلهم من عذاب النار.

٢ ـ تدل هذه الآية : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ ..﴾ على إثبات الحشر والنشر والمعاد (أو القيامة) لأنه إذا لم يكن خلقهما باطلا ، كان القول بالحشر والنشر لازما ، وكان كل من أنكر القول بالحشر والنشر شاكّا في حكمة الله في خلق السماء والأرض.

٣ ـ إذا لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدنى من حال العاصي ، لذا وبّخ تعالى الشاكين في الحشر والنشر ، وأنكر عدم التسوية بين المؤمن والكافر ، وبين الصالح والمفسد.

٤ ـ الآية هذه : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ رد واضح على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد.

٥ ـ قوله تعالى : ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا﴾ دليل على وجوب معرفة معاني القرآن ، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذّ (سرعة القراءة) ، إذ لا يصح التدبر مع الهذّ. وقال الحسن البصري : تدبر آيات الله اتباعها.

٦ ـ القرآن الكريم ذكرى وعظة لأولي الألباب ، أي أصحاب العقول الراجحة ، فالعاقل هو المستفيد من آي القرآن ، والقرآن هو الذي يذكره بضرورة التوبة والإنابة إلى الله إذا زاغ أو انحرف.

قصة سليمان عليه‌السلام

﴿وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (٣١) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (٣٢) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (٣٤) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (٣٦) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٣٨) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)﴾

الإعراب :

﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ المقصود بالمدح محذوف ، وهو سليمان أو داود ، وهو إلى سليمان أقرب.

﴿الصَّافِناتُ الْجِيادُ﴾ الأول نائب فاعل ﴿عُرِضَ﴾ والثاني صفته ، و ﴿الْجِيادُ﴾ : جمع جواد ، أو جمع جائد.

﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ منصوب على أنه مفعول به ، والمعنى : أنه آثر حب الخير ، لا أنه أحبّ حبّا ، أو منصوب على المصدر ، بوضع ﴿حُبَ﴾ الاسم موضع الاحباب الذي هو المصدر ، والوجه الأول أوجه.

﴿حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ﴾ أي الشمس ، وإنما أضمر لدلالة الحال ، مثل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٦] أي الأرض ، لدلالة الحال ، وإن لم يجر لها ذكر.

البلاغة :

﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾ المسح هنا حقيقة أي مسحها بيده استحسانا لها وإعجابا بها ، وقيل : المسح كناية عن العقر والذبح.

﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ بينهما طباق ، لأنهما بمعنى أعط من شئت ، وامنع من شئت.

المفردات اللغوية :

﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ سليمان ، إذ ما بعده تعليل للمدح وهو أواب ﴿أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى الله بالتسبيح والذكر في جميع الأوقات ، أو بالتوبة ﴿بِالْعَشِيِ﴾ ما بعد الزوال ﴿عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ على سليمان ﴿الصَّافِناتُ﴾ القائمات ، أو القائمة على ثلاث وطرف الحافر الرابع ، أي يرفع إحدى يديه أو رجليه ، ويقف على مقدم حافرها ، مع القوائم الأخرى ، وهو من الصفات المحمودة في الخيل ، لا يكاد يكون إلا في العرب الخلّص ، مأخوذ من صفن يصفن صفونا. ﴿الْجِيادُ﴾ جمع جواد ، وهو الذي يسرع في عدوه أو جريه ، والجواد من الناس : السريع البذل. والمعنى : أن الخيول إذا استوقفت سكنت ، وإن ركضت سبقت ، وكانت ألف فرس عرضت عليه ، كالعرض العسكري اليوم.

﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي آثرت أو أردت حب الخير وهو هنا الخيل ، وأصل الخير : المال الكثير ، ويحتمل أنه سماها خيرا لتعلق الخير بها ، قال صلي الله عليه وآله وسلم فيما أخرجه أحمد عن جابر : «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي أحببت الخيل وحصل حبها عن ذكر ربي وأمره ، لا عن الشهوة والهوى. وليس المراد كما يذكر القصاصون : أنه آثر رؤية الخيل عن صلاة العصر حتى غابت الشمس ﴿تَوارَتْ بِالْحِجابِ﴾ اختفت وغابت الشمس ، واستترت بما يحجبها عن الأبصار. والحجاب : بالحاجز أو بالليل.

﴿رُدُّوها عَلَيَ﴾ ردوا الخيل الصافنات علي استمتاعا بالنعمة ، أي كفاها ركضا وعدوا ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾ شرع يمسحها بيده استحسانا لها وإعجابا بها ، وليس المعنى : جعل يذبحها ويعقرها بالسيف لتفويت صلاة العصر عليه ، فهذا لا يليق بالنبوة. ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾ أي بسيقانها وأعناقها ، فيربّت عليها ويدللها ويمسح نواصيها بيده ، لا أنه ذبحها وعرقب أرجلها تقربا إلى الله تعالى ، حيث اشتغل بها عن الصلاة ، وتصدق بلحمها ، فعوضه الله خيرا منها وأسرع ، وهي الريح تجري بأمره كيف شاء ، فهذا من الإسرائيليات الدخيلة.

﴿فَتَنَّا سُلَيْمانَ﴾ ابتليناه واختبرناه بمرض ، وقال البيضاوي : وأظهر ما قيل فيه : ما روي مرفوعا أنه قال : «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن ، فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل ، فو الذي نفس محمد بيده ، لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فرسانا» [1].

ومن الإسرائيليات في تفسير الابتلاء : أن الله ابتلاه بسلب ملكه ، وذلك لتزوجه بامرأة عشقها ، وكانت تعبد الصنم في دار من غير علمه ، وكان ملكه في خاتمه ، فنزعه مرة عند إرادة الخلاء ووضعه عند امرأته المسماة بالأمينة ، على عادته ، فجاءها جنّي في صورة سليمان ، فأخذه منها.

﴿وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ أي جسما ضعيفا كأنه جسد بلا روح ، وقيل : الجسد : هو نصف الإنسان الذي ولدته امرأته ، وقيل : هو ذلك الجني ، وهو صخر أو غيره ، جلس على كرسي سليمان ، وعكفت عليه الطير وغيرها ، فخرج سليمان في غير هيئته ، فرآه على كرسيه ، وقال للناس : أنا سليمان ، فأنكروه. وهذان التفسيران المقولان غير صحيحين في الظاهر والثاني منهما من تتمة القصة الدخيلة من الإسرائيليات.

﴿ثُمَّ أَنابَ﴾ رجع تائبا إلى الله من ترك الأفضل وهو عدم تعليق الأمر بمشيئة الله ، وهذا عظيم على نبي ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ﴿قالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما صدر عني من الذنب ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أي امنحني ملكا لا يكون لأحد من بعدي أن يملك مثله.

---

(١) أخرجه البخاري ، دون أن يذكر أنه تفسير للآية.

﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ﴾ جعلناها منقادة لأمره ﴿رُخاءً﴾ لينة مع قوتها وشدتها ، فلا تزعزع ولا تعصف ﴿حَيْثُ أَصابَ﴾ قصد وأراد ﴿وَالشَّياطِينَ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي يبنون له ما يشاء من المباني ، ويغوصون في البحر لاستخراج الدر واللؤلؤ منه ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾ أي وآخرين منهم مشدودين في القيود والسلاسل ، وهم مردة الشياطين.

﴿هذا عَطاؤُنا﴾ أي هذا ما أعطيناك من الملك العظيم الذي طلبته ، من السيطرة على الريح والشياطين وتسخيرهم ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ فأعط من شئت ، وامنع من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء أو الإمساك ، فلا يقال لك : كم أعطيت ولم منعت؟ ﴿لَزُلْفى﴾ قربة في الآخرة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وحسن مرجع ، وهو الجنة.

المناسبة :

هذه هي القصة الثانية ـ قصة سليمان بن داود عليهما السلام ، فيها تعداد النعم التي أنعم الله بها على سليمان ، كما أنعم على أبيه داود من قبل ، ليشكر المحسن ، ويتعظ المسيء الذي يرى في قصتي داود وسليمان عظة وعبرة ، فإنهما ملكا ملكا عظيما ، لم يحجبهما عن شكر الله ، وعبادته وطاعته ، وتقدير نعمه الكثيرة ، فأين ملكهما من زعامة قريش وأمثالهم؟!.

التفسير والبيان :

﴿وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي وآتينا داود ابنا نبيا ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾ [النمل ٢٧ / ١٦] وإلا فقد كان له بنون غيره ، وهذا الابن ما أحقّه بالمدح والثناء ، فهو نعم العبد ، لأنه توّاب رجّاع إلى الله ، كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ في أكثر الأوقات.

روى ابن أبي حاتم عن مكحول قال : لما وهب الله تعالى لداود سليمان قال له : يا بني ما أحسن؟ قال : سكينة الله والإيمان ، قال : فما أقبح؟ قال : كفر بعد إيمان ، قال : فما أحلى؟ قال : روح الله بين عباده ـ أي رحمته ـ قال : فما

أبرد؟ قال : عفو الله عن الناس ، وعفو الناس بعضهم عن بعض ، قال داود عليه السلام : فأنت نبي.

ثم ذكر الله واقعتين لسليمان من وقائع توبته فقال :

الواقعة الأولى :

قصة عرض الخيل : ﴿**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ**﴾ أي اذكر أيها الرسول مادحا حين عرض على سليمان عليه السلام في مملكته وسلطانه بعد العصر آخر النهار الخيول الصافنات (أي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة) والجياد : السراع في العدو ، لينظر إليها ويتعرف أحوالها ومدى صلاحيتها لمهامها ، وليستمتع بما أنعم الله عليه منها.

﴿**فَقالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ**﴾ أي قال سليمان : إنني أحببت هذه الخيل وآثرتها عن غيرها حبا حصل عن ذكر ربي وأمره ، لا بهواي وشغفي ، وكانت ذات أعداد كثيرة ، تعدو حتى غابت عني بسبب الغبار وبعد المسافة. وبه يتبين أن حبه لها لم يكن إلا امتثالا لأمر الله بربط الخيل للجهاد في سبيل الله ، وتقوية دينه ، وتثبيت دعائمه ، وقد كان ذلك مندوبا إليه في دينهم.

هذا هو التفسير المتعين الذي يتفق مع مركز النبوة وشرف الرسالة ودلالة الحال في تعداد النعم لا النقم على سليمان ، فلا يصح التفسير بشيء يتنافى مع هذا ، لا سيما وقد أمر الله تعالى نبينا صلي الله عليه وآله وسلم أن يتأسى بداود وسليمان ، كما في مطلع الآيات. و ﴿**اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ..**﴾.

ثم أعاد سليمان عرض الصافنات أمامه قائلا :

﴿**رُدُّوها عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ**﴾ أي أعيدوا هذه الخيل

إلي ، فلما عادت جعل يمسح بيده سيقانها وأعناقها ونواصيها ، تشريفا لها وتكريما وتدليلا وسرورا بها ، وتفحصا لأحوالها وإصلاح ما قد يطلع عليه من عيوبها ، لأنها عدة الجهاد ، ووسيلة الحرب ، لرد العدوان ، ودفع غارات المعتدين. وقال أكثر المفسرين : معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها ، أي قطعها ، لأنها شغلته عن صلاة العصر. وهذا بعيد على نبي شاكر نعم ربه ، يعاقب ما ليس أهلا للعقاب.

الواقعة الثانية :

إلقاؤه جسدا على كرسيه : ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ ، وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ**﴾ أي تالله لقد اختبرنا سليمان عليه السلام باختبار آخر ، وهو الفتنة في جسده ، كما اختار الرازي ، حيث ابتلاه الله بمرض شديد في جسمه ، حتى نحل جسمه ، وأصبح هزيلا ، ثم أناب ، أي رجع إلى حال الصحة [١].

وبعض المفسرين كما ذكرت عن البيضاوي وكذا أبو حيان [٢] يفسر هذه الفتنة بما عزم عليه من الطواف على سبعين من نسائه ، تأتي كل واحدة بفارس مجاهد في سبيل الله ، دون أن يقول : إن شاء الله ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، هو الذي ألقي على جسده ، فالجسد الملقى هو المولود شق رجل.

وقيل : إن الملقى شيطان ، وهذا قول باطل من الزنادقة. قال ابن كثير : وهذا وغيره من الإسرائيليات ، وهي من المنكرات ، من أشدها ذكر النساء [٣].

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦ / ٢٠٩

(٢) البحر المحيط : ٧ / ٣٩٧

(٣) تفسير ابن كثير : ٤ / ٣٥ وما بعدها.

﴿قالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ قال سليمان : ربّ اغفر لي ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله ، وهذا من سمو الإحساس بالخطيئة ، فقد تكون شيئا لا يخلو عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن الأنبياء أبدا في مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما قال صلي الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة : «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ وامنحني ملكا عظيما لا يتأتى لأحد غيره مثله ، إنك يا ربّ أنت الكثير الهبات والعطايا ، فأجب دعائي.

قال الزمخشري : كان سليمان عليه‌السلام ناشئا في بيت الملك والنبوة ، ووارثا لهما ، فأراد أن يطلب من ربّه معجزة ، فطلب بحسب إلفه ملكا زائدا على الممالك ، زيادة خارقة للعادة ، بالغة حدّ الإعجاز ، ليكون ذلك دليلا على نبوته ، قاهرا للمبعوث إليهم ، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات ، فذلك معنى قوله : ﴿لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾.

وقيل : كان ملكا عظيما ، فخاف أن يعطى مثله أحد ، فلا يحافظ على حدود الله فيه[1].

فأجاب الله تعالى دعاءه وأعطاه نعما خمسة ، فقال :

١ . ﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ أي فذلّلنا له الرّيح ، وجعلناها منقادة لأمره ، تجري ليّنة طائعة في قوّة وسرعة ، دون عواصف مضطربة ولا أعاصير ، تحمله إلى أي جهة قصد وأراد. ووصف الرّيح هنا بكونها رخاء لا يتعارض مع آية أخرى : ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٨١] لأن المراد بالعاصفة هنا القوية الشديدة ، لا الهائجة

---

(١) الكشاف : ٣ / ١٥

المضطربة ، فهي في قوة الرياح العاصفة ، لكنها كانت طيّبة غير خطرة ، أو أنها كانت بحسب الحاجة ، ليّنة مرة ، وعاصفة أخرى.

٢ ـ ﴿وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي وذلّلنا له أيضا الشياطين تعمل بأمره ، إما في بناء المباني الشاهقة ، وإما في الغوص في البحار لاستخراج الدرر واللآلئ والمرجان ، وإما في أعمال أخرى.

٣ ـ ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾ أي وسخرنا له شياطين آخرين هم مردة الشياطين ، سخّروا له حتى قرنهم في القيود والسلاسل ، قمعا لشرّهم ، وعقابا لهم.

٤ ـ ﴿هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ هذه نعمة رابعة هي حرية التصرف فيما أعطاه الله إياه من الملك العظيم ، والثراء والغنى ، والسيطرة على الريح والشياطين وتسخيرهم ، فقد أذن له ربّه بأن يمنح من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولا حساب عليه في ذلك الإعطاء أو الإمساك ، فلا يقال له : كم أعطيت ، ولم منعت؟

٥ ـ ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي وإن له في الآخرة لقربة وكرامة عند الله ، وحسن مرجع ، وهو الجنة ، وفيض ثواب ، فهو ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ من مزيد فضل الله على عبده داود عليه‌السلام أن وهبه ولدا ورث عنه الملك والنبوة.

٢ ـ ومن نعم الله على عبده سليمان عليه‌السلام أنه أنعم عليه بالخيل

الصّافنات الجياد ، التي تعدّ عدّة الحرب ، وآلة القتال المهمة في مواجهة الأعداء ، وكان عددها ألف فرس يجاهد عليها في سبيل الله تعالى.

٣ ـ لقد أحبها سليمان عليه‌السلام ، لأنها حققت له تنفيذ أوامر ربّه في ربطها للجهاد ، فكان يعرضها أمامه في عرض عسكري مهيب ، يرهب العدو ، وكانت تمتاز بسرعة الجري أو العدو ، حتى إنها غابت عنه بسبب شدة الغبار وبعد المسافة.

٤ ـ لم يقتصر سليمان عليه‌السلام على عرضها أمامه للمرة الأولى ، وإنما طلب إعادتها إليه ، فشرع في مسح سيقانها ونواصيها بيده ، تكريما لها ، وتفحّصا لأحوالها حتى يعالج ما قد يكون بها من عيوب.

٥ ـ امتحن الله تعالى سليمان عليه‌السلام بالمرض ، كما يمتحن عباده المؤمنين ، قيل : كان ذلك بعد عشرين سنة من ملكه ، ثم ملك بعد الاختبار عشرين سنة أخرى ، كما ذكر الزمخشري.

واشتدّ به المرض حتى أصبح لشدّة ضعفه ـ كما تقول العرب : لحما على وضم ، وجسما بلا روح ، ثم عاد إلى صحته وحالته الأولى.

وطلب المغفرة من ربّه على ما قد يكون من ذنب في تقديره كان سببا لمرضه ، وهذا من قبيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فقد يكون ترك الأفضل والأولى عند أصحاب السمو والدرجة العالية ، وعلى رأسهم الأنبياء ، بمثابة ذنب عندهم ، وهو عند غيرهم ليس بذنب.

٦ ـ أجاب الله دعاء سليمان عليه‌السلام ، فأمده بنعم عظمي ، هي : تسخير الرّيح له ، تحمله إلى أي مكان أراد ، وتسخير الشياطين للخدمة في مجالات الحياة المختلفة من بناء وغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ، والتسلّط على مردة الشياطين ، حتى يقيّدهم بالأغلال والسلاسل ، كفّا لشرّهم ومنع أذاهم.

ومنحه حرية التّصرّف في الملك والمال ، فيعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، دون حساب ولا رقيب ، ودون مراجعة أو نقص.

وكذلك جعله مقرّبا عند الله ، مكرّما عند ربّه في الجنة ، مغمورا بالثواب الجزيل ، فائزا برضا ربّه.

والخلاصة : لقد منح الله سليمان خيري الدنيا والآخرة ، وجمع له بين الملك والنبوة كأبيه داود عليهما السلام ، وسخّر الله له ملكا عظيما وسلطة شاملة على الإنس والجن والشياطين. وهذا لم يتأت لأحد قبله ولا بعده.

قصة أيوب عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (٤٢) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾

الإعراب :

﴿أَيُّوبَ إِذْ نادى أَيُّوبَ﴾ : عطف بيان ، و ﴿إِذْ﴾ : بدل اشتمال منه.

﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ منصوب إما لأنه مصدر ، أو لأنه مفعول لأجله.

البلاغة :

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ﴾ في هذا الإسناد مراعاة الأدب مع الله تعالى ، فإنه أسند المرض والضرر الذي أصابه إلى الشيطان أدبا ، وإن كان الخير والشر بيد الله تعالى لحكمة يعلمها.

المفردات اللغوية :

﴿أَيُّوبَ﴾ هو أيوب بن أموص بن أروم بن عيص بن إسحاق عليه‌السلام ، وامرأته ليا بنت يعقوب ، الراجح أنه قبل إبراهيم بأكثر من مائة سنة ، وكان موطنه أرض عوص : جزء من جبل سعير ، أو بلاد أدوم. ﴿أَنِّي﴾ بأني. ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضرّ ، والنّصب (بالضّم) والنّصب (بفتحتين) كالرّشد والرّشد : المشقة والتعب. ﴿وَعَذابٍ﴾ ألم مضرّ ، كما في آية ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٨٣]. ونسب ذلك إلى الشيطان. وإن كانت الأشياء كلها من الله. تأدّبا مع الله تعالى.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ اضرب بها الأرض ، فضرب فنبعت عين ماء. ﴿مُغْتَسَلٌ﴾ ماء تغتسل به وتشرب منه. ﴿بارِدٌ وَشَرابٌ﴾ تغتسل وتشرب منه ، فاغتسل وشرب ، فذهب عنه كل داء كان بباطنه وظاهره.

﴿وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرّقهم ، أو أحييناهم بعد موتهم. ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أي ورزقه مثلهم. ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي لرحمتنا عليه. ﴿وَذِكْرى﴾ عظة وتذكيرا لهم لينتظروا الفرج بالصبر واللجوء إلى الله فيما يحيق بهم. ﴿لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ لأصحاب العقول.

﴿ضِغْثاً﴾ حزمة صغيرة من الحشيش والريحان ونحوهما ، أو قضبان. ﴿فَاضْرِبْ بِهِ﴾ زوجتك. ﴿وَلا تَحْنَثْ﴾ بترك ضربها ، والحنث في اليمين : إذا لم يفعل ما حلف عليه. روي أن زوجته ليا بنت يعقوب عليه‌السلام ذهبت لحاجة ، وأبطأت ، فحلف إن برئ ليضربنّها مائة ضربة ، فحلّل الله يمينه بذلك ، وهي رخصة باقية في الحدود للضرورة كمرض ونحوه. ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أيوب. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة.

المناسبة :

هذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء في هذه السورة ، والمقصود بها كغيرها الاعتبار ، فقد كان داود وسليمان عليهما‌السلام ممن أفاض الله عليهما أصناف النعم ، فكانت قصتهما لتعليم الشكر على النعمة ، وأيوب كان ممن خصّه الله تعالى بأنواع البلاء ، فكانت قصته لتعليم الناس الصبر على الشدائد ، كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك ، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان عليهما‌السلام ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب

عليه السلام ، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بدّ له من الصبر على المكاره.

التفسير والبيان :

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ ، إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك صبر أيوب على مرضه مدة طويلة هي نحو من ثماني عشرة سنة ، حين نادى ربّه بأني قد مسني الضّر ومسّني الشيطان بمشقة وألم مضر ، وإنما نسب ذلك الضر إلى الشيطان أدبا مع الله تعالى كما تقدم. والذي يجب اعتقاده أن هذا المرض لم يكن منفّرا الناس منه ، وإنما هو مجرد مرض جلدي يشفى بالمياه المعدنية أو الكبريتية ، لأن شرط الأنبياء : السلامة عن الأمراض المنفّرة طبعا.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قال : «إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين [1] ، كانا من أخصّ إخوانه ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم ، والله لقد أذنب أيوب ذنبا ، ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه : وما ذاك؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة ، لم يرحمه الله تعالى ، فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له.

فقال أيوب عليه السلام : لا أدري ما تقول ، غير أن الله عزّ وجلّ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله تعالى ، فأرجع إلى بيتي ، فأكفّر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق.

---

(١) يمكن تأويل هذا الرفض بالبعد المعتاد عن كل مريض ، شفقة ورحمة ، لا نفورا من المرض.

قال : وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضاها ، أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم ، أبطأ عليها ، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه‌السلام أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾ فاستبطأته ، فالتفتت تنظر ، فأقبل عليها ، قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته ، قالت : أي ، بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، فو الله القدير على ذلك ، ما رأيت رجلا أشبه به منك ، إذ كان صحيحا ، قال : فإني أنا هو ، وكان له أندران : أندر للقمح ، وأندر للشعير ، فبعث الله تعالى سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض».

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾ أي قلنا له : اضرب برجلك الأرض ، فركض (ضرب) فنبعت عين جارية ، فاغتسل فيها ، وشرب منها ، فخرج صحيحا معافى ، بريئا من المرض.

وهذا دليل على أن مرضه كان من الأمراض الجلدية غير المعدية ولا المنفّرة ، وإنما كانت مؤذية متعبة تحت الجلد ، كالإكزيما والحكة ونحوهما ، مما يمكن شفاؤه بالمياه المعدنية أو الكبريتية المفيدة في تلك الأمراض.

وكما تمّ الشفاء من المرض أعاد الله له أهله وولده وماله ، فقد كان ذا مال جزيل وأولاد كثيرين وسعة من الدنيا ، فقال تعالى : ﴿وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحْمَةً مِنَّا ، وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ أي منحناه أهله وضاعفناهم ، إما أن الله تعالى أحياهم بعد أن أماتهم ، والله قادر على كل شيء ، وإما أنه تعالى جمعهم له بعد تفرقهم ، وأكثر نسلهم ، وزادهم ، فكانوا مثلي ما كانوا قبل ابتلائه ، رحمة من الله به ، وتذكرة لأصحاب العقول السليمة ، والإيمان أن عاقبة الصبر الفرج ، وأن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن مع العسر يسرا.

ثم ذكر الله تعالى له رخصة في التّحلل من يمينه ، فقال :

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ ، وَلا تَحْنَثْ﴾ أي وخذ بيدك حزمة كبيرة من القضبان ، فاضرب بها زوجتك التي حلفت أن تجلدها مائة جلدة إن برئت من مرضك ، ولا تحنث في يمينك ، أي لا تترك العمل بمقتضى اليمين ، بسبب إبطائها في الرجوع ، وهي ليا بنت يعقوب ، أو رحمة بنت افرائيم بن يوسف.

ثم أثنى الله سبحانه على أيوب عليه السلام قائلا :

﴿إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي لقد وجدناه صابرا على البلاء الذي ابتليناه به في جسده ، وذهاب ماله وأهله وولده ، نعم العبد أيوب ، إنه رجّاع إلى الله بالتوبة والاستغفار ، زيادة في حسناته ورفع درجته ، لا بسبب ذنب جناه ، فجازيناه بتفريج كربته ، مع أنه ليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر ، ولكن إيمان الأنبياء المطلق التام الذي يعرّفهم أن الله عليم بهم ، قد لا يطلبون من الله شيئا لإذهاب همهم وغمهم.

روي عن أيوب عليه السلام أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة : «اللهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت» ، وكان يقول في مناجاته : «إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ، ولم يتبع قلبي بصري ، ولم يلهني ما ملكت يميني ، ولم آكل إلا ومعي يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيا ، ومعي جائع أو عريان».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية :

١ ـ لا مانع من دعاء الله تعالى والشكوى إليه عند المصاب ، وإن كان أيوب عليه السلام صبر مدة طويلة على المرض ، ثم دعا ربّه لتفريج نوعين من المكروه : الألم الشديد في الجسم ، والغمّ الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات ، لذا ذكر الله تعالى لفظين وهما النّصب والعذاب.

٢ ـ على المؤمن أن يتدرّع بالصّبر عند الشدائد ، فقد أمر الله النّبي صلي الله عليه وآله وسلم بالاقتداء بأيوب عليه السلام في الصبر على المكاره ، وكذلك بغيره من الأنبياء مثل داود وسليمان عليهما السلام .

٣ ـ لم يكن مرض أيوب عليه السلام منفّرا ، لأن شرط النّبوة : السلامة عن الأمراض المنفّرة طبعا ، وإنما كان مرضه تحت الجلد ، كأمراض الحكمة ، مما ليس بمعد ، وإن كان مؤلما ومزعجا. وهو مرض حسي ، تناول البدن بدليل قوله ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٨٣] ، و ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ﴾ ، و ﴿فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٨٤] ، و ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ و ﴿هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾.

٤ ـ في هذه الآية دلالة على أن للزوج أن يضرب امرأته تأديبا ، بدليل حلف أيوب على ضرب امرأته. والذي أباحه القرآن هو ضرب النساء حال النشوز ، لقوله تعالى : ﴿وَاللَّاتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَ﴾ إلى أن قال : ﴿وَاضْرِبُوهُنَ﴾ [النساء ٤ / ٣٤]. كذلك دلّ قوله تعالى : ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ [النساء ٤ / ٣٤] ، على أن للزوج ضرب امرأته تأديبا لغير نشوز.

٥ ـ إن الضرب بالضغث رخصة من الله تعالى لأيوب عليه السلام تحلّة اليمين ، جزاء على تلك الخدمة الطويلة التي قدمتها له زوجته أثناء مرضه.

واختلف العلماء بعدئذ ، هل هذا الحكم عام أو خاص بأيوب وحده؟ للعلماء في ذلك رأيان :

الرأي الأول :

قالت الحنفية ـ الذين يقولون : شرع من قبلنا شرع لنا ـ : إن الحكم عام ، فمن حلف ليضرب مائة ضربة ، فأخذ حزمة من حطب عدد عيدانها مائة ، فضرب بها ، برّ في يمينه ، ولا كفّارة عليه ، لأن الله قد رخّص لأيوب عليه السلام هذا ،

وجعله غير حانث به ، وما دام غير حانث فهو بارّ. وهذا في المريض العليل غير الصحيح السليم [١].

وكذلك قالت الشافعية والحنابلة : يجوز إقامة الحدّ في المرض الذي لا يرجى برؤه ، بأن يضرب بمئة شمراخ دفعة واحدة ، لما روى أحمد وأبو داود وابن ماجه عن سهل بن حنيف : «أنّ النّبي صلي الله عليه وآله وسلم أمر في رجل أضنى أن يأخذوا له مائة شمراخ ، فيضربوه بها ضربة واحدة». قال الشافعي : إذا حلف ليضربنّ فلانا مائة جلدة ، أو ضربا ، ولم يقل : ضربا شديدا ، ولم ينو ذلك بقلبه : يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية ، ولا يحنث.

والشافعي الذي لا يقول بأن شرع من قبلنا شرع لنا اعتمد في ذلك على ما ثبت في السّنّة النّبوية. وأما الإمام أحمد فيقول بأن شرع من قبلنا شرع لنا.

الرأي الثاني :

قالت المالكية الذين يرون أن شرع من قبلنا شرع لنا : إن هذه رخصة خاصة بأيوب عليه السلام ، بدليل توجيه الخطاب وبما ذكر للترخيص من العلة. قال ابن العربي : وإنما انفرد مالك في هذه المسألة عن القاعدة لتأويل بديع : هو أن جريان الأيمان عند مالك في سبيل النّيّة والقصد أولى ، لقول رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه : «إنما الأعمال بالنّيّات» والنّيّة أصل الشريعة وعماد الأعمال ومعيار التكليف. وقصة أيوب هذه لم يصح كيفية يمين أيوب فيها ، حتى نلتزم شريعته فيها [٢]. وهذا قول الليث أيضا.

ونهج ابن القيم في (أعلام الموقعين) الذي حارب فيه الحيل منهج المالكية ، وقرر أن هذه الفتيا خاصة الحكم ، فإنها لو كانت عامة الحكم في حقّ كل أحد ، لم

---

(١) أحكام القرآن للجصاص الرازي : ٤ / ٣٨٢ وما بعدها.

(٢) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٤٠

يخف على نبي كريم موجب يمينه ، ولم يكن في قصها علينا كبير عبرة ، فإنما يقصّ علينا ما خرج عن نظائره لنعتبر به ، ونستدل به على حكمة الله فيما قصّه علينا. ويدلّ عليه اختصاص قوله تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً﴾ وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل ، كما في نظائرها ، فعلم أن الله سبحانه إنما أفتاه بذلك جزاء له على صبره ، وتخفيفا عن امرأته ، ورحمة بها. وأيضا فإنه تعالى إنما أفتاه بهذا لئلا يحنث كما قال : ﴿وَلا تَحْنَثْ﴾.

٦ ـ فضيلة الصبر عظيمة ، لذا وصف الله نبيه أيوب بأنه صبر على ما أصابه من أذى في بدنه وأهله وماله ، وبأنه أوّاب ، أي كثير التأويب والرجوع إلى الله في كل أموره.

قصة إبراهيم وذريته عليهم السلام .

إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل .

﴿وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (٤٨) هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (٥٢) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (٥٣) إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (٥٤)﴾

الإعراب :

﴿إِبْراهِيمَ﴾ بدل من ﴿عِبادَنا﴾ أو (عبدنا) أو عطف بيان.

﴿بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ على قراءة التنوين هذه تكون ﴿ذِكْرَى﴾ بدلا من ﴿بِخالِصَةٍ﴾ وتقديره : إنا أخلصناهم بذكرى الدار ، ويجوز نصبه ب ﴿بِخالِصَةٍ﴾ لأنه مصدر كالعافية والعاقبة. وقرئ بترك التنوين بجعل ﴿ذِكْرَى﴾ مجرورا بالإضافة وهي إضافة بيان.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ جَنَّاتٍ﴾ : بدل منصوب من ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾. و ﴿مُفَتَّحَةً﴾ صفة لجنات ، وفيه ضمير عائد إلى ﴿جَنَّاتِ﴾ وتقديره : جنات عدن مفتحة هي ، أو حال وعامله ما في المتقين من معنى الفعل. و ﴿الْأَبْوابُ﴾ إما مرفوع ب ﴿مُفَتَّحَةً﴾ وإما مرفوع بدلا من ضمير ﴿مُفَتَّحَةً﴾. تقول : فتحت الجنان : إذا فتحت أبوابها ، قال تعالى : ﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ ، فَكانَتْ أَبْواباً﴾ [النبأ ٧٨ / ١٩].

﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿لَهُمُ﴾.

﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ، ما لَهُ مِنْ نَفادٍ ما لَهُ﴾ : حال من : ﴿لَرِزْقُنا﴾ ، أو خبر ثان ل ﴿إِنَ﴾.

البلاغة :

﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ﴾ استعارة تصريحية ، استعار ﴿الْأَيْدِي﴾ للقوة في العبادة ، و ﴿الْأَبْصارِ﴾ للتبصر في الدين.

﴿هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ، جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ﴾ بينها وبين ما يأتي في المقطع الآتي مقابلة وهي : ﴿هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ﴾.

﴿هذا ما تُوعَدُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للعناية بهم.

المفردات اللغوية :

﴿عِبادَنا﴾ وقرئ : عبدنا.

﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ أصحاب القوة في العبادة. ﴿وَالْأَبْصارِ﴾ أصحاب البصائر في الدين والفقه فيه ومعرفة أسراره. ﴿أَخْلَصْناهُمْ﴾ جعلناهم خالصين لنا. ﴿بِخالِصَةٍ﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها هي ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي تذكر الدار الآخرة والعمل لها.

﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين من أبناء جنسهم ، جمع مصطفى. ﴿الْأَخْيارِ﴾ المفضلين عليهم في الخير ، جمع خيّر : وهو المطبوع على فعل الخير. ﴿إِسْماعِيلَ﴾ هو ابن إبراهيم الخليل. ﴿وَالْيَسَعَ﴾ اللام زائدة ، وهو نبي ، ابن اخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل ، ثم صار نبيا. ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ ابن عم يسع ، أو بشر بن أيوب ، واختلف في نبوته ولقبه ، والأصح أنه نبي ،

قيل : فرّ إليه مائة نبي من القتل فآواهم وكفلهم ، وقيل : تكفّل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة. ﴿كُلٌّ﴾ كلهم. ﴿مِنَ الْأَخْيارِ﴾ جمع خيّر ، كما تقدّم.

﴿هذا ذِكْرٌ﴾ هذا ذكر وشرف وتنويه لهم بالثناء الجميل ، أو هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر وهو القرآن. ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مرجع في الآخرة. ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ جنات استقرار وثبات ، يقال : عدن بالمكان : أقام به. ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها﴾ أي على الأرائك ، كما في آية أخرى. ﴿قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾ لا ينظرن إلى غير أزواجهن. ﴿أَتْرابٌ﴾ جمع ترب ، أي لدات متساوون في السّنّ ، بنات ثلاث وثلاثين سنة ، حتى لا تحصل الغيرة بينهنّ ، ولأن التّحاب بين الأقران أثبت.

﴿هذا﴾ المذكور. ﴿ما تُوعَدُونَ﴾ به. ﴿لِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ لأجل الحساب ، فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء. ﴿نَفادٍ﴾ انقطاع ، أي دائم له صفة الدوام.

المناسبة :

هذه مجموعة قصص من الأنبياء في هذه السورة ، ذكر الله فيها قصص إبراهيم وذريته الأنبياء ، يراد بها العظة والعبرة ، والتعليم لنا ، والتّخلق بأخلاقهم ، والعمل بأعمالهم التي من أجلها استحقوا ما أعدّ الله لهم ولأمثالهم في هذه الآيات من الثواب الجزيل والنعيم المقيم. وهي معطوفة على بداية القصص في هذه السورة ، كأنه تعالى قال : «فاصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود» [الآية ١٧] إلى أن قال : ﴿وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ﴾ أي واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقي في النار ، وصبر إسحاق في دعوة بني إسرائيل إلى الرشاد ، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره ، وصبر إسماعيل للذبح ، وصبر اليسع وذي الكفل على أذى بني إسرائيل.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ، فيقول :

﴿وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ﴾ أي واذكر العمل الصالح وصبر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي القوة في العبادة

والبصيرة النافذة ، فإنهم دأبوا على الطاعة ، وقويناهم على العمل المرضي ، وأحسنوا وقدموا خيرا ، وآتيناهم البصيرة في العلم والفقه في الدين ، والعمل النافع فيه.

وعلة ذلك :

﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي خصصناهم بخصلة خالصة هي العمل للآخرة ، والتزام أوامرنا ونواهينا ، لتذكرهم الدار الآخرة والإيمان بها ، وذلك شأن الأنبياء.

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾ أي وإنهم لمن المختارين من أبناء جنسهم ، المطبوعين على فعل الخير ، فلا يميلون للأذى ، ولا تنطوي قلوبهم على الضغينة والحقد والحسد والبغض لأحد ، ولا يرتكبون شرّا ومعصية ، فهم أخيار مختارون.

﴿وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ﴾ أي واذكر أيضا صبر إسماعيل واليسع وذي الكفل وأعمالهم الصالحة ، فكل منهم من الأخيار المختارين للنبوة.

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله بالصبر على سفاهة قومه وذكر جملة من الأنبياء ، ذكر ما يؤول إليه حال المؤمنين وحال الكافرين من الجزاء ، ومقرّ كل واحد من الفريقين ، فقال تعالى :

﴿هذا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ هذه الآيات القرآنية التي تعدد محاسنهم تذكّر لهم وتنويه ، وذكر جميل في الدنيا ، وشرف يذكرون به أبدا ، وإن لهم وللمتقين أمثالهم لحسن مرجع يرجعون فيه في الآخرة إلى مغفرة الله ورضوانه ونعيم جنّته. وهذا شروع فيما أعدّ لهم ولأمثالهم من النعيم والسعادة في الدار الآخرة.

ثم فسّر الله تعالى المقصود بالمرجع والمآب الحسن قائلا :

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ﴾ أي إن ذلك المآب هو في جنات إقامة دائمة ، مفتحة لهم أبوابها ، فإذا جاءوها فتحت لهم أبوابها إكراما لهم ، تفتحها لهم الملائكة ليدخلوها مكرمين. وفي هذا إيماء بتخصيصها لهم وبسعتها وروعتها وبهائها الذي تسرّ به النفوس.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيها ، يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ﴾ أي تراهم متكئين في الجنات على الأرائك والأسرّة ، يطلبون ما لذّ وطاب مما شاؤوا من أنواع الفاكهة الكثيرة المتنوعة ، وأنواع الشراب الكثير العذب الطيب ، وغيرهما ، فمهما طلبوا وجدوا ، وأحضر كما أرادوا ﴿بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة ٥٦ / ١٨].

والسبب في تخصيص الفاكهة والشراب بالذكر : ترغيب العرب فيها ، لأن ديارهم حارة قليلة الفواكه والأشربة ، وفيه إيماء بأن طعامهم لمجرد التّفكّه والتّلذّذ لا للتّغذي ، لعدم حاجتهم إليه بسبب خلق أجسامهم للدوام ، فلا تحتاج لبدائل المتلفات والتّحللات.

وبعد وصف المسكن والمأكول والمشروب ، ذكر تعالى الأزواج ، فقال :

﴿وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ﴾ أي ولهم زوجات قاصرات طرفهنّ على أزواجهنّ ، لا ينظرن إلى غيرهم ، وهم لدات متساويات في السّن ، متساويات في الحسن والجمال ، يحب بعضهنّ بعضا ، فلا تباغض ولا غيرة عندهنّ.

ثم ذكر الله تعالى ما وعد به المتقين من الثواب قائلا :

﴿هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ أي هذا المذكور من صفات الجنة هو الذي وعد به تعالى عباده المتقين ، وهو الجزاء الأوفى الذي وعدوا به ، وأجلّ ليوم الحساب في الآخرة بعد البعث والنشور من القبور.

وصفة هذا النعيم الدوام ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ﴾ أي إن هذا الذي أنعمنا به عليكم لرزق دائم لا انقطاع له ، ولا فناء أبدا ، كقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾ [النحل ١٦ / ٩٦] ، وقوله جلّ وعلا : ﴿عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود ١١ / ١٠٨] ، وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق ٨٤ / ٢٥] ، أي غير منقطع ، وقوله سبحانه : ﴿أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد ١٣ / ٣٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

جعل الله تعالى هؤلاء الصّفوة المختارة من الأنبياء مع من تقدّمهم قدوة طيبة وأسوة حسنة للنبي صلي الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين من بعده ، في الصّبر والعمل الصالح ، والعلم النافع ، والقوة في العبادة ، والفقه في الدين.

وسبب اصطفائهم إيمانهم بالدار الآخرة وتذكرهم لها ، وعملهم المحقق لرضوان الله ومغفرته ودخول جنانه فيها ، فهم يذكرون الآخرة ، ويرغبون فيها ، ويزهدون في الدنيا.

وذكرهم في القرآن المتلو إلى يوم القيامة إشادة بهم ، وذكر جميل في الدنيا ، وشرف يذكرون به فيها أبدا.

ولهم ولكلّ المتقين مع هذا الذكر الجميل في الدنيا حسن المرجع في القيامة ، إذ لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، مفتحة الأبواب ، تفتحها الملائكة تكريما لهم.

يتمتعون بنعيم الجنان في مسكن مريح يتكئون فيه على الأرائك ، ولهم ما يطلبون من أنواع الفاكهة الكثيرة والشراب الكثير.

ولهم أيضا أزواج قاصرات الطّرف لا ينظرن إلى غيرهم ، وهنّ لدات أتراب على سنّ واحدة ، متساوين في الحسن والجمال والشباب ، بنات ثلاث وثلاثين سنة.

ثم ذكر الله تعالى أن هذا الموصوف بهذه الصفات هو الجزاء والثواب الذي وعد به المتقين ، ثم أخبر تعالى عن دوام هذا الثواب. وهذا دليل على أن نعيم الجنة لا ينقطع.

عقاب الطاغين الأشقياء

﴿هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهادُ (٥٦) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (٥٨) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (٥٩) قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (٦٠) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (٦١) وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (٦٢) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (٦٣) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾

الإعراب :

﴿هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ .. هذا﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : الأمر هذا.

﴿هذا فَلْيَذُوقُوهُ .. هذا﴾ يجوز فيه النصب والرفع ، أما النصب فبتقدير فعل يفسره ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي فليذوقوه هذا فليذوقوه ، والفاء زائدة في مذهب أبي الحسن الأخفش ، مثل: هذا زيد فاضرب. وأما الرفع : فهو على أنه مبتدأ ، وخبره : ﴿حَمِيمٌ﴾ ، و ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ اعتراض ، والفاء للتنبيه ، أو هو المخصوص بالذم ، أي بئس المهاد هذا المذكور ، أو مبتدأ وخبره ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ويرفع ﴿حَمِيمٌ﴾ على تقدير (هو حميم) ، أو خبر مبتدأ ، تقديره : الأمر هذا ، ويرفع ﴿حَمِيمٌ﴾ على تقدير : هو حميم.

﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ﴾ : ﴿آخَرُ﴾ مبتدأ ، و ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ صفة له ، ولهذا حسن أن يكون مبتدأ ، مع كونه نكرة ، و ﴿أَزْواجٌ﴾ خبر المبتدأ. ويجوز جعل ﴿أَزْواجٌ﴾ مبتدأ ثانيا ، و ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ خبر ل ﴿أَزْواجٌ﴾ والجملة منهما خبر المبتدأ الأول الذي هو ﴿آخَرُ﴾.

﴿ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ﴾ : ﴿ما﴾ في موضع رفع بالابتداء ، و ﴿لَنا﴾ خبره ، و ﴿لا نَرى﴾ حال من ضمير ﴿لَنا﴾. و ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ﴾ صفة ل ﴿رِجالاً﴾. و ﴿مِنَ الْأَشْرارِ﴾ في موضع نصب ، لتعلقه ب ﴿نَعُدُّهُمْ﴾. وتجوز إمالة ﴿مِنَ الْأَشْرارِ﴾ لوجود الراء المكسورة.

﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ : ﴿تَخاصُمُ﴾ إما بدل من ﴿لَحَقٌّ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره (هو تخاصم) أو خبر بعد خبر ل ﴿إِنَ﴾ أو بدل من ﴿ذلِكَ﴾ على الموضع.

البلاغة :

﴿الْأَشْرارِ الْأَبْصارُ أَهْلِ النَّارِ﴾ فيها مراعاة الفواصل من المحسنات البديعية.

﴿فَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

المفردات اللغوية :

﴿لِلطَّاغِينَ﴾ الكفار الذين كذبوا بالله ورسله ، وتجاوزوا حدود الله. ﴿مَآبٍ﴾ مرجع ومصير. ﴿يَصْلَوْنَها﴾ يدخلونها. ﴿الْمِهادُ﴾ الفراش. ﴿هذا﴾ العذاب ، المفهوم مما بعده.

﴿حَمِيمٌ﴾ ماء شديد الحرارة. ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ شديد البرودة ، وهو ما يسيل من صديد أهل النار. ﴿وَآخَرُ﴾ أي وعذاب آخر ، وقرئ : «وأخر» بالجمع ، أي وأنواع عذاب آخر. ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ مثل المذوق في الشدة والكراهية ، أو مثل المذكور من الحميم والغساق. ﴿أَزْواجٌ﴾ أصناف أو أجناس عذابهم.

﴿هذا فَوْجٌ﴾ أي يقال لهم ذلك عند دخولهم النار ، والفوج : الجمع الكثير من أتباع الضلال. ﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ داخل معكم النار بشدة. ﴿لا مَرْحَباً بِهِمْ﴾ أي لا سعة عليهم ولا ترحيب بهم ، وهذا ما يقوله الرؤساء لأتباعهم. ﴿صالُوا النَّارِ﴾ داخلون النار بأعمالهم مثلنا. ﴿قالُوا : بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ﴾ قال الأتباع للرؤساء : بل أنتم أحق بما قلتم. ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا﴾ أي الكفر. ﴿فَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ المقر وهو جهنم ، فلنا ولكم النار.

﴿قالُوا﴾ أي الأتباع أيضا. ﴿عَذاباً ضِعْفاً﴾ مضاعفا أي ذا ضعف ، بأن يزيد على العذاب مثله ، فيصير ضعفين ، كقوله تعالى : ﴿رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦٨]. ﴿وَقالُوا﴾ أي الرؤساء الطاغون ، وهم في النار. ﴿مِنَ الْأَشْرارِ﴾ الأراذل

الذين لا خير فيهم ، يريدون بهم فقراء المسلمين الذين يحتقرونهم ويسترذلونهم ويسخرون بهم. ﴿أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا﴾ استفهام إنكاري ، إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في تسخيرهم في الدنيا ، أي الأجل أنا قد اتخذناهم مسخرين في أعمالنا ، ولم يكونوا كذلك ، لم يدخلوا النار؟ وقرئ بضم السين ، أي كنا نسخر بهم. ﴿أَمْ زاغَتْ﴾ مالت. ﴿عَنْهُمُ الْأَبْصارُ﴾ أي أم هم معنا ، ولكن لم ترهم أعيننا ، وهم فقراء المسلمين كعمار وبلال وصهيب وسلمان.

﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ﴾ ذلك الذي حكينا عنهم واجب وقوعه ، لا بد أن يتكلموا به ، ثم بيّن ما هو ، فقال : ﴿تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي تنازعهم ومخاصمة بعضهم بعضا.

المناسبة :

بعد أن وصف الله تعالى ثواب المتقين ومآل السعداء ، وصف بعده عقاب الطاغين وحال الأشقياء المحرومين ، ليتم التقابل والمقارنة بين الفريقين ، ويقترن الوعد بالوعيد ، فيقبل على الطاعة ، ويجتنب المعصية ، ويتحقق الهدف المنشود وهو الإصلاح والتهذيب.

التفسير والبيان :

﴿هذا ، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أي هذا المذكور هو جزاء المؤمنين ، أو الأمر هذا كما ذكر ، وإن للكافرين الخارجين عن طاعة الله عزّ وجلّ ، المكذبين لرسله ، لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله عزّ وجلّ :

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ أي إنهم يدخلون جهنم ويلفحهم حرها من كل جانب ، فبئس ما مهدوا لأنفسهم ، وهو الفراش ، أي بئس ما تحتهم من نار جهنم ، مشبها النار بالمهاد ، كقوله تعالى : ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ [الأعراف ٧ / ٤١].

﴿هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي هذا حميم فليذوقوه ، أو العذاب هذا فليذوقوه ، وهو أمرتهكم وسخرية بذوق العذاب ، وهو ماء حار شديد الحرارة

يشوي الجلود ، وماء بارد مؤلم لا يستطاع شربه لشدة برودته ، أو هو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد.

﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أي ولهم أنواع أخرى من العذاب مثل الحميم والغساق ، أشد كراهية وإيلاما كالزقوم ، والصعود والسّموم ، والزمهرير ، يعاقبون بها ، من الشيء وضده. فقوله : ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أي ألوان من العذاب المختلفة المتضادة.

ثم وصف الله تعالى كلام أهل النار مع بعضهم بعضا ، فقال :

﴿هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ﴾ أي تقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة والزبانية : هذا جمع كبير داخل معكم ، فلا مرحبا بهم ، أي لا كرامة لهم ، وهم يدخلون النار كما دخلناها ، ويستحقونها كما استحققناها. والمراد من قولهم : ﴿لا مَرْحَباً بِهِمْ﴾ الدعاء عليهم. وهذا قول صادر من السادة أو الرؤساء والقادة عن الأتباع المنبوذين في الدنيا ، والمراد به الإخبار من الله تعالى عن انقطاع المودة بين الكفار ، بل إن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة.

فيجيبهم الأتباع قائلين :

١ ـ ﴿بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا ، فَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ أي قال الأتباع للرؤساء : بل أنتم لا كرامة لكم ، وأنتم أحق بهذا منا ، فإنكم أضللتمونا ودعوتمونا إلى هذا المصير وأوقعتمونا فيه ، فبئس المقر جهنم لنا ولكم. والمراد من هذا الكلام التشفي منهم ، كما قال تعالى : ﴿كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها﴾ [الأعراف ٧ / ٣٨].

٢ ـ ﴿قالُوا : رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ أي قال الأتباع أيضا عن الرؤساء داعين عليهم : ربنا عاقب الذين أوردونا هذا المورد في

النار وقدموا لنا هذا العذاب عقابا مضاعفا في النار ، عقابا على الكفر ، وعقابا على الإضلال ، كما قال تعالى : ﴿رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا ، فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أي لكل منكم عذاب بحسبه [الأعراف ٧ / ٣٨ . ٣٩] وقال سبحانه : ﴿رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا ، فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ ، وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦٧ . ٦٨]. ويؤيده الحديث الصحيح عند مسلم عن جرير بن عبد الله : «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها».

ثم تحدث الكفار عن أناس كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة ، فقال تعالى :

﴿وَقالُوا : ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ؟﴾ أي قال المشركون بعضهم لبعض تعجبا وتحسرا : إننا نفتقد في النار رجالا كنا نعدهم في الدنيا أشرارا لا خير فيهم ، فما لنا لا نراهم معنا في النار؟ يعنون في زعمهم فقراء المؤمنين ، كعمّار وخبّاب وصهيب وبلال وسالم وسلمان.

قال مجاهد : هذا قول أبي جهل يقول : ما لي لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا؟ وهذا ضرب مثل ، وإلا فكل الكفار ، هذا حالهم ، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار. فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم ، فقالوا هذا القول.

﴿أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ﴾ أي الأجل أنا قد سخرناهم في الدنيا في أعمالنا ، أو سخرنا منهم ، وكانوا أهل الكرامة فأخطأنا ، فلم يدخلوا النار ، أم هم معنا ولكن لم نعلم مكانهم في النار؟ قال الحسن البصري : كل ذلك قد فعلوه ، اتخذوهم سخريا ، وزاغت عنهم أبصارهم ، أي وهم في الجنة. وقوله : ﴿سِخْرِيًّا﴾ بضم السين وكسرها ، قيل : هما بمعنى واحد ، وقيل : بالكسر هو الهزء ، وبالضم : هو التذليل والتسخير.

وهذا إنكار على أنفسهم وتأنيب لها على اتخاذهم سخريا في الدنيا.

ثم أكد الله تعالى حدوث هذا التخاصم والتنازع قائلا :

﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي إن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق لا بدّ أن يتكلموا به ، أو هذا الذي أخبرناك به يا محمد أمر واقع حتما يوم القيامة ، وهو تخاصم أهل النار فيها ، وما قالته الرؤساء للأتباع ، وما قالته الأتباع لهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

ذكر الله تعالى ألوانا من العذاب في النار للكفار يوم القيامة ، وتلك الألوان أو الأنواع هي ما يأتي :

١ ـ إن مصير الظالمين الكافرين شر مرجع ومآب ومنقلب يصيرون إليه.

٢ ـ إنهم يصلون جهنم ، أي يدخلونها ، وبئس ما مهدوا لأنفسهم ، أو بئس الفراش لهم ، وهو ما تحتهم من النار.

٣ ـ إن شرابهم الحميم والغسّاق ، والحميم : الماء الحار الشديد الحرارة ، والغساق : ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد.

٤ ـ لهم أصناف وألوان أخرى من العذاب كالزمهرير والسموم وأكل الزقوم والصعود والهوي ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة ، والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه.

٥ ـ قال ابن عباس : إن القادة إذا دخلوا النار ، ثم دخل بعدهم الأتباع ، قالت الخزنة للقادة : ﴿هذا فَوْجٌ﴾ يعني الأتباع ، والفوج : الجماعة ﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ أي داخل النار معكم ، فقالت السادة : ﴿لا مَرْحَباً بِهِمْ﴾ أي لا اتسعت منازلهم في النار ، والمراد به الدعاء. فقال القادة أو الملائكة : ﴿إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ﴾ كما صليناها.

قال أبو حيان : والظاهر أن قوله : ﴿هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ من قول رؤسائهم بعضهم لبعض.

٦ ـ رد الأتباع على الرؤساء بقولهم : ﴿بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ﴾ أنتم دعوتمونا إلى العصيان فبئس القرار لنا ولكم. وقالوا أيضا : ربنا من سوّغ لنا هذا وسنّه وتسبب في عذابنا هذا فضاعف عذابه ، عذابا على الكفر ، وعذابا على الإضلال.

وكل كلام من الفريقين فيه زيادة تبكيت وإيلام وإزعاج للفريق الآخر.

٧ ـ زعم الكفار في الدنيا أن أعداءهم في الدنيا وهم فقراء المؤمنين العرب أو الموالي غير العرب ، كبلال وصهيب وسلمان من أهل النار ، فافتقدوهم بحسب زعمهم في النار معهم ، فلم يجدوهم ، فلاموا أنفسهم على خطئهم باتخاذهم سخريا في الدنيا. وهذا لون آخر من التعذيب النفسي الداخلي.

قال مجاهد وغيره : يسألون أين عمار ، أين صهيب ، أين فلان ، يعدون ضعفاء المسلمين ، فيقال لهم : أولئك في الفردوس.

٨ ـ إن هذا التخاصم والتنازع الذي يزعج أهل النار أمر واقع حتما في النار ، وهو حق ثابت ، يجب الإيمان به.

بعض أدلة صدق النبي صلي الله عليه وآله وسلم

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ما كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)﴾

الإعراب :

﴿قُلْ : هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ : ﴿هُوَ نَبَأٌ﴾ مبتدأ وخبر ، و ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ، و ﴿أَنْتُمْ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ، و ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بالخبر وهو ﴿مُعْرِضُونَ﴾.

﴿إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ : ﴿أَنَّما﴾ إما مرفوع نائب فاعل ل ﴿يُوحى﴾ وإما منصوب بتقدير حذف حرف الجر ، أي بأنما أنا نذير ، و ﴿إِلَيَ﴾ يقوم مقام نائب الفاعل ل ﴿يُوحى﴾ والوجه الأول أوجه.

المفردات اللغوية :

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة. ﴿مُنْذِرٌ﴾ مخوف بالنار. ﴿الْقَهَّارُ﴾ لخلقه. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب أو الغالب على أمره.

﴿الْغَفَّارُ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب لمن يشاء.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين. ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ خبر مهم جدا. ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي إن القرآن الذي أنبأتكم به وجئتكم فيه بما لا يعلم إلا بوحي هو مهم جدا ، وأنتم معرضون عنه لتمادي غفلتكم ، فإن العاقل لا يعرض عن مثله.

﴿بِالْمَلَإِ الْأَعْلى﴾ الملائكة ، وهم أشراف الخلق ، أي ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى. ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأن آدم حين قال الله : ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٢ / ٣٠].

﴿إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما يوحى إلي إلا أني بيّن الإنذار.

المناسبة :

هذه الآيات عود على بدء السورة الداعية إلى التوحيد وإثبات نبوة النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، والمعاد ، فهي تقرير للتوحيد ، ووعد ووعيد للموحدين والمشركين بسبب الإعراض عن دعوة النبي محمد صلي الله عليه وآله وسلم ، وإثبات للبعث الذي يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين بعد إنذار النبي صلي الله عليه وآله وسلم في الدنيا بعقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد.

وهذا دليل على أن السورة إلى آخرها في أحسن وجوه الترتيب والنظم.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ أي قل أيها الرسول للكفار بالله ، المشركين به من أهل مكة وغيرهم ، المكذبين لرسوله صلي الله عليه وآله وسلم : إنما أنا مخوف لكم من عقاب الله وعذابه ، مبلّغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد ، مثل عقاب الأمم السابقة في الدنيا كعاد وثمود ، وأحوال عذاب جهنم في الآخرة.

﴿وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي ليس هناك إلا إله واحد لا شريك له ، قهار لكل شيء سواه ، قد قهر كل شيء وغلبه.

﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا ، الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي مالك جميع السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات ، ومتصرف فيه ، وهو الذي يغلب ولا يغلب ، فلا يغالبه مغالب إذا عاقب العصاة ، وهو غفار الذنوب لمن أطاعه ، ولمن شاء من عباده إذا تاب ، ولمن التجأ إليه.

ثم توعدهم تعالى على مخالفة أمر الله تعالى ورسوله صلي الله عليه وآله وسلم والإعراض عن القرآن ، فقال :

﴿قُلْ : هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي قل أيها الرسول لمشركي مكة وغيرهم: إن هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولا منذرا ، وأن الله واحد لا شريك له ، وأن القرآن وحي منزل من عند الله ، هو خبر عظيم مهم جدا ، لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة ، فهو ينقذكم من الضلالة إلى النور ، لكنكم أنتم معرضون عما أقول ، لا تتفكرون فيه. وفي هذا توبيخ لهم وتقريع ، لكونهم أعرضوا عنه ، فعليهم العدول عن خطأهم.

ثم ذكر تعالى ما يدل على نبوة محمد صلي الله عليه وآله وسلم ، فقال :

﴿ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى ، إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ما كان لي قبل أن

يوحى إلي علم باختلاف الملأ الأعلى في شأن آدم عليه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه ، فلو لا الوحي من أين كنت أدري بتلك المغيبات.

﴿إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما يوحى إلي إلا للإنذار الواضح ، والتبليغ البيّن ، لا لأمر آخر من تسلط أو ملك.

فقه الحياة أو الأحكام :

أبان الله تعالى في هذه الآيات بعض أدلة صدق النبي صلي الله عليه وآله وسلم في نبوته ، وأوضح بعض مهامه وواجباته.

أما مهمته : فهي إنذار من عصاه بالنار ، وتخويف عقاب الله من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد.

وكذلك تقرير التوحيد وهو أن لا إله إلا الله ، المنزه عن الشريك والنظير ، وأنه سبحانه القهار لكل شيء ، وهذا يدل على كونه واحدا ، وأن الذي جعل شريكا له لا يقدر على شيء أصلا ، مثل هذه الأوثان والجمادات التي لا تضر ولا تنفع.

ولما كانت صفة ﴿الْقَهَّارُ﴾ توجب الخوف الشديد ، أردفه تعالى بذكر صفات ثلاث له دالة على الرحمة والفضل والكرم :

أولها ـ كونه ربا للسموات والأرض والعناصر الأربعة (الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب) والمواليد الثلاثة (الإنس والجن والحيوان).

ثانيها ـ كونه عزيزا (أي منيعا قويا لا مثل له) فهو قادر على كل الممكنات ، فهو يغلب الكل ولا يغلبه شيء.

ثالثها ـ كونه غفارا لذنوب عباده المطيعين المخلصين في العبادة.

والمنذر به : هو الحساب والثواب والعقاب والنبوة والقرآن ، وهذا خبر عظيم القدر ، فلا ينبغي أن يستخف به. وليس من مهام النبي التسلط أو التجبر أو تحقيق النفوذ.

وأما بعض أدلة النبوة وإنزال الوحي عليه : فهو ما يخبر عنه القرآن الكريم من أنباء الملأ الأعلى وهم الملائكة حين اختصموا في أمر آدم حين خلق فقالوا : ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ [البقرة ٢ / ٣٠] وقال إبليس : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٠] فهذا البيان من محمد صلي الله عليه وآله وسلم عن قصة آدم وغيره من الغيبيات لا يتصور إلا بتأييد إلهي ، وحينئذ قامت المعجزة على صدقه.

فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه.

وقوله : ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ترغيب في النظر والاستدلال في العقائد ومنع التقليد.

قصة آدم عليه‌السلام

﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٧٤) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (٧٥) قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي

إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾

الإعراب :

﴿قالَ : فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ الحق الأول بالرفع : إما خبر مبتدأ محذوف وتقديره : أنا الحق أو فالحق قسمي أو مني ، وإما مبتدأ ، والخبر محذوف ، تقديره : فالحق مني ، ويقرأ بالنصب على تقدير فعل ، تقديره : الزموا الحق أو اتبعوا الحق ، أو بتقدير حذف حرف القسم ، كقولك : الله لأفعلن ، والدليل على أنه قسم : قوله تعالى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

و ﴿فَالْحَقُّ﴾ الثاني : منصوب ب ﴿أَقُولُ﴾ أي أقول الحق ، وهو اعتراض بين القسم وجوابه. وقرئ : فالحقّ والحقّ أقول ، بالجر فيهما على القسم ، وإعمال حرف الجر في القسم مع الحذف ، كما تقول : الله لأفعلن ، (و) الله لأذهبن ، وهي قراءة شاذة.

البلاغة :

﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد بمؤكدين : لفظ كل ، ولفظ ﴿أَجْمَعُونَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ﴾ أي اذكر حين ذلك. ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ هو آدم. ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ أتممته وعدّلت وأكملت خلقته. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وأحييته بنفخ الروح فيه ، وأضاف الروح إلى نفسه لشرفه وطهارته ، والروح : جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه. ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ فخروا له أو اسقطوا له. ﴿ساجِدِينَ﴾ تكرمة وتبجيلا له ، وهو سجود تحية بالانحناء ، لا سجود عبادة. ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيدان ، الأول لإفادة العموم ، والثاني لإفادة الاجتماع في السجود.

﴿إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن ، وكان من الملائكة. ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ تعاظم. ﴿وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ في علم الله ، أو باستكباره عن أمر الله تعالى ، واستنكافه عن الطاعة. ﴿ما مَنَعَكَ﴾ ما صرفك وصدك. ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَ﴾ خلقته بنفسي من غير توسط أب وأم ، واليد : القدرة ، وهو تمثيل

للخلق المستقل وللدلالة على أنه معتنى بخلقه ، فهذا تشريف لآدم ، فإن كل مخلوق تولى الله خلقه. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ؟﴾ أي تكبرت الآن عن السجود من غير استحقاق ، أم كنت من المتكبرين المتفوقين المستحقين للترفع عن طاعة الله ، فتكبرت عن السجود ، لكونك منهم ، وهو استفهام توبيخ.

﴿قالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ إبداء للمانع. ﴿فَاخْرُجْ مِنْها﴾ من الجنة أو من السموات. ﴿رَجِيمٌ﴾ مرجوم مطرود من الرحمة. ﴿لَعْنَتِي﴾ طردي. ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ فأمهلني. ﴿إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يبعث الناس. ﴿إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وقت النفخة الأولى. ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ بسلطانك وقهرك. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأضلنهم. ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ المؤمنين الذين أخلصتهم للعبادة وعصمتهم من الضلالة.

﴿فَالْحَقُ﴾ المراد بالحق : إما اسمه عَزَّوَجَلَّ أو الحق الذي هو نقيض الباطل ، عظمه الله باقسامه به ، أي فالحق مني أو فالحق قسمي ، وجواب القسم : ﴿لَأَمْلَأَنَ﴾. ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ أحق الحق وأقوله. ﴿مِنْكَ﴾ أي من ذريتك وجنسك. ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي من ذرية آدم.

المناسبة :

هذه هي القصة الأخيرة في هذه السورة ، وقد ذكرت في سور : البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والإسراء ، والكهف. والمقصود منها منع الحسد والكبر ، لأن امتناع إبليس عن السجود كان بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمدا صلي الله عليه وآله وسلم بسبب الحسد والكبر ، وذكرت هنا لتكون زاجرا للكفار عن هاتين الخصلتين المذمومتين.

التفسير والبيان :

﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ : إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ أي اذكر يا محمد قصة خلق آدم أبي البشر ، حين قال الله للملائكة : إني سأخلق بشرا هم آدم وذريته ، ﴿مِنْ طِينٍ﴾ تراب مخلوط بالماء ، كما في آية أخرى : ﴿مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر ١٥ / ٢٦].

﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ أي فإذا أتممت خلقه وعدلته وأكملته ، وجعلته حيا بعد أن كان جمادا لا حياة فيه ، فاسجدوا له ، أي سجود التحية والتكريم ، لا سجود العبادة. وهو أمر واجب بالسجود. والنفخ تمثيل لإفاضة مادة الحياة فيه ، فليس هناك نافخ ولا منفوخ.

﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي فامتثل الملائكة كلهم لأمر الله ، وسجدوا عن آخرهم ، ما بقي منهم ملك إلا سجد ، وسجدوا مجتمعين في آن واحد ، لا متفرقين.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ أي سجد الملائكة كلهم إلا إبليس امتنع مستكبرا متعاظما ولم يكن من الساجدين ، جهلا منه بأنه طاعة ، وكان استكباره استكبار كفر ، فصار من الكافرين بمخالفة أمر الله وأنفته من السجود واستكباره عن طاعة الله ، أو إنه كان من الكافرين في علم الله.

﴿قالَ : يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ﴾ قال الله له : يا إبليس ما الذي صرفك وصدك عن السجود لآدم ، الذي توليت بنفسي خلقه من غير واسطة أب وأم ، هل استكبرت عن السجود الآن ، أم أنك كنت من القوم المتعالين عن ذلك؟ والمراد إنكار الأمرين معا. فأجاب قائلا :

﴿قالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أي إنني خير من آدم ، فإني مخلوق من نار ، وآدم مخلوق من طين ، والنار خير وأشرف من الطين في زعمه ، لما فيها من صفة الارتفاع والعلو ، وأما التراب فهو خامد هابط لا ارتفاع فيه.

﴿قالَ : فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ قال الله تعالى : فاخرج من الجنة أو

من السموات أو من زمرة الملائكة ، فإنك مرجوم بالكواكب ، مطرود من رحمة الله ومحل أنسه ومن كل خير.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي وإن طردي مستمر دائم ما دامت الدنيا إلى يوم الجزاء والقيامة ، ثم في الآخرة يلقى من عذاب الله وعقوبته وسخطه ما هو به حقيق.

﴿قالَ : رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي قال إبليس : رب أمهلني حيا ، ولا تعاجلني بالإماتة إلى اليوم الذي يبعث فيه الناس ، أي آدم وذريته بعد موتهم. طلب هذا ليوسوس لآدم وذريته ، فيثأر من آدم الذي كان سببا لطرده من رحمة الله.

﴿قالَ : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قال الله تعالى : فإنك من الممهلين ، إلى اليوم الذي قدره الله لفناء الخلائق ، وهو عند النفخة الأولى. وقد طلب إبليس الإنظار (الإمهال) إلى يوم البعث ، ليتخلص من الموت ، لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث ، لم يمت ، فأنظره الله إلى وقت الصعق لا إلى البعث. فلما أمن الهلاك تمرد وطغى وتحدى قائلا :

﴿قالَ : فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي فإني أقسم بعزتك (سلطانك وقهرك) أن أضل بني آدم بتزيين الشهوات لهم ، وإدخال الشبه عليهم ، إلا الذين أخلصتهم لطاعتك ، وعصمتهم من الضلالة والهوى والشيطان ، فهؤلاء لا أقدر على إضلالهم وإغوائهم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٤٢].

فأجابه الله تعالى :

﴿قالَ : فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

أي قال الله : أنا الحق أو الحق مني ملء جهنم من إبليس وأتباعه ، وأقول الحق : لأملأن جهنم من جنسك من الشياطين ، وممن تبعك من ذرية آدم ، فأطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلال والغواية. فهذا قسم من الله تعالى لإبليس أنه سيدخله وأتباعه النار حتى تمتلئ منهم. وقال الزمخشري : ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي ولا أقول إلا الحق ، على حكاية لفظ المقسم به ، ومعناه التوكيد والتسديد.

فقه الحياة أو الأحكام :

قصة آدم عليه السلام هذه مع إبليس اللعين : تصوير بالغ للأمر الإلهي ، وبيان مدى طاعته ، وتقرير العقاب على المخالف ، وعناصر القصة هي :

. لقد أخبر الله الملائكة أنه سيخلق بشرا من التراب ، فإذا خلقه وأحياه ، فيجب عليكم أن تسجدوا له إكراما وتحية ، لا عبادة وتأليها.

. فامتثل الملائكة وسجدوا كلهم مجتمعين لآدم خضوعا له وتعظيما لله بتعظيمه إلا إبليس الذي كان من جنس الجن ، فخانه طبعه وجبلته ، فأنف من السجود لآدم ، جهلا بأن السجود له طاعة لله ، والأنفة من طاعة الله استكبارا كفر ، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى.

. سأله ربه سؤال تقرير وتوبيخ عن سبب امتناعه من السجود لما خلق الله ، أكان ذلك استكبارا عن السجود أم كان من المتكبرين على ربه ، فتكبر لهذا؟

. أجاب إبليس بأنه خير من آدم ، لأنه مخلوق من النار وآدم مخلوق من الطين ، والنار في زعمه أشرف من الطين لما فيها من خاصية الارتفاع والاندفاع والتعالي. وهذا جهل منه ، لأن الجواهر أو العناصر متجانسة متساوية ، فقاس وأخطأ القياس.

.كان عقابه الإخراج من الجنة ، والرجم بالكواكب والشهب ، والطرد والإبعاد من رحمة الله إلى يوم القيامة ، لأن اللعن منقطع حينئذ.

. أراد الملعون ألا يموت ، فطلب تأخيره إلى يوم البعث ، فلم يجبه الله إلى ذلك ، وإنما أخره إلى الوقت المعلوم ، وهو يوم يموت الخلق فيه ، فأخّر إليه استهانة به.

. لما أمن إبليس الهلاك طغى وتمرد وتحدى ربه ، وأقسم بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات والمعاصي ، وإدخال الشبه عليهم ، ودعوتهم إلى المعاصي ، وقد علم أنه لا يتمكن إلا من الوسوسة ، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه.

لهذا استثنى من تسلطه عباد الله الذين أخلصهم لطاعته وعبادته وعصمهم منه.

. أقسم الله بذاته ، وأخبر أنه لا يقول إلا الحق أنه سيملأ جهنم من إبليس وأتباعه ، عقابا على مخالفتهم أوامر الله ، وإصرارهم على ارتكاب المعاصي.

حال الداعي وحال الدعوة ومعجزة القرآن

﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾

الإعراب :

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أصله : (لتعلمون) إلا أنه لما اتصلت به نون التوكيد الثقيلة أوجبت بناءه ، لأنها أكدت الفعلية ، فردته إلى أصله في البناء ، فحذفت النون ، فاجتمع ساكنان : الواو والنون ، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين ، وبقيت الضمة قبلها. والمعنى : لتعرفنّ ، لذا تعدى إلى مفعول واحد. واللام : لام قسم مقدر ، أي والله لتعلمن.

المفردات اللغوية :

﴿مـا أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ﴾ على تبليغ الرسالة والوحي والقرآن. ﴿مِـنْ أَجْـرٍ﴾ جعل أو عوض. ﴿الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتقولين القرآن من تلقاء نفسي أو المتصنعين المتحلين بما ليسوا من أهله ، فأنتحل النبوة والقول على الله. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ ما القرآن إلا عظة بليغة للإنس والجن والعقلاء ، دون الملائكة.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ لتعرفن يا كفار مكة وغيركم خبر صدقه وعاقبة خبره وهو ما فيه من الوعد والوعيد ، بإتيانه يوم القيامة ، وذلك لمن آمن به ومن أعرض عنه.

المناسبة :

هذه خاتمة شريفة لهذه السورة ، يتبين فيها حال الداعي وهو الرسول صلي الله عليه وآله وسلم وهو أنه لا يأخذ أجرا ومالا على هذه الدعوة ، ويظهر فيها كيفية الدعوة وهي أنها لا تقوّل فيها وإنما هي وحي من عند الله ، ودين يشهد بصحته العقل ، وتتحدد فيها مهمة القرآن بأنه عظة للعالمين ، وستظهر معجزته ووعده ووعيده يوم القيامة.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك : ما أطلب منكم من جعل أو مال تعطونيه على تبليغ رسالتي ووحي الله والنصح بالقرآن وغيره من الوحي ، وما أنا من المتقوّلين على الله ، حتى أقول ما لا أعلم ، أو أدعوكم إلى غير ما أمرني الله بالدعوة إليه. والتكلف : التصنع والتقول والاختلاق.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن ، أو ما أدعوكم إليه إلا موعظة للخلق أجمعين ، والعاقل من يشهد بصحته. و ﴿لِلْعالَمِينَ﴾ الإنس والجن. ونحو الآية : ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٩] وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود ١١ / ١٧].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ لتعرفن أيها الكفار خبره وصدقه ، من الدعوة إلى الله وتوحيده ، والترغيب في الجنة ، والتحذير من النار ، بعد زمان قريب ، إما بعد الموت ، وإما يوم القيامة. قال الحسن البصري : يا ابن آدم ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لم يطلب النبي صلي الله عليه وآله وسلم على تبليغ دعوته عوضا ماديا ، ولم ينشد تحقيق مكسب مالي أو مطمع دنيوي كالحكم والسلطة والجاه ، وهذا دليل على صدقه في نبوته ، لأن من الظاهر أن الكذاب لا بدّ من أن يظهر طمعه في طلب الدنيا ، وكان صلي الله عليه وآله وسلم بعيدا عن الدنيا ، عديم الرغبة فيها.

٢ ـ لم يكن النبي صلي الله عليه وآله وسلم متكلفا متقوّلا ولا متخرّصا ما لم يؤمر به من عند ربه ، فهو مبلّغ وحي الله بأمانة متناهية دون زيادة ولا نقص. أخرج الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود قال : يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله عزّ وجلّ قال لنبيكم صلي الله عليه وآله وسلم : ﴿قُلْ : مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

وأخرج ابن عدي عن أبي برزة قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : هم الرحماء بينهم ، قال : ألا أنبئكم بأهل النار؟ قلنا : بلى ، قال : هم الآيسون القانطون الكذابون المتكلّفون».

٣ ـ تتلخص دعوة النبي صلي الله عليه وآله وسلم في أصول ثمانية ، هي الأصول المعتبرة في دين الله ، ويشهد بصحتها كل ذي عقل سليم وطبع مستقيم وهي :

أولا ـ الدعوة إلى الإقرار بوجود الله.

ثانيا ـ الدعوة إلى تنزيه الله وتقديسه عن كل ما لا يليق به : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى ٤٢ / ١١].

ثالثا ـ الإقرار بكونه تعالى موصوفا بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة.

رابعا ـ الإقرار بكونه منزها عن الشركاء والأضداد.

خامسا ـ الامتناع عن عبادة الأوثان التي هي مجرد جمادات ، ولا منفعة في عبادتها ، ولا مضرة في الإعراض عنها.

سادسا ـ تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة ، وهم الملائكة والأنبياء.

سابعا ـ الإقرار بالبعث والقيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم ٥٣ / ٣١].

ثامنا ـ الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة [١].

٤ ـ إن ما دعا إليه النبي صلي الله عليه وآله وسلم من الوعد والوعيد والإيمان بالقرآن هو عظة بليغة للعالمين ، أي الجن والإنس.

وسيعلم الكفار نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق وصدق بعد زمان قريب ، إما بعد الموت وإما يوم القيامة.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦ / ٢٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزّمر

مكيّة ، وهي خمس وسبعون آية.

تسميتها :

سميت سورة الزمر لأن الله تعالى ذكر في آخرها زمرة الكفار الأشقياء مع الإذلال والاحتقار [٧١ ـ ٧٢] وزمر المؤمنين السعداء مع الإجلال والإكرام [٧٣ ـ ٧٥].

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها وهي سورة صلي الله عليه وآله وسلم من وجهين :

الأول ـ إنه تعالى ختم سورة صلي الله عليه وآله وسلم واصفا القرآن بقوله : ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ**﴾ وابتدأ هذه السورة بقوله : ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ فكأنه قيل : هذا الذكر تنزيل ، فهما كالآية الواحدة ، بينهما اتصال وتلاحم شديد.

الثاني ـ ذكر تعالى في آخر صلي الله عليه وآله وسلم قصة خلق آدم عليه السلام ، وذكر في القسم الأول من هذه السورة أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد ، متصلا بخلق آدم المذكور في السورة المتقدمة.

مشتملاتها :

موضوع هذه السورة الحديث عن التوحيد وأدلة وجود الله ووحدانيته ، وعن الوحي والقرآن العظيم.

ابتدأت هذه السورة ببيان تنزيل القرآن الكريم من الله تعالى على رسوله صلي الله عليه وآله وسلم ، وأمر الرسول صلي الله عليه وآله وسلم بإخلاص الدين لله ، وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات ، وتوضيح شبهة المشركين في اتّخاذ الأصنام آلهة شفعاء ، وعبادتها وسيلة إلى الله تعالى ، والنّعي عليهم في عبادة الأوثان.

وأردفت ذلك بإقامة الأدلة على وحدانية الله ، من خلق السموات والأرض ، وتعاقب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، وخلق الإنسان في أطوار مختلفة متعاقبة ، ثم نددت بطبيعة المشرك وتناقضه حين يدعو الله حال الضر ، وينساه حال الرخاء. ثم عادت لإيراد بعض هذه الأدلة كإنزال المطر وإنبات النبات.

ثم ذكرت مقارنة بين المؤمنين وبين الكافرين ، حيث يسعد الأوائل في الدنيا والآخرة ، ويشقى الآخرون فيهما ، ويتمنون الفداء حين يرون العذاب.

وأشادت بعظمة القرآن الكريم حيث تقشعر من آياته جلود المؤمنين الخائفين ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله ، على عكس المشركين الذين تنقبض قلوبهم عند سماع توحيد الله ، كما أن القرآن يتضمن أمثالا للناس لعلهم يتذكرون.

ومن هذه الأمثال يتضح الفرق بين من يعبد إلها واحدا ، وبين من يعبد آلهة متعددة لا تسمع ولا تجيب ، كالعبد المملوك لسيد واحد ، والمملوك لعدة شركاء متخاصمين فيه. ثم رد تعالى على المشركين الذين يتخذون الأصنام شفعاء من دون الله ، ولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون.

وأخبر الله تعالى عن موت النّبي صلي الله عليه وآله وسلم وموت أصحابه ، وأن الله هو المهيمن على الأرواح ، فيتوفّى بعضها في أجلها ، ويترك بعضها إلى أجل آخر.

ثم فتح باب الأمل أمام المسرفين ، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم إذا تابوا ، وأوضح ما يرى على وجوه الذين كذبوا على الله أهل النار يوم القيامة من كآبة وحزن.

وأعقب ذلك ببيان أحوال القيامة ، وحدوث نفختين : الأولى للإماتة ، والثانية للإحياء من القبور ، ثم يأتي الحساب والقضاء بالحق ، وإيفاء كل نفس ما عملت.

وختمت السورة بتقسيم الناس يوم القيامة فريقين : فريق الكافرين الذين يساقون زمرا وجماعات إلى جهنم ، ويشاهدون من أهوال المحشر ، وفريق المؤمنين الذين يساقون إلى الجنان وتحييهم الملائكة ، ويشاهدون في الجنة النعيم المقيم الذي يستدعي الحمد التام لله رب العالمين ، ويرون الملائكة حافين حول العرش يسبحون بحمد ربهم.

فضلها :

أخرج النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان صلي الله عليه وآله وسلم يقرأ في كل ليلة : بني إسرائيل . أي الإسراء . والزّمر.

مصدر القرآن والأمر بالعبادة الخالصة لله تعالى

﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾

الإعراب :

﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ تَنْزِيلُ﴾ : مبتدأ ، و ﴿مِنَ اللهِ﴾ : خبره ، ويجوز كونه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا تنزيل. وقرئ ﴿تَنْزِيلُ﴾ بالنصب ، على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ .. وَالَّذِينَ﴾ : مبتدأ ، وخبره محذوف ، تقديره : يقولون : ما نعبدهم ، ويجوز جعل الخبر : ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. ويكون «يقولون» المحذوف حال في ضمير ﴿اتَّخَذُوا﴾ تقديره : والذين اتخذوا من دونه أولياء قائلين : ما نعبدهم. وجملة ﴿ما نَعْبُدُهُمْ﴾ في موضع نصب ب «يقولون» المقدر ، لأن الجمل تقع بعد القول محكية في موضع نصب.

المفردات اللغوية :

﴿الْكِتابِ﴾ القرآن ﴿الْعَزِيزِ﴾ القوي في ملكه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في صنعه ، يضع الأشياء في موضعها المناسب ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتابَ بِالْحَقِ﴾ بالحق متعلق ب ﴿أَنْزَلْنا﴾ أي ملتبسا بالحق ، قائما عليه ، أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ ممحضا له الدين ، خاليا من الشرك والرياء ، أي موحدا الله.

﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ﴾ أي لله وحده الدين صافيا نقيا ، لا يستحقه غيره ، لأنه المنفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ﴾ أي المتخذون من دون الله نصراء وهم كفار مكة الذين اتخذوا الأصنام آلهة. ﴿ما نَعْبُدُهُمْ﴾ يقولون : ما نعبدهم. ﴿زُلْفى﴾ قربى ، مصدر بمعنى التقريب. ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وبين المسلمين. ﴿فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين ، فيدخل المؤمنين الجنة ، والكافرين النار.

﴿لا يَهْدِي﴾ لا يوفق للاهتداء إلى الحق. ﴿مَنْ هُوَ كاذِبٌ﴾ في نسبة الولد إليه. ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفر بعبادته غير الله.

﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ كما قال المشركون : ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً﴾. ﴿لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ لاختار من خلقه ما يشاء غير ما قالوا : إن الملائكة بنات الله ، وعزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله. ﴿سُبْحانَهُ﴾ تنزيها له عن اتخاذ الولد. ﴿الْقَهَّارُ﴾ القاهر كل شيء من خلقه.

سبب النزول :

نزول الآية (٣):

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ : أخرج جويبر عن ابن عباس في هذه الآية قال : أنزلت في ثلاثة أحياء : عامر وكنانة وبني سلمة ، كانوا يعبدون الأوثان ، ويقولون : الملائكة بناته ، فقالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

التفسير والبيان :

﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذا الكتاب العظيم وهو القرآن تنزيل من الله تعالى ، العزيز الذي لا يغلب ولا يعجزه شيء ، الحكيم في صنعه ، يضع الأشياء في مواضعها المناسبة ، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلى قَلْبِكَ ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٩٢ ـ ١٩٥] وقال تبارك وتعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت ٤١ / ٤١ ـ ٤٢].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِ﴾ أي إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن مقترنا بالحق ، أي إن كل ما فيه حق ، من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف الشرعية ، ولم ننزله باطلا لغير شيء.

﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لا نصلح العبادة إلا لله وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد. والإخلاص : أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه ، ولا يقصد شيئا آخر. والدين : العبادة والطاعة ، ورأسها توحيد الله ، واعتقاد أنه لا شريك له. ولهذا قال تعالى مؤكدا هذا المعنى :

﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ﴾ أي ألا لله العبادة والطاعة الخالصة من شوائب الشرك والرياء وغيره. وأما ما سواه من الدين فليس بدين الله الخالص الذي أمر به ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له. وقوله : ﴿أَلا لِلَّهِ﴾ يفيد الحصر ، أي أن يثبت الحكم في المذكور ، وينتفي عن غيره.

وإذا كان رأس العبادة الإخلاص لله ، فطريق المشركين مذموم ، كما قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ أي وأما المشركون الذين والوا غير الله تعالى ، وهي الأصنام التي عبدوها من دونه ، فيقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله تقريبا ، ويشفعوا لنا عنده في حوائجنا.

وهؤلاء عاقبتهم وخيمة كما قال تعالى مهددا لهم :

﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن الله يحكم بين أهل الأديان

يوم القيامة ، ويفصل في خلافاتهم ، ويجزي كل عامل بعمله ، فيدخل المخلصين الموحدين الجنة ، ويدخل المشركين النار.

﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي إن الله لا يرشد لدينه ، ولا يوفق للاهتداء إلى الحق ، من هو كاذب مفتر على الله ، في زعمه أن لله ولدا ، وأن الآلهة تشفع له وتقربه إلى الله ، مغال في كفره باتخاذ الأصنام آلهة ، وجعلها شركاء لله ، من غير دليل عقلي ولا نقلي مقبول.

ثم رد الله تعالى على زعمهم اتخاذ الله ولدا ، فقال :

﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ أي لو شاء الله اتخاذ ولد ، وهو لا يحتاج لذلك ، لاختار من جملة خلقه ما يشاء أن يختاره ، ولكان الأمر على خلاف ما يزعمون ، فيختار أكمل الأولاد وهم الأبناء ، لا البنات كما زعموا ، إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له ، ولا يصح أن يكون المخلوق ولدا للخالق ، فلم يبق إلا أن يختار ما يريد هو ، لا ما يزعمون.

ثم نزّه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد ، فقال :

﴿سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي تنزه الله وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي يفتقر إليه كل شيء ، وهو الغني عما سواه ، قهر الأشياء فدانت له وخضعت وذلت ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية :

١ ـ إن القرآن العظيم تنزيل من رب العالمين ، وكل ما فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف حق لا مرية فيه ، وصدق يجب العمل

به. والدليل على نزوله من عند الله : أن الفصحاء عجزوا عن معارضته ، ولو لم يكن معجزا ، لأنه كلام الله الموحى به إلى رسوله صلي الله عليه وآله وسلم ، لما عجزوا عن معارضته.

٢ ـ العبادة والطاعة لا تكون إلا لله وحده ، فلله الدين الخالص الذي لا يشوبه شيء.

روى أبو هريرة ﷺ : أن رجلا قال : يا رسول الله ، إني أتصدق بالشيء ، وأصنع الشيء ، أريد به وجه الله ، وثناء الناس ، فقال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «والذي نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئا شورك فيه» ثم تلا رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ﴾. وروى ابن جرير عن أبي هريرة حديثا قدسيا بلفظ : «من عمل عملا أشرك فيه غيري ، فهو له كله ، وأنا أغنى الشركاء عن الشرك».

٣ ـ قال ابن العربي عن آية : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ، فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ﴾ : هي دليل على وجوب النية في كل عمل ، وأعظمه الوضوء الذي هو شطر الإيمان ، خلافا لأبي حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان : إن الوضوء يكفي من غير نية ، وما كان ليكون من الإيمان شطره ، ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر ، بغير نية [١].

٤ ـ اعتمد المشركون في عبادتهم الأصنام واتخاذها شفعاء عند الله على وهم لا يعتمد أصلا على أساس مقبول من العقل والنقل ، إذ كيف يعقل أن تكون الأصنام والجمادات وسيلة تقرب إلى الله؟ وكذلك لا يعقل أن تكون هذه الأصنام تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية ، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا ، ويكون المقصود من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى من جعلت تماثيل لها ، لأن هذه المخلوقات عاجزة عن جلب الخير لنفسها أو دفع الضر عنها ، فكيف تحقق ذلك لغيرها؟!!

---

(١) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٤٤

ويلاحظ أن ظاهرة الشرك قديمة ، وجاءت الرسل لتفنيدها وإبطالها والنهي عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦] والطاغوت : كل ما عبد من دون الله من الأوثان وغيرها ، وقال سبحانه : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا ، فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٥].

٥ ـ أجاب الله تعالى عن شبهة المشركين مقتصرا في الجواب على مجرد التهديد ، فقال : ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن الله يحكم بين أهل الأديان يوم القيامة ، فيجازي كلا بما يستحق.

ثم قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي إن الله لا يوفق للدين الذي ارتضاه ، وهو دين الإسلام ، ولا يرشد إلى الهداية من كذب على الله وافترى عليه ، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه.

٦ ـ أبان الله تعالى بعدئذ أنه لا ولد له كما يزعم جهلة المشركين في الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى ، فلو أراد تعالى أن يسمي أحدا من خلقه بأنه ولد ، ما جعله عَزَّوَجَلَّ إليهم ، سبحانه ، أي تنزه وتقدس ربنا عن الولد ، فهو الله الواحد الأحد ، القهار لكل شيء.

من أدلة التوحيد وكمال القدرة وكمال الاستغناء

﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ

لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧)﴾

الإعراب :

﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ متعلق ب ﴿خَلَقَ﴾.

﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لَهُ الْمُلْكُ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ذلِكُمُ﴾ : مبتدأ ، و ﴿رَبُّكُمْ﴾ : خبره ، و ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ : خبر آخر ، و ﴿الْمُلْكُ﴾ : مرفوع بالجار والمجرور ، وتقديره : ذلكم ربكم كائن له الملك. و ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه وجهان : الرفع على أنه خبر آخر للمبتدأ ، والنصب على أنه منصوب على الحال ، وتقديره : منفردا بالوحدانية.

البلاغة :

﴿تَكْفُرُوا تَشْكُرُوا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ﴾ يلقي هذا على هذا ، والتكوير : اللف على الجسم المستدير ، وهذا يدل على كروية الأرض ، ومنه كوّر المتاع والعمامة : ألقى بعضه على بعض ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذلل وطوع ، وجعلهما منقادين له ﴿يَجْرِي﴾ في فلكه ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لوقت معين محدود هو يوم القيامة ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب على كل شيء ﴿الْغَفَّارُ﴾ لذنوب عباده إذا شاء وإذا تابوا. والآية دليل على وجود الله ووحدانيته وقدرته.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ أي آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾ فيه ثلاث دلالات على وجود الله وتوحيده وقدرته : خلق آدم عليه السلام أولا من غير أب وأم ، ثم خلق حواء منه أو من جنسه ، ثم شعّب الخلق منهما. و ﴿ثُمَّ﴾ معطوف على محذوف تقديره : مثل خلقها ، للدلالة على مباينتها لها في الفضل والمزية ، فهو ـ كما قال الزمخشري ـ من التراخي في الحال والمنزلة ، لا من

التراخي في الوجود [١]﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ وقضى لكم وقسم ، لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول من السماء ، حيث كتب في اللوح : كل كائن يكون. أو أحدث لكم بأسباب نازلة كأشعة الكواكب والأمطار ﴿الْأَنْعامِ﴾ الإبل والبقر والغنم . الضأن والمعز ﴿ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ أي جعل من كل صنف من الإبل والبقر والضأن والمعز ذكرا وأنثى. وهي جمع أزواج ، والزوج : اسم لكل واحد معه غيره ، فإن انفرد فهو فرد ﴿خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي بالتدرج من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام مكسوة لحما ﴿فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾ هي ظلمة البطن وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة أو الصلب ﴿ذلِكُمُ﴾ الذي هذه أفعاله ﴿اللهُ رَبُّكُمْ﴾ هو المستحق للعبادة والمالك ﴿لَهُ الْمُلْكُ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ عن إيمانكم ﴿وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ﴾ رحمة عليهم ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنه سبب فلا حكم ، أي وإن تشكروا الله فتؤمنوا يرض الشكر لكم ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ لا تتحمل نفس آثمة ذنب نفس أخرى ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ بحديث النفس ، فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى في الآية المتقدمة كونه منزها عن الولد بكونه إلها واحدا قهارا غالبا ، أي كامل القدرة ، أعقبه ببيان الأدلة الدالة على الوحدانية وكمال القدرة وكمال الاستغناء عن أحد من خلقه ، فذكر ثلاثة أدلة : خلق السموات والأرض وما فيهما من العوالم ، وتذليل الشمس والقمر لقدرته ، وتسييرهما في نظام ومسار دقيقين ، وخلق الإنسان الأول وتشعيب الخلق منه ، وخلق ثمانية أزواج من أنواع الأنعام ذكرا وأنثى ، وفي كل دليل من هذه الأدلة أدلة ثلاثة أبينها بمشيئة الله هنا.

---

(١) يعني أن ثُمَّ كما تكون للترتيب في الزمن مع التراخي ، تكون أيضا لمطلق الترتيب. والمعطوف عليه هنا مقدر هو خلقها.

التفسير والبيان :

الدليل الأول وأقسامه من العالم العلوي :

أ . ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ أبدع وأوجد العالم العلوي من السموات والأرض إبداعا قائما على الحق والصواب ، لأغراض ضرورية وحكم ومصالح ، فلم يخلقهما باطلا وعبثا ، وجعلهما في أبدع نظام. وهذا يدل على وجود الإله القادر ، وعلى استحالة أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد ، فهو واحد ، كامل القدرة ، كامل الاستغناء عن غيره.

ب . ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي يغشي كلا منهما الآخر ، حتى يذهب ضوءه أو ظلمته ، أو يجعلهما متتابعين متعاقبين ، يطلب كل منهما الآخر طلبا حثيثا ، كقوله تعالى : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ، يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ [الأعراف ٧ / ٥٤] وقوله سبحانه : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد ٥٧ / ٦].

وهذا دليل على كروية الأرض أولا : لأن التكوير : اللف على الجسم المستدير ، وعلى دورانها حول نفسها ثانيا ، لأن تعاقب الليل والنهار والنور والظلمة لا يتم دون دوران.

ج . ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي وجعلهما منقادين لأمره بالطلوع والغروب لمنافع العباد ومصالحهم ، وكل منهما يسير في فلكه إلى منتهى دورته ، وإلى وقت معين محدود في علم الله ، وهو انتهاء الدنيا ، ومجيء القيامة ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٤].

وذيّل الآية بالدلالة على المراد وهو إثبات كمال القدرة الإلهية مع الترغيب في طلب المغفرة ، فقال :

﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ أَلا﴾ : تنبيه ، أي تنبهوا ، أي إن خلق هذا العالم العلوي وأجرامه العظيمة من غالب قادر على الانتقام ممن عاداه ، ساتر لذنوب عباده بالمغفرة ، ولا أحد مثله في ذلك ، والجمع بين هاتين الصفتين للدلالة على أنه مع عزته وعظمته وكبريائه وكمال قدرته ، هو غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان ، يغفر لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه ، فإن الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة ، فأتبعه بوصف ﴿الْغَفَّارُ﴾ الذي يوجب كثرة الرحمة ، وكثرة الرحمة لا تعني الطمع من دون فعل ، وإنما توجب الرجاء والرغبة في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص له. والخلاصة : إن هذا التذييل للترغيب في العمل الموجب للمغفرة ، بعد الترهيب الموجب للحذر.

ثم أتبعه بدليل آخر :

الدليل الثاني وأقسامه من العالم السفلي :

أ . ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾ أي خلقكم أيها الناس على اختلاف أجناسكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة ، هي آدم عليه السلام ، ثم جعل من جنسها [١] زوجها ، وهي حواء ، ثم شعّب الخلق منهما ، كما قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها ، وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً﴾ [النساء ٤ / ١] وهذا الجزء من الدليل في عالم الأرض مشتمل كما هو واضح على أدلة ثلاثة. والمشهور في قوله : ﴿مِنْها﴾ أنه خلق حواء من ضلع آدم ، ولم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها.

ب . ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ أي وقضى لكم وقسم وخلق وأعطاكم من ظهور الأنعام (وهي الإبل والبقر والضأن والمعز) ثمانية أزواج من كل صنف ذكرا وأنثى ، كما قال تعالى : ﴿ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ

---

(١) وهذا رأي الرازي.

﴿الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٣] أي ذكر وأنثى لكل منها.

ج . ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾ أي يبتدئ خلقكم ويقدره في بطون أمهاتكم في مراحل متدرجة من الخلق ، حيث يكون أحدكم أولا نطفة ، ثم يكون علقة ، ثم يكون مضغة ، ثم يتكون العظام ، ثم تكسى العظام باللحم والعروق والأعصاب ، ثم تنفخ فيه الروح ، فيصير إنسانا خلقا آخر في أحسن تقويم.

وتكون مراحل الخلق في ظلمات أغشية ثلاثة ، هي ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، والأغشية ـ كما يقول الأطباء ـ : هي الغشاء المنباري ، والخربون ، والغشاء اللفائفي.

ثم ذيّل هذه الآية كالآية السابقة بما يشير إلى الهدف وهو الإيمان بالموجد الخالق المنشئ ، فقال تعالى :

﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لَهُ الْمُلْكُ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، وخلق الإنسان هو الرب المربي لكم ، الذي له الملك الحقيقي المطلق في الدنيا والآخرة ، الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو ، ولا يشاركه أحد فيه ، فلا تنبغي العبادة إلا له ، فكيف تصرفون عن عبادته ، مع ما يوجب استحقاقه لها ، إلى عبادة غيره؟ أو كيف تعبدون معه غيره ، وكيف تتقبل عقولكم ذلك؟

ثم أبان الله تعالى أن ثمرة هذه العبادة لكم ، والله غني على الإطلاق ، فقال :

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ أي إن تكفروا بالله بعد توافر أدلة وجوده وتوحيده وقدرته ، فإن الله هو الغني عما سواه من المخلوقات ، كما قال

تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٨].

وفي صحيح مسلم : «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا».

ثم ذكر الله تعالى ما يأمر به ويرضاه وما ينهى عنه ولا يرضاه ، فقال :

﴿وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي لا يحب الله تعالى الكفر ولا يأمر به ، لأنه مرتع الضلال والانحراف والذل لمعبودات لا ضرر منها ولا نفع فيها ، وهو سبب الشقاوة في الدارين.

وإن تشكروا الله على نعمه ، يرض لكم الشكر ويحبه ويزدكم من فضله ، لأن الله عزّ وجلّ هو سبب السعادة في الدنيا والآخرة.

ثم أعلن الله تعالى مبدأ المسؤولية الفردية في الدنيا والآخرة الذي هو من مفاخر الإسلام ، فقال :

﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئا من الآثام والذنوب والجرائم ، بل كل إنسان مطالب بأمر نفسه وعمله من خير أو شر. وقد وردت هذه الآية في القرآن الكريم خمس مرات. وهي كقوله تعالى : ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور ٥٢ / ٢١] وقوله : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر ٧٤ / ٣٨].

والجزاء على قدر العمل ، فقال تعالى :

﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أي ثم مآلكم ومصيركم إلى ربكم يوم القيامة ، فيخبركم بأعمالكم من خير وشر ، إنه خبير بما تضمره القلوب وتستره أي مكنونات النفوس ، فلا تخفى عليه خافية.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات الكريمات على الآتي :

١ ـ الأدلة على وجود الله وتوحيده وكمال قدرته واستغنائه عن الصاحبة والولد : هي خلق السموات والأرض وما بينهما ، وتعاقب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر لمصالح العباد والمخلوقات ، وخلق الإنسان في أصله أو باتخاذ الأسباب الظاهرية ، وخلق ثمانية أزواج أو أصناف من الأنعام ، من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن المعز اثنين ، كل واحد زوج ، والأزواج ثمانية تشمل الذكر والأنثى.

٢ ـ دل تكوير الليل على النهار ، وتكوير النهار على الليل على كروية الأرض ودورانها حول نفسها.

٣ ـ ودل تسخير الشمس والقمر بالطلوع والغروب لمنافع العباد ، وجريانهما في فلكهما إلى يوم القيامة ، على كمال قدرة الله ودقة نظامه ومراعاته مصالح العباد.

٤ ـ ينبه الله تعالى على أنه عزيز غالب ، غفار ستّار لذنوب خلقه برحمته ، وفي هذا جمع بين الرهبة والرغبة ، رهبة من الله عَزَّوَجَلَّ ، ورغبة في إخلاص العبادة والطاعة لله تعالى.

٥ ـ مراحل خلق الإنسان تحدث متعاقبة متدرجة من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، إلى عظم ثم لحم. ويبدأ تكون الإنسان في داخل ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة.

٦ ـ إن الله الذي خلق هذه الأشياء هو ربكم مربيكم ، وهو المالك الواحد الأحد ، كما قال تعالى : ﴿**رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**﴾.

فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟

٧ ـ إذا كفر جميع الناس فلا يضرّون الله ، والله هو الغني عنهم ، لكن لا يرضى الله الكفر لعباده ولا يحب ذلك منهم ، وإن شكروه رضي بالشكر وأمر به ، ومصير جميع الخلائق إلى ربهم ، فيخبرهم بما قدموا من خير أو شر.

والآية دليل على أن الإرادة غير الرضا ، وهو مذهب أهل السنة ، فقد يريد الله شيئا ، لكن لا يرضى به ، فهو يريد كون ما لا يرضاه ، وقد أراد الله عَزَّوَجَلَّ خلق إبليس ، وهو لا يرضاه ، والرضا : ترك اللوم والاعتراض ، وليس هو الإرادة.

٨ ـ من مفاخر الإسلام ومبادئه الكبرى تقرير مبدأ المسؤولية الشخصية : ﴿**وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى**﴾ وذلك يدفع إلى العمل ، ويمنع الخمول والكسل ، ويخلّص الناس من فكرة النصارى بإرث الخطيئة ، ويفتح باب الأمل لبناء الإنسان نفسه ومجده والاعتماد على نفسه ، دون تأثر بأفعال الآخرين ، وذلك غاية التكريم الإلهي للإنسان.

٩ ـ دل قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ**﴾ على إثبات البعث والقيامة ، ودل قوله سبحانه : ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**﴾ على شمول علم الله بالكليات والجزئيات ، وبالكبائر والصغائر ، وبالفعل الحاصل والقول المقول ، وبما يسبقه من نية وحديث نفس وعزم وهمّ وغير ذلك من مراحل تكوين الفعل والقول.

تناقض الكفار واستقامة المؤمنين

﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (٩)﴾

الإعراب :

﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ أَمَّنْ﴾ بالتشديد : بإدخال «أم» بمعنى بل والهمزة على «من» بمعنى الذي ، وليس بمعنى الاستفهام ، لأن «أم» للاستفهام ، فلا يدخل على ما هو استفهام. وفي الكلام محذوف تقديره : العاصون ربهم خير أم من هو قانت ، ودخل على هذا المحذوف أيضا : ﴿قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾. وقرئ بالتخفيف على أن تكون الهمزة للاستفهام بمعنى التنبيه ، ويكون في الكلام محذوف تقديره : أمن هو قانت يفعل كذا كمن هو على خلاف ذلك.

ودخل على هذا المحذوف : ﴿قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي ..﴾ أو أن تكون الهمزة للنداء ، وتقديره : يا من هو قانت أبشر فإنك من أهل الجنة ، لأن ما قبله يدل عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ﴾. و ﴿يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ في موضع الحال ، أو الاستئناف للتعليل.

البلاغة :

﴿يَرْجُوا يَحْذَرُ﴾ بينهما طباق.

﴿قُلْ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ أمر أريد به التهديد ، مثل ﴿اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٥ ومواضع أخرى].

﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ﴾ إيجاز بالحذف ، أي كمن هو كافر.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ﴾ أي الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ شدة ﴿دَعا رَبَّهُ﴾ تضرع ﴿مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ راجعا إليه ﴿خَوَّلَهُ نِعْمَةً﴾ أعطاه إنعاما وملكه ﴿نَسِيَ﴾ ترك الضر ﴿ما كانَ يَدْعُوا﴾ الذي يتضرع إلى كشفه ﴿إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وهو الله ، من قبل النعمة ﴿أَنْداداً﴾ شركاء ، جمع ندّ ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ عن سبيل دين الإسلام ، وقرئ ليضل وكل من الضلال والإضلال نتيجة ، وليسا غرضين.

﴿قُلْ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ بقية أجلك ، وهو أمر تهديد ، فيه إشعار بأن الكفر نوع تشهي لا سند له ، وإقناط للكافر من التمتع في الآخرة ، ولذلك علله بقوله : ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ﴾ هذا استئناف على سبيل المبالغة.

﴿قانِتٌ﴾ طائع خاشع ﴿آناءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاته ﴿وَقائِماً﴾ للصلاة ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ يخاف عذابها ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي جنته ، وفي الكلام محذوف تقديره : كمن هو عاص بالكفر أو غيره ﴿قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ نفي لاستواء الفريقين ، أي لا يستويان ، وكما لا يستوي العالمون والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصون ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ ﴿أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أصحاب العقول.

سبب النزول :

نزول الآية (٩):

﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ﴾؟ : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله : ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ﴾ الآية ، قال : نزلت في عثمان بن عفان ، وأخرج ابن سعد عن ابن عباس قال : نزلت في عمار بن ياسر. وأخرج جويبر عن ابن عباس قال : نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة.

المناسبة :

بعد بيان فساد مذهب المشركين في عبادة الأصنام ، وأنه لا دليل لهم على عبادتها ، وبيان أن الله تعالى هو الذي يجب أن يعبد ، وأن الله غني عما سواه من المخلوقات لا يفتقر إلى عبادتهم ، ذكر الله تعالى هنا تناقض الكفار بالرجوع إلى

الله وقت الشدة ، وتركه وقت الرخاء. ثم أردفه ببيان مدى صلابة المؤمنين في دينهم ، وتمسكهم بمبدئهم ، فهم لا يرجعون إلا إلى الله ، ولا يعتمدون إلا على فضل الله.

التفسير والبيان :

﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ، نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ هذا موقف متناقض من الكفار ، فإذا أصاب الكافر شدة من مرض أو فقر أو خوف ، تضرع إلى ربه ، راجعا إليه تائبا ، مستغيثا به في تفريج كربته ، وكشف ما نزل به ، ثم إذا منحه نعمة أو أعطاه وملكه ، وصار في حال رخاء ورفاهية ، نسي ذلك الدعاء والتضرع ، أو نسي ربه الذي كان يدعوه من قبل.

وجعل لله شركاء من الأصنام أو غيرها ، يعبدها ، ليصير وتكون نتيجته وعاقبته الضلال والإضلال ، يضل بنفسه ، ويضل الناس بعمله هذا ويمنعهم من توحيد الله والدخول في الإسلام ، فسبيل الله : الإسلام والتوحيد ، والأنداد الأوثان والأصنام ، ولام ﴿لِيُضِلَ﴾ لام العاقبة.

والمعنى الأول (وهو أنه عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله) مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ، ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٧].

والمعنى الثاني (وهو أنه في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع) مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ ، مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس ١٠ / ١٢].

والمعنى الثالث (جعل الأنداد الشركاء لله) كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات ١٠٠ / ٦].

لكل هذا هدد الله وأوعد ذلك الكافر المتناقض على ما فعل ، فقال :

﴿قُلْ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ﴾ قل أيها الرسول لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه : استمتع أيها الإنسان بكفرك تمتعا قليلا أو زمانا قليلا هو مدة أجلك ، فمتاع الدنيا قليل ، فإنك في الآخرة من أصحاب النار الخالدين فيها أبدا ، ومصيرك إليها عن قريب ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ : تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٣٠] وقوله سبحانه : ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٤].

ثم ذكر الله تعالى أحوال المؤمنين القانتين الذين لا يعتمدون دائما إلا على ربهم ، فقال :

﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي أذلك الكافر أحسن حالا ومآلا ، أم المؤمن بالله ، الذي هو مطيع خاشع يصلي لله في ساعات الليل ، وخشوعه مستمر حال سجوده وحال قيامه ، يخاف الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، فيجمع بين الخوف والرجاء ، وتلك هي العبادة الكاملة ، التي يفوز بها صاحبها؟! الجواب واضح. قال أبو حيان : وفي الآية دليل على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار.

﴿قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أي هل يستوي العلماء والجهال؟ إنما يتعظ بآيات الله ويتدبرها أهل العقول السليمة ، لا الجهلاء ، وإنما يعرف الفرق بين الصنفين العاقل ، لا الجاهل.

لا يستوي الفريقان ، فإن العالم الذي يدرك الحق ويعرف منهج

الاستقامة ، فيتبعه ويعمل به ، لا يستوي أبدا مع الجاهل الذي يخبط خبط عشواء ، ويسير في متاهة وضلال.

والمراد بالإتيان بهذه الآية لنفي استواء الفريقين بطريق الاستفهام : هو تأكيد نفي المساواة بين الفريقين الأولين : الكافر المتناقض والمؤمن المطيع الخاشع ، فكما أنه لا يستوي العالم والجاهل ، لا يستوي المؤمن والمشرك الذي جعل لله أندادا ليضل عن سبيل الله ، الأول في قمة الخير والعلم ، والآخر في أسفل دركات الشر والجهل.

قال أبو حيان : دلت الآية على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين : العلم والعمل ، فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. والمراد بالعلم هنا : ما أدى إلى معرفة الله ، ونجاة العبد من سخطه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى وجود موقفين متعارضين بين الناس ، فريق الكافرين وفريق المؤمنين.

أما الكافر : فهو متناقض ، تراه يستغيث بالله راجعا إليه مخبتا مطيعا له إذا أصابته شدة من مرض أو فقر أو خوف ، لإزالة تلك الشدة عنه ، فإن سلم ونجا وعوفي ، وصار في حال اطمئنان واستقرار ورخاء ورفاهية ، بفضل من الله وحده ، نسي ربه الذي كان يدعوه من قبل في كشف الضر عنه.

ولا يقتصر أمره على مجرد النسيان والهجر أو الترك ، وإنما يتجاوز ذلك إلى اعتقاد الشرك بالله ، واتخاذ الأوثان والأصنام شركاء لله.

بل لا يقتصر في ذلك على أن يضل نفسه ، بل يضل غيره بفعله أو قوله ، ويدعوه إلى أن يشاركه في ذلك ، فيزداد إثما على إثمه.

لهذا حق أن يوجّه له التهديد الشديد والوعيد الأكيد بأن يتمتع بكفره زمنا قليلا ، فإن مصيره في النهاية إلى النار.

وأما المؤمن : فهو سوي غير متناقض ، مستقيم غير مضطرب ، صلب في دينه غير متزعزع ، يثبت في جميع أحواله على حال واحدة ، من الإيمان الراسخ بالله ، والاستقامة على أمر الله ، فهو إذن ليس كالكافر الذي مضى ذكره.

تراه مصليا خاشعا لربه في جنح الظلام ، والناس نيام ، يناجي ربه ، جامعا بين الخوف والرجاء.

ثم أكد الله تعالى وجه الفرق بين المؤمن والكافر بالمقارنة بين العالم والجاهل ، فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. ثم إن الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به ، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به ، فهو بمنزلة من لم يعلم ، وفي هذا إشارة إلى أن الكافر أو المشرك أو العاصي جاهل وإن كان عالما بعلوم الدنيا ، فإنما يتذكر ويعتبر ويتعظ بهذه المقارنات أصحاب العقول من المؤمنين.

ويلاحظ الترتيب في تعداد أوصاف المؤمن ، بدأ فيها بذكر العمل في وصفه بكونه قانتا ساجدا قائما ، ثم ختمها بذكر العلم في قوله : ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في العمل والعلم ، فالعمل هو البداية ، والعلم هو النهاية.

ثم إنه تعالى نبّه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل بالمواظبة عليه ، فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائما دائما بما يجب عليه من الطاعات.

وقوله تعالى : ﴿قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ..﴾ تنبيه عظيم على فضيلة العلم وفضل العلماء.

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ يدل على أن إدراك التفاوت بين العلماء والجهال ومعرفته لا يكون إلا من أولي الألباب ، أي العقول السليمة.

قيل لبعض العلماء : إنكم تقولون : العلم أفضل من المال ، ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك ، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء؟ فأجاب العالم بأن هذا أيضا يدل على فضيلة العلم ، لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه ، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع ، فلا جرم تركوه [١].

نصائح للمؤمنين في العبادة ووعدهم ووعيد عبدة الأصنام

﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٨) أَفَمَنْ

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦ / ٢٥١

حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ (٢٠)﴾

الإعراب :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ حَسَنَةٌ﴾ : مبتدأ ، وخبره : الجار والمجرور قبله ، و ﴿فِي﴾ يتعلق ب ﴿أَحْسَنُوا﴾ إذا أريد بالحسنة : الجنة ، وب ﴿حَسَنَةٌ﴾ إذا أريد بالحسنة ما يعطى للعبد في الدنيا ، مما يستحب فيها ، والوجه الأول أوجه ، لأن الدنيا ليست بدار جزاء.

﴿قُلِ : اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي اللهَ﴾ : منصوب ب ﴿أَعْبُدُ﴾ و ﴿مُخْلِصاً﴾ : حال من ضمير ﴿أَعْبُدُ﴾ أو من ضمير ﴿قُلِ﴾ و ﴿دِينِي﴾ مفعول ﴿مُخْلِصاً﴾

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها أَنْ﴾ : مصدرية في موضع نصب بدل من مفعول ﴿اجْتَنَبُوا﴾ تقديره : والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت. و ﴿لَهُمُ الْبُشْرى لَهُمُ﴾ : في موضع رفع خبر المبتدأ الذي هو ﴿الَّذِينَ﴾ و ﴿الْبُشْرى﴾ مرفوع ب ﴿لَهُمُ﴾ لوقوعه خبرا للمبتدأ.

البلاغة :

﴿فَوْقِهِمْ﴾ و ﴿تَحْتِهِمْ﴾ بينهما طباق.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ﴾ جناس اشتقاق.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ أسلوب تهكمي ، لأن إطلاق الظلة على النار المحرقة تهكم.

﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ..﴾ وضع فيه الظاهر موضع ضمير ﴿الَّذِينَ اجْتَنَبُوا﴾ للدلالة على مبدأ اجتنابهم والتمييز بين الحق والباطل.

﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير ، للدلالة على أنه واقع في العذاب.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ مقابلة بين حال أهل النار وحال أهل الجنة.

﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ مجاز مرسل ، أطلق المسبب (دخول جهنم) وأراد السبب (الكفر والضلال) ، لأن الضلال سبب لدخول النار.

المفردات اللغوية :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ عذاب ربكم بلزوم طاعته. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا مثوبة حسنة في الآخرة ، وقيل : حسنة في الدنيا هي الصحة والعافية. ﴿وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه الإحسان بالطاعة في وطنه ، فليهاجر إلى مكان يتمكن فيه من الطاعة وترك المنكرات ومخالطة الكفار. ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لأجل الطاعة. ﴿أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ بغير مكيال ولا ميزان.

﴿مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ أي أعبده عبادة خالصة من الشرك والرياء ، موحدا له. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ بأن أكون. ﴿أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة. ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء. ﴿عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظمة ما فيه. ﴿قُلِ : اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ من الشرك ، وهو أمر بالإخبار عن إخلاصه وأن يكون مخلصا له دينه ، بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأمورا بالعبادة والإخلاص خائفا على المخالفة من العقاب ، قطعا لأطماعهم ، ولذا رتب عليه قوله :

﴿فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ غيره ، وهذا تهديد لهم. ﴿الْخاسِرِينَ﴾ أي الكاملين في الخسران الذين خسروا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بالضلال ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالإضلال ، ونوع الخسارة : التخليد في النار وعدم الوصول إلى الجنة. ﴿الْمُبِينُ﴾ البيّن الواضح ﴿ظُلَلٌ﴾ طبقات من النار ، جمع ظلّة. ﴿ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ﴾ ذلك العذاب هو الذي يخوف به عباده المؤمنين ليتقوه ، بدليل نهاية الآية : ﴿يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾.

﴿الطَّاغُوتَ﴾ البالغ غاية الطغيان ، فهو مشتق من الطغيان للمبالغة ، والتاء فيه مزيدة للتأكيد مثل رحموت وملكوت (واسع الرحمة والملك) والطاغوت : كل ما عبد من دون الله من الأوثان وغيرها. ﴿أَنْ يَعْبُدُوها﴾ بدل اشتمال من الطاغوت. ﴿وَأَنابُوا إِلَى اللهِ﴾ أقبلوا ورجعوا. ﴿لَهُمُ الْبُشْرى﴾ بالجنة والثواب. ﴿هَداهُمُ اللهُ﴾ لدينه. ﴿أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أصحاب العقول.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ؟ حَقَ﴾ ثبت ووجب ، و ﴿تُنْقِذُ﴾ تخرج ، والهمزة للإنكار ، والكلام جملة شرطية معطوفة على محذوف ، دل عليه الكلام تقديره : أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه العذاب ، فأنت تنقذه. والمعنى : لا تقدر على هدايته ، فتنقذه من النار.

﴿اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بأن أطاعوه. ﴿غُرَفٌ﴾ جمع غرفة وهي الحجرة. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ أي من تحت تلك الغرف. ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ مصدر مؤكد ، منصوب بفعله المقدر ، لأن

قوله : ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ في معنى الوعد. ﴿لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ﴾ الوعد ، لأن الخلف نقص ، وهو على الله تعالى محال.

سبب النزول :

نزول الآية (١٧ . ١٨):

﴿فَبَشِّرْ عِبادِ﴾ : أخرج جويبر عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت ﴿لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ﴾ الآية ، أتى رجل من الأنصار النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إني لي سبعة مماليك ، وإني قد أعتقت لكل باب منها مملوكا ، فنزلت فيه الآية : ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

نزول الآية (١٧):

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر ، كانوا في الجاهلية يقولون : ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾ : زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبي ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي.

المناسبة :

بعد نفي المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم ، أمر الله تعالى رسوله صلي الله عليه وآله وسلم بأن ينصح المؤمنين بجملة نصائح تتضمن الأمر بالتقوى والاستمرار بالطاعة ، والأمر بإخلاص الدين لله في العبادة ، حتى تكون خالية من الشرك والرياء ، والتحذير من خسارة النفس والأهل لئلا يصلوا نار جهنم ، ثم ذكر الله تعالى تهديده ووعيده لعبدة الأصنام ، وأردفه بوعد المبتعدين عن عبادتها وعن كل ألوان الشرك ، ليقترن الوعد بالوعيد ، والترهيب بالترغيب ، كما هي عادة القرآن.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا ، اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ قل أيها الرسول : يا عباد الله

الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا ، اتقوا عذاب ربكم باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والاستمرار على طاعته وتقواه.

وعلة الأمر :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ﴾ لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في الدنيا وهي الصحة والعافية والظفر والغنيمة والعزة والسلطان ، وفي الآخرة وهي الجنة والمثوبة الطيبة الجزيلة. وتنكير ﴿حَسَنَةٌ﴾ للتعظيم للدلالة على كمالها.

ثم رغبهم في الهجرة للتمكن من التقوى والطاعة ، فقال :

﴿وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ﴾ أي إذا لم تتمكنوا من التقوى في بلد ، فهاجروا إلى حيث تمكن طاعة الله ، والعمل بما أمر به ، والترك لما نهى عنه ، وجاهدوا ، واعتزلوا الأوثان ومستنقعات الكفر ، أسوة بالأنبياء والصالحين ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها﴾ [النساء ٤ / ٩٧].

ثم ذكر أجرهم على الهجرة والصبر على مفارقة الأوطان ، فقال :

﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ أي إنما يوفيهم الله أجرهم في الجنة في مقابلة صبرهم على الهجرة وترك الأوطان بغير حساب ، أي بغير كيل ولا وزن ، وبما لا يقدر على حصره وحسبانه حاصر وحاسب.

وهذا دليل على أن مجرد الإيمان بالقلب أو إعلان الإسلام دون تقوى ولا عمل بأوامر الله واجتناب نواهيه لا يكفي إطلاقا.

ثم ضم تعالى إلى الأمر بالتقوى الأمر بالإخلاص في العبادة والطاعة ، فقال :

﴿قُلْ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده ، إخلاصا خاليا من الشرك والرياء وغير ذلك. وهذا وإن كان

أمرا للرسول صلي الله عليه وآله وسلم ، فهو لوم على عبادة الأوثان ، من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة».

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأمرت بأن أكون أول المسلمين من هذه الأمة في مخالفة دين الآباء الوثنيين ، وتوحيد الله ، وأول من انقاد لله تعالى من أهل العصر أو القوم ، لأنه أول من خالف عبّاد الأصنام.

﴿قُلْ : إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين عبدة الأوثان : إني أخشى إن عصيت ربي بترك إخلاص العبادة له وتوحيده ، وترك الدعوة المعادية للشرك وتضليل أهله عذاب يوم شديد الهول ، وهو يوم القيامة. وهذا تعريض بهم بطريق الأولى والأحرى.

ثم أكد الأمر بالإخلاص في الطاعة للدلالة على أنه يعبد الله وحده ، ولترسيخ المعنى في الأذهان ، فقال : ﴿قُلِ : اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين مرة أخرى : أمرني ربي أن أعبده وحده لا شريك له [١] ، وأن يكون تعبّدي خالصا لله غير مشوب بشرك ولا رياء ولا غيرهما ، فلا أعبد غيره ، لا استقلالا ، ولا على جهة الشركة.

ثم هددهم وأوعدهم قائلا :

﴿فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي اعبدوا ما أردتم أن تعبدوه من غير الله ، من الأوثان والأصنام ، فسوف تجازون بعملكم ، وهذا الأمر للتهديد والتقريع والتوبيخ والتبرؤ منهم.

---

(١) إن تقديم المفعول في الآية : اللهَ أَعْبُدُ على الفعل يفيد القصر ، أي لا أعبد أحدا غير الله.

ثم حذرهم من عاقبة الخسران يوم القيامة قائلا :

﴿قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ أي قل لهم أيها الرسول : إنما الخاسرون كل الخسران هم الذين خسروا أنفسهم بالضلال والشرك والمعاصي ، وخسروا أتباعهم من الأهل حيث أضلوهم وأوقعوهم في العذاب الدائم يوم القيامة ، وهذا هو الخسران البيّن الظاهر الواضح ، فلا خسران أعظم منه ، إذ لا مجال لتعويض الخسارة.

ثم وصف حالهم في النار لبيان نوع الخسران فقال :

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي لهم أطباق متراكمة من النار الملتهبة عليهم ، من فوقهم ومن تحتهم ، أي أن النار محيطة بهم من كل جانب ، كما قال تعالى : ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ ، وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٤١] وقوله : ﴿يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، وَيَقُولُ : ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٥٥].

وسمى ما تحتهم ظللا ، لأنها تظلل من تحتها من أهل النار ، ففي كل طبقة من طبقات النار طائفة من طوائف الكفار.

﴿ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ ، يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي ذلك العذاب الشديد الذي يخبر به الله خبرا كائنا لا محالة ليرهب به عباده ، لينزجروا عن المعاصي والمآثم والمحارم ، فيا عبادي اخشوا بأسي وسطوتي ، وعذابي ونقمتي. وهذا التحذير والتنبيه نعمة عظمى صادرة من فيض رحمة الله وفضله ، حتى لا يفاجأ الناس بالعذاب ، ومن أنذر فقد أعذر.

وبعد إيراد هذا الوعيد لعبدة الأصنام ، ذكر الله تعالى وعده لمن اجتنب عبادتها ، فقال:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللهِ ، لَهُمُ الْبُشْرى﴾ أي والذين أعرضوا عن عبادة الأصنام والشيطان ، وأقبلوا على عبادة الله معرضين عما سواه ، لهم البشارة العظمى بالثواب الجزيل ، وهو الجنة ، إما على ألسنة الرسل ، أو حين الموت أو عند البعث. وهي بشارة شاملة لمن نزلت الآية في حقهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والآية كقوله تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس ١٠ / ٦٤].

والطاغوت [١] : يطلق على الواحد والجمع ، ويشمل عبادة الأوثان والشيطان ، لأن الشيطان هو الآمر بتلك العبادة والمزيّن لها ، فهو سبب الكفر والعصيان.

﴿فَبَشِّرْ عِبادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي بشر بالجنة أيها الرسول عبادي المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، والذين يستمعون القول الحق ، من كتاب الله وسنة رسوله ، فيفهمونه ، فيتبعون أحسن ما يؤمرون به ، فيعملون بما فيه ، كما قال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٥].

وهذا مدح لهم بأنهم نقّاد في الدين يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل.

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة هم الذين وفقهم للصواب في الدنيا والآخرة ، وهم ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة.

---

(١) وقرئ : الطواغيت.

ثم بيّن تعالى أضداد المذكورين قائلا :

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ ، أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي أأنت مالك أمر الناس ، فمن وجب عليه العذاب لإعراضه وعناده ، فأنت تخلصه من النار؟ والمعنى : إنك لا تقدر على هدايته ، فتنقذه من عذاب النار. والآية تسلية لرسول الله صلي الله عليه وآله وسلم ، لأنه كان حريصا على إيمان قومه ، فأعلمه الله أن من كان من أهل الضلالة والهلاك ، لا تستطيع هدايته.

ثم أعاد الله تعالى الإخبار عن جزاء المتقين السعداء للحض على التقوى ، فقال :

﴿لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ﴾ أي لكن أولئك الذين اتقوا عذاب ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، لهم في الجنة غرف مبنية محكمة البناء ، وهي القصور الشاهقة ذات الطبقات المزخرفات العالية ، لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض ، والنار دركات بعضها تحت بعض ، والجنة تجري فيها من تحت تلك الغرف أنهار عذبة الماء ، وفي ذلك كمال بهجتها وزيادة رونقها ، ثم أكد تعالى حسن هذا الجزاء ، فأخبر أنه وعد من الله وعده للمتقين المؤمنين ، ووعد الله حق ثابت ، لا ينقض ولا يخلف.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ أمر الله المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى : وهي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، مما يدل على أن الإيمان وحده لا يكفي ، كما يدل على أن الإيمان يبقى مع المعصية.

٢ ـ للتقوى فوائد جلّى ، فللمتقين حسنة في الدنيا من صحة وعافية ونصر

وسلطان وجاه وغنى ، وحسنة في الآخرة بالثواب الجزيل والعطاء الكثير الدائم.

٣ ـ لا عذر للمقصرين في الإحسان والطاعة ، فمن صد عن طاعة الله في بلد ، فعليه المهاجرة إلى بلد آخر يتمكن فيه من الاشتغال بالطاعات والعبادات ، اقتداء بالأنبياء والصالحين في هجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم.

والمقصود من الآية ﴿وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ﴾ الترغيب في الهجرة من مكة حيث كانت واجبة في صدر الإسلام ، والصبر على مفارقة الأوطان.

٤ ـ الصبر : هو الرضا بمفارقة الأوطان والأهل ، واحتمال البلايا وفجائع الدنيا في طاعة الله تعالى. وثواب الصبر مفتوح غير مقيد بحدود ، فكل من رضي بما أصابه ، وترك ما نهي عنه ، فلا مقدار لأجره. وهذا يشابه ثواب الصوم ، لقوله صلي الله عليه وآله وسلم عن ربه فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : «الصوم لي وأنا أجزي به».

عن الحسين رضي الله عنهما قال : سمعت جدي رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم يقول : «أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس ، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس ، يا بني إن في الجنة شجرة يقال لها : شجرة البلوى ، يؤتى بأهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصبّ عليهم الأجر صبّا» ثم تلا النبي صلي الله عليه وآله وسلم : ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾.

قال النحاس : لفظ صابر يمدح به ، وإنما هو لمن صبر عن المعاصي ، وإذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت : صابر على كذا.

ثم إن الأجر على الصبر إنما هو بحسب الوعد من الله ، لا بحسب الاستحقاق.

٥ ـ أمر الله تعالى رسوله صلي الله عليه وآله وسلم مرتين في هذه الآيات للتأكيد بإخلاص

العبادة والطاعة لله وحده لا شريك له ، دون أن تكون مشوبة بشائبة الشرك أو الرياء أو غير ذلك. وأمة الرسول صلي الله عليه وآله وسلم من بعده مأمورة بذلك ، لأن أمر الرسول صلي الله عليه وآله وسلم أمر للأمة ، والبدء به تعليم وإرشاد وجعله قدوة لأمته.

كذلك أمر الله تعالى رسوله صلي الله عليه وآله وسلم بأن يكون أول المسلمين من هذه الأمة ، وكان ذلك فعلا ، فإنه كان أول من خالف دين آبائه ، وخلع الأصنام وحطمها ، وأسلم لله وآمن به ، ودعا إلى ذلك.

وأمر الرسول صلي الله عليه وآله وسلم أيضا بأن يخاف عذاب يوم القيامة.

وكل هذه الأوامر تعريض بالمشركين وتعليم وإرشاد للمؤمنين.

٦ ـ قوله تعالى : ﴿فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ليس إباحة ولا إذنا وإقرارا لعبادتهم الأصنام ، وإنما هو أمر تهديد ووعيد وتقريع ، كقوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٠] وقوله : ﴿اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٥].

٧ ـ إن الخسارة الكبرى التي لا تعوض للمشركين والكافرين هي خسارة النفس والأهل يوم القيامة بسبب الضلال عن الدين الحق ، والإضلال للأتباع عن دين الله. قال ابن عباس : ليس من أحد إلا وخلق الله له زوجة في الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله. ومن عمل بطاعة الله ، كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١٠].

٨ ـ للكفار عذاب يحيط بهم من كل جانب في نار جهنم يوم القيامة. وهو عذاب شديد ، لذا خوّف الله به عباده المؤمنين وأولياءه المتقين ، فيا أولياء الله ، اتقوا الله ربّكم من هذا العذاب ، بإخلاص التوحيد والطاعة. وهذا وعيد شديد لعبدة الأصنام.

٩ ـ وعد الله بالجنة المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الأوثان والشياطين الذي زين لهم تلك العبادة ، والذين أنابوا إلى الله ، أي رجعوا بالكلية إلى عبادته وطاعته.

وهؤلاء فعلا هم الذين انتفعوا بعقولهم ، وهم الذين ميّزوا بين الحق والباطل ، وبين الحسن والقبيح ، ففهموا أوامر الله ، واتبعوا كتاب الله وسنة رسوله صلي الله عليه وآله وسلم.

١٠ ـ الهداية بيد الله تعالى وحده ، لذا خاطب الله رسوله صلي الله عليه وآله وسلم مسليا له : أفأنت تنقذ من النار من حقت عليه كلمة العذاب؟ ويلاحظ أن الهداية والضلال من خلق الله تعالى وإيجاده ، كخلق جميع أعمال الإنسان ، أما تحصيلهما واكتسابهما واختيارهما فمن العبد ، قال تعالى : ﴿**مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً**﴾ [الكهف ١٨ / ١٧].

١١ ـ لما بيّن الله تعالى أن للكفار ظللا من النار من فوقهم ومن تحتهم ، بيّن أن للمتقين غرفا فوقها غرف ، أي علالي مرتفعة فوقها علالي مبنية كبناء منازل الأرض ، لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا ، وللنار دركات بعضها أسفل من بعض.

والجنة مزدانة بأبهى أنواع الجمال ، فهي تجري من تحت غرفها الأنهار ، أي هي جامعة لأسباب النزهة ، وقد وعد الله بها عباده الأتقياء وعدا محققا كائنا لا شك فيه ، كما أوعد الكافرين بالنار ، وإن الله لا يخلف الميعاد الذي وعد به الفريقين.

حال الدنيا

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٢١)﴾

الإعراب :

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً يَجْعَلُهُ﴾ : فعل مضارع مرفوع ، وقرئ بالنصب ، وهي قراءة ضعيفة.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم ﴿مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ من السحاب مطرا ﴿فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ﴾ أدخله عيونا وأمكنة نبع ، والينابيع : جمع ينبوع : وهو عين الماء ﴿يَهِيجُ﴾ ييبس ويجف ﴿فَتَراهُ مُصْفَرًّا﴾ تشاهده بعد الخضرة مثلا مصفرا ﴿أَلْوانُهُ﴾ أنواعه وأصنافه ﴿حُطاماً﴾ فتاتا مكسرا ﴿لَذِكْرى﴾ تذكيرا بأنه لا بد من صانع حكيم دبره وسوّاه ﴿لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ لأصحاب العقول ، فهم لا غيرهم الذين يتذكرون به للدلالة على وحدانية الله تعالى وقدرته.

المناسبة :

بعد أن وصف الله تعالى الآخرة بصفات تقتضي الرغبة فيها ، وفي طاعة الله ، وصف الدنيا بصفة تستوجب النفرة منها ، وهي قصر مدتها وسرعة زوالها. وإنما قدم وصف الآخرة ، لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات ، والتنفير عن الدنيا مقصود عرضا.

التفسير والبيان :

ألم تشاهد أيها الرسول وكل مخاطب أن الله أنزل من السحاب مطرا ، فأدخله

وأسكنه في الأرض ، ثم أخرج منها عيونا متدفقة بالماء ، ثم تسقى به الأرض ، فيخرج بذلك الماء من الأرض زرعا مختلفا أنواعه ، كبّر وشعير وخضار وغيرهما ، ومختلفا ألوانه ، من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر وغيرها من الألوان البديعة الأخاذة.

ثم ييبس ويجف ، فتراه مصفرا بعد خضرته ونضارته ، ثم يصير متفتتا متكسرا ، وإنّ فيما تقدم ذكره من إنزال المطر وإخراج الزرع به موعظة ينتفع بها أهل العقول الصحيحة ، وتذكرة وتنبيها على حكمة فاعل ذلك وقدرته.

فهؤلاء يعلمون بأن حال الحياة الدنيا كحال هذا الزرع في سرعة الزوال والانقطاع ، وذهاب بهجتها ، وتلاشي رونقها ونضارتها ، ولم يبق لديهم شك في أن الله قادر على البعث والحشر.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ ، وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً**﴾ [الكهف ١٨ / ٤٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآية تدل على قدرة الله في إحياء الخلق ، والتمييز بين المؤمن والكافر ، فهو قادر على ذلك ، كما أنه قادر على إنزال الماء من السماء ، أي إنزال المطر من السحاب.

وهي أيضا ترغب في الآخرة لخلودها ، وتنفر من الدنيا لتوقيتها وقصر مدتها وسرعة زوالها وانقضائها.

فهذه الدنيا الفانية متاعها زائل ، وزخرفها باهت ، وهي متحولة متغيرة لا تبقى على حال واحدة ، ونهايتها محتومة ، كما قال تعالى : ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْها**

فانٍ ، ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٦ ـ ٢٧] وقال سبحانه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص ٢٨ / ٨٨].

والخلاصة : أن الآية مثل لحال الدنيا ، يتعظ بها كل ذي عقل سليم ، بعيد النظر ، عميق الفكر والتأمل ، ينظر إلى المستقبل الحتمي نظرة اليقظ الحذر ، المستعدّ العامل.

الهداية للإسلام

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾

الإعراب :

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً﴾ كتابا بدل من أحسن.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ الواو للحال ، وقد : مقدّرة.

البلاغة :

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ﴾؟ إيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ل حذف خبره وتقديره : كمن طبع الله على قلبه؟ ومثله : ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾ وجوابه كمن أمن منه بدخول الجنة.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أي وقيل لهم ، وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا للظلم عليهم وإشعارا بما يوجب القول لهم ، وهو : ﴿ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿يَهْدِي﴾ و ﴿يُضْلِلِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿شَرَحَ﴾ فتح وبسط ، والمراد : خلق نفسه شديدة الاستعداد لقبول الإسلام ﴿صَدْرَهُ﴾ أي قلبه ، فاهتدى ، من حيث إن الصدر محل القلب منبع الروح المتعلق بالنفس القابلة للإسلام ، وجواب الاستفهام محذوف تقديره : كمن طبع الله على قلبه ، بدليل ما بعده وهو : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ويل : كلمة عذاب ، والقاسية قلوبهم : المعرضة عن قبول القرآن ، والقسوة : جمود القلب وصلابته. وقوله المتقدم : ﴿فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني نور المعرفة والاهتداء إلى الحق ، والنور : البصيرة والهدى ، قال صلي الله عليه وآله وسلم : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» وسيأتي الحديث بتمامه ﴿مُبِينٍ﴾ بيّن واضح.

﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿كِتاباً﴾ قرآنا ﴿مُتَشابِهاً﴾ في النظم والمعنى ، أي يشبه بعضه بعضا في الإعجاز ، وحسن النظم ، والدقة ، وصحة المعنى والإحكام ﴿مَثانِيَ﴾ جمع مثنى ، من التثنية : التكرار ، أي ثنى فيه الوعد والوعيد وغيرهما ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ تضطرب وتتحرك وترتعد خوفا عند ذكر وعيده ﴿يَخْشَوْنَ﴾ يخافون ﴿تَلِينُ﴾ تطمئن وتسكن ﴿إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ عند ذكر وعده ﴿ذلِكَ﴾ الكتاب ﴿هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ هدايته ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ ومن يخذله ﴿فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ يخرجه من الضلالة.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ﴾ يجعله درقة (ترسا) يقي به نفسه أشد العذاب ، بأن يلقى في النار مغلولة يداه إلى عنقه ، والجواب محذوف تقديره : كمن أمن منه بدخول الجنة ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ كفار مكة وأمثالهم ﴿ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي ذوقوا وباله وجزاءه.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي كذبوا رسلهم في إتيان العذاب ﴿فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ﴿الْخِزْيَ﴾ الذل والهوان ﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ كالقتل والسبي والإجلاء والخسف والمسخ ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو كان المكذبون يعلمون عذاب الآخرة ما كذبوا.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٣):

﴿اللهُ نَزَّلَ﴾ : روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال : نزل على النبي صلي الله عليه وآله وسلم القرآن ، فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يا رسول الله ، لو حدثتنا؟ فنزل : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾. وعن ابن عباس : أن قوما من الصحابة قالوا : يا رسول الله ، حدّثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر ، فنزل : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى ما يوجب الإقبال على الآخرة بطاعة الله تعالى ، وما يوجب الإعراض عن الدنيا ، أوضح أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونوّر القلوب ، ثم أوضح أن من أضله الله فلا هادي له ، وأن من يلقى في النار ليس كمن آمن وأمن ، فدخل الجنة ، وأن مكذبي الرسل لهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة.

التفسير والبيان :

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ؟﴾ أي أفمن وسّع الله صدره للإسلام ، فقبله واهتدى بهديه ، فهو بسبب هذه الهداية على بصيرة ونور من ربه يفيض عليه ، أي نور المعرفة والاهتداء إلى الحق ، كمن قسا قلبه لسوء اختياره وغفلته وجهالته ، فصار في ظلمات الضلالة وبليّات الجهالة؟!.

والمعنى : أنه لا يستوي المهتدي المهدي الموفق للإسلام والحق ومن هو قاسي القلب ، البعيد عن الحق ، كما قال تعالى : ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً ، فَأَحْيَيْناهُ ، وَجَعَلْنا

﴿لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٢] وقال تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٥].

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قلنا : يا رسول الله ، قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ ، فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ كيف انشرح صدره؟ قال : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح ، قلنا : يا رسول الله ، وما علامة ذلك؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله».

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر : أن رجلا قال : يا رسول الله ، أي المؤمنين أكيس؟ قال : «أكثرهم للموت ذكرا ، وأحسنهم له استعدادا ، وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع ، قالوا : فما آية ذلك يا نبي الله؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

ثم ذكر عقاب قساة القلوب للدلالة على الكلام المحذوف الذي قدر ، فقال :

﴿فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ، أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي فالعذاب الشديد لمن لا تلين قلوبهم عند ذكر الله ، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ، أولئك قساة القلوب في ضلال واضح عن الحق ، وغواية ظاهرة لكل الناس.

أخرج الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي».

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قال : «قال الله تعالى : اطلبوا

الحوائج من السّمحاء ، فإني جعلت فيهم رحمتي ، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم ، فإني جعلت فيهم سخطي».

وقال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب ، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم.

ثم وصف الله القرآن الذي يشرح الصدر ، فقال :

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ أي الله [١] نزل أحسن الأحاديث وهو القرآن ، لما فيه من الخيرات والبركات والمنافع العامة والخاصة ، وهو كتاب يشبه بعضه بعضا في جمال النظم وحسن الإحكام والإعجاز ، وصحة المعاني ، وقوة المباني ، وبلوغه أعلى درجات البلاغة ، وتثنى فيه القصص وتردد ، وتتكرر فيه المواعظ والأحكام من أوامر ونواه ووعد ووعيد ، ويثنى في التلاوة فلا يملّ سامعه ، ولا يسأم قارئه.

إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ، كما قال الزجاج ، وتضطرب النفس وترتعد بالخوف مما فيه من الوعيد. ثم تسكن وتطمئن الجلود والقلوب عند سماع آيات الرحمة ، قال قتادة : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم بأنها تقشعر جلودهم ، ثم تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم ، إنما ذلك في أهل البدع ، وهو من الشيطان.

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرئ عليهم القرآن ، كما نعتهم الله ، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم.

---

(١) الابتداء باسم الله وإسناد ضمير نَزَّلَ إليه : فيه تفخيم للمنزّل ورفع منه ، كما تقول : الملك أكرم فلانا.

قيل لها : فإن أناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن ، خر أحدهم مغشيا عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ أي ذلك الكتاب أو القرآن هو هداية الله يهدي به من يشاء هدايته ويوفقه للإيمان ، وهذه صفة من هداه الله ، ومن كان على خلاف ذلك ، فهو ممن أضله الله.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ أي من يخذله الله عن الإيمان بالقرآن من الفساق والفجرة ، فلا مرشد له.

ثم أبان الله تعالى سبب التفرقة بين المهتدي والضال ، فقال :

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ؟﴾ هذا مثل قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٠]. والمعنى : أمن يتقحم نار جهنم ، فلا يجد ما يتقي به سوى وجهه ، ليتقي العذاب الشديد يوم القيامة ، كمن هو آمن لا يعتريه شيء من المخاوف أو المكروه ، ولا يحتاج إلى اتقاء المخاوف ، بل هو سالم من كل سوء ، مطمئن في جنة الله؟! أي لا يستوي هذا وذاك ، كما قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك ٦٧ / ٢٢].

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ : ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي : وحين يقال للكافرين : ذوقوا جزاء كسبكم من المعاصي في الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة ٩ / ٣٥].

ثم ذكر تعالى عذاب مكذبي الرسل من الأمم الماضية في الدنيا ، فقال : ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ، فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي إن بعض

الأمم الماضية الذين كذبوا الرسل ، أهلكهم الله بذنوبهم ، وأتاهم العذاب من جهة لا يترقبون إتيان العذاب منها ، وذلك عند أمنهم وغفلتهم ، فأذاقهم الله الذل والهوان بما أنزل بهم من العذاب والنكال ، كالخسف والمسخ والقتل والسبي والأسر وغير ذلك.

ثم إن عذاب الآخرة أشد وأنكى وأعظم مما أصابهم في الدنيا ، لكونه في غاية الشدة والدوام ، لو كانوا ممن يعلم ويتفكر ويعمل بمقتضى علمه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لا يستوي المهتدي الذي شرح الله صدره للإسلام ، فهو على هدى من ربه ، ومن طبع على قلبه وحرم الهداية ، فالويل ثم الويل لقساة القلوب المعرضين عن ذكر الله ، فهم في ضلال واضح.

٢ ـ القرآن الكريم هو أحسن الحديث ، أي أن أحسن ما يسمع هو ما أنزله الله وهو القرآن ، وهذه هي الصفة الأولى للقرآن.

ومن خصائصه وصفاته : أنه متشابه بعضه مع بعض في الحسن والحكمة والإحكام أي في النظم والمعنى ، ويصدق بعضه بعضا ، ليس فيه تناقض ولا اختلاف. وأنه مثاني أي تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام ، وتثنى تلاوته فلا يملّ منه ، وأنه يجمع بين الترهيب والترغيب ، فالنفس المؤمنة به تضطرب وتخاف مما فيه من الوعيد ، ثم تطمئن وتسكن عند سماع آيات الرحمة. وأنه هدى الله الذي يهدي به من يشاء هدايته ، وأما من يضله ويخذله من الفساق والفجار المعرضين عنه ، فلا مرشد له. فهذه صفات خمس للقرآن المجيد.

٣ ـ لا يستوي عقلا وعدلا وواقعا رجلان : أحدهما يرمى به مكتوفا في

النار ، فأول شيء تمس منه النار وجهه ، ومن هو آمن من العذاب لا يتعرض لشيء من المكروه والمخاوف. ويقال للظالمين الكافرين تبكيتا وتوبيخا : ﴿ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

٤ ـ إن عقاب الأمم الماضية المكذبة بالرسل نوعان : عقاب في الدنيا بالمسخ والخسف والزلزلة والصيحة والريح الصرصر والغرق والقتل والأسر والتشريد والذل والهوان ونحو ذلك ، مما أتاهم من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها ، وعقاب آخر أشد وأنكى وأكبر وأعظم مما أصابهم في الدنيا ، لو علموا به وتفكروا وتأملوا ، وعملوا بمقتضى علمهم.

والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب.

عربية القرآن وضرب الأمثال فيه

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾

الإعراب :

﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا قُرْآناً﴾ : توطئة للحال أو حال مؤكدة ، و ﴿عَرَبِيًّا﴾ : حال من القرآن.

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً ..﴾ بدل من ﴿مَثَلاً﴾ تقديره : ضرب الله مثلا مثل رجل ، فحذف المضاف.

و ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ مرفوع بالظرف على المذهبين : البصري والكوفي ، لأن الظرف وقع صفة لقوله : ﴿رَجُلاً﴾. و ﴿رَجُلاً سَلَماً﴾ معطوف على قوله : ﴿رَجُلاً﴾ الأول ، أي مثل رجل سالم.

﴿هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً﴾ تمييز.

المفردات اللغوية :

﴿ضَرَبْنا﴾ جعلنا ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ لا اختلال فيه بوجه من الوجوه ، ولا لبس ولا اختلاف ﴿يَتَّقُونَ﴾ الكفر.

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ للمشرك والموحد ، وضرب المثل : تشبيه حال غريبة بحال أخرى مثلها ﴿مُتَشاكِسُونَ﴾ متنازعون مختلفون لسوء أخلاقهم وطباعهم ﴿سَلَماً﴾ سالما خالصا ﴿هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً﴾ أي لا يستوي العبد المملوك لجماعة ، والعبد لواحد ، فإن الأول يحتار فيمن يخدم من أسياده إذا طلبوه وهو مثل للمشرك ، والثاني مثل للموحد.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له وحده ، لا يشاركه فيه على الحقيقة سواه ، لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر أهل مكة والكفار لا يعلمون ما ينتظرهم من العذاب ، فيشركون بالله غيره ، لفرط جهلهم.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ إنك يا محمد ميت ، والكل سواء في الموت ، ستموت ويموتون ، فلا شماتة بالموت. نزلت الآية لما استبطؤوا موته ص. والميّت (بالتشديد) من سيموت ، والميت (بالتخفيف) من مات ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أيها الناس ، فيه تغليب المخاطب على الغائب ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ تحتكمون للقضاء فيما حدث بينكم من المظالم.

المناسبة :

بعد بيان صفات القرآن الخمس المتقدمة والتي على رأسها أنه ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ ذكر تعالى خواص أخرى للقرآن : هي أنه يضرب فيه الأمثال للناس تخويفا وتحذيرا ، وأنه قرآن متلو إلى يوم القيامة ، وأنه عربي اللسان ، وغير ذي عوج ، أي بريء من التناقض.

ثم ذكر فيه مثلا عجيبا للمؤمن الموحد والمشرك ، يدل على فساد مذهب المشركين ، بعد أن أفاض تعالى في شرح وعيد الكفار في هذه السورة.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لقد بيّنا للناس المطلوب فيه بضرب الأمثال ، من كل مثل يحتاجون إليه في أمر دينهم ، ومن أمثال القرون الخالية تخويفا لهم وتحذيرا ، والمثل يقرّب المعنى إلى الذهن ، لعلهم يتعظون ، فيعتبرون. قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ ، وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٤٣]. والخلاصة : أن الحكمة في ضرب الأمثال للناس هي أن تكون عظة وذكرى لهم ليتقوا ربهم ، ويرتدعوا عن غيهم.

ووصف القران بصفات ثلاث : هي كونه قرآنا أي كونه متلوا في المحاريب إلى قيام القيامة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ [الحجر ١٥ / ٩]. وكونه عربيا بلسان عربي مبين ، أي أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، كما قال سبحانه : ﴿قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٨٨]. وكونه غير ذي عوج ، أي براءته من التناقض ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ ، لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء ٤ / ٨٢]. وذلك لعلهم يتقون ما حذرناهم منه من بأس الله وسطوته.

وإنما قدم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ على ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لأن التذكر متقدم على الاتقاء ، لأنه إذا اتعظ به وفهم معناه ، حصل الاتقاء والاحتراز.

ثم ذكر تعالى مثلا للمؤمن الموحد والكافر المشرك ، فقال :

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً ، فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ ، وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ، هَلْ

﴿يَسْتَوِيانِ مَثَلاً﴾؟ أي ضرب الله مثلا للمشرك في صنعه لا في معبوده ، الذي يعبد أكثر من إله ، بحالة رجل عبد مملوك يملكه عدد من الرجال ، مختلفون فيما بينهم ، متنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ، متعاسرون ، لسوء أخلاقهم وطباعهم ، كل له رأي وحاجة ، فإذا طلب كل واحد من السادة من هذا العبد شيئا أو حاجة ، فما ذا يفعل ، وكيف يرضي جميع الشركاء؟ كذلك المشرك في عبادته آلهة متعددة لا يتمكن من إرضاء جميع تلك الآلهة.

وضرب الله مثلا آخر للمؤمن الموحد بحالة رجل آخر مملوك لشخص واحد ، لا يشاركه فيه غيره ، فإذا طلب منه شيئا لبّاه دون ارتباك ولا حيرة ، وهذا كالمسلم الذي لا يعبد إلا الله ، ولا يسعى لإرضاء غير ربه ، فهل يكون في طمأنينة أم في حيرة؟

هذان المملوكان هل يستويان صفة وحالا؟ أي لا يستوي هذا وهذا ، فكذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله ، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له ، فأين هذا من هذا؟

ولما كان هذا المثل ظاهرا بيّنا جليا ، قال تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي الحمد لله على إقامة الحجة عليهم ، وعلى أن الحمد لله لا لغيره ، وعلى التوفيق للإسلام والحق ، بل أكثر الناس لا يعلمون هذا الفرق ، فيشركوا مع الله غيره.

ونظرا لجهل أكثر الناس بالحق وعدم انتفاعهم بهذا المثل ، أخبر تعالى تهديدا بالموت بأن مصير الخلائق كلهم إلى الله ، وهناك يتقاضون في المظالم بين يدي الله ، فقال :

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي إنك أيها الرسول ستموت ، وهم سيموتون ، ثم يحصل التقاضي عند الله ، فيما اختلفتم

فيه في الدنيا من التوحيد والشرك ، وسيحكم الله بينكم يوم القيامة ، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

وقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ ..﴾ نعي أجل رسول صلي الله عليه وآله وسلم وإعلام الصحابة بأنه يموت ولا يخلد في الدنيا ، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت ، وهو أيضا حث لكفار قريش على انتهاز الفرصة ، والمسارعة إلى الإيمان ، وتلقي الوحي عن النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، لأن إقامته فيهم قليلة ، وليس خالدا بينهم.

وقوله : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ليس خاصا بالمؤمنين والكافرين في التخاصم بينهم في الدار الآخرة ، وإنما هي شاملة لكل متنازعين في الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الآخرة. وهو دليل على أن محمدا صلي الله عليه وآله وسلم سيخاصم قومه ويحتج عليهم بأنه قد بلغهم الرسالة وأنذرهم ، وهم يخاصمونه ، ويعتذرون بما لا معنى له.

روى الترمذي ـ وقال : حسن صحيح ـ عن الزبير بن العوام ﷺ قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير ﷺ : أي ، رسول الله ، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا ، مع خواص الذنوب؟ قال صلي الله عليه وآله وسلم : «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه».

وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر ﷺ قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «أول الخصمين يوم القيامة جاران».

وروى الإمام أحمد أيضا عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : «والذي نفسي بيده ، إنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا».

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله

صلي الله عليه وآله وسلم : «يجاء بالإمام الجائر الخائن يوم القيامة ، فتخاصمه الرعية ، فيفلحون عليه ، فيقال له : سدّ ركنا من أركان جهنم».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الآتي :

١ ـ القرآن الكريم كتاب شامل كامل لم يترك شيئا من أمر الدنيا والآخرة إلا بينه وأجلاه ، حتى بالأمثال الموضحة للناس معانيه ومراميه ، قال تعالى : ﴿**ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام ٦ / ٣٨].

والقرآن الكريم عظة وتذكير ، وسبب اتقاء الكفر وتكذيب الرسل. وخواصه : أنه قرآن متلو في المحاريب وغيرها إلى يوم القيامة ، ونزل بلسان عربي مبين ، ولا تناقض ولا اختلاف فيه.

٢ ـ إن مذهب المشركين في عبادة الأوثان وتعدد الآلهة فاسد باطل لا يقبله عاقل صحيح العقل ، ومن عوامل بطلانه وتهافته أنه لا يحقق لذويه غاياتهم ، وأبسط دليل على ذلك هو هذا المثل الذي ضربه القرآن هنا للمؤمن الموحد والكافر المشرك.

مثل الأول الذي يعبد الله وحده : مثل رجل عبد مملوك لسيد واحد ، يستطيع إرضاءه وتحقيق مراده. ومثل الثاني الذي يعبد آلهة متعددة : مثل رجل عبد مملوك لعدة شركاء ، يطلبون منه في الخدمة مطالب متعارضة ، فكيف يستطيع إرضاء الكل؟ وأخلاقهم متباينة ، ونياتهم متغايرة ، لا يلقاه أحد إلا استخدمه في حوائجه الخاصة ، فتراه يلقى منهم العناء والنصّب والتعب الشديد ، وهو مع ذلك لا يرضي واحدا منهم بخدمته ، لكثرة الحقوق والواجبات الملقاة على عاتقه ، مما يجعله ينفر ويأبق ويهرب ولا يستمر على هذا النحو من العذاب.

أما الذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد ، إذا أطاعه وحده ، عرف ذلك له ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم؟!

لذا ختم الله تعالى بيانه بتعليمنا فضله علينا ، وإرشادنا إلى حمده وشكره والثناء عليه على أن هدانا للإسلام ، ووفقنا للحق ، بعد ظهور الحجة على الكافرين ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق ، فيتبعونه.

٣ ـ إن مصير جميع الخلائق إلى الله لحسابهم وتصفية منازعاتهم والقضاء العدل فيهم ، سواء المؤمنون والكافرون ، فيتخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم ، وورد في خبر عن ابن منده عن ابن عباس : «إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاجّ الروح الجسد».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلي الله عليه وآله وسلم قال : «من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال ، فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح ، أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه ، فحملت عليه».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ أيضا أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قال : «أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم : إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح في النار».

وقال أبو سعيد الخدري : كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفّين ، وشد بعضنا على بعض بالسيوف ، قلنا : نعم هو هذا.

فهرس

الجزء الثالث عشر

تتمة قصة أصحاب القرية ـ تعذيب مكذبي الرسل ١
أدلة القدرة الإلهية على البعث وغيره ٩
موقف الكفار من تقوى الله وآيات الله والشفقة على خلق الله ٢١
إنكار الكفار يوم البعث وبيان أنه حق لا شك فيه ٢٥
جزاء المحسنين ٣١
جزاء المجرمين ٣٤
إثبات وجود الله ووحدانيته وبيان خواص الرسالة ٤٢
إثبات البعث ٥٢
سورة اصافات ٦٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها ٦٠
مشتملاتها ٦١
إعلان وحدانية الله ٦٢
تزيين السماء بالكواكب ٦٥
إثبات المعاد ـ الحشر والنشر والقيامة ٧١
مسئولية المشركين في الآخرة وأسبابها ٧٨
جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين المخلصين ٨٧
جزاء الظالمين وأنواع العذاب في جهنم ٩٧

قصة نوح عليه السلام ١٠٤
قصة إبراهيم عليه السلام ١٠٨
١ ـ تحطيم الأصنام ١٠٨
٢ ـ قصة الذبيح ١١٧
قصة موسى وهارون عليهما السلام ١٢٩
قصة إلياس عليه السلام ١٣٢
قصة لوط عليه السلام ١٣٦
قصة يونس عليه السلام ١٣٨
تفنيد عقائد المشركين ١٤٤
نصر جند الله تعالى ١٥٥
سورة ص ١٦١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها ١٦١
مشتملاتها ١٦٢
مناقشة المشركين في عقائدهم ١٦٣
إنذار الكفار بحال الأمم المكذبة قبلهم ١٧٣
قصة داود عليه السلام ١٧٨
إثبات البعث والثواب والعقاب وبيان فضل القرآن ١٩٢
قصة سليمان عليه السلام ١٩٦
قصة أيوب عليه السلام ٢٠٥
قصة إبراهيم وذريته عليهم السلام ٢١٢
إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل ٢١٢
عقاب الطاغين الأشقياء ٢١٨
بعض أدلة صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٢٢٤

قصة آدم عليه السلام ٢٢٨
حال الداعي وحال الدعوة ومعجزة القرآن ٢٣٤
سورة الزّمر ٢٣٨
تسميتها ومناسبتها لما قبلها ٢٣٨
مشتملاتها ٢٣٩
مصدر القرآن والأمر بالعبادة الخالصة لله تعالى ٢٤١
من أدلة التوحيد وكمال القدرة وكمال الاستغناء ٢٤٦
تناقض الكفار واستقامة المؤمنين ٢٥٥
نصائح للمؤمنين في العبادة ووعدهم ووعيد عبدة الأصنام ٢٦١
حال الدنيا ٢٧٣
الهداية للإسلام ٢٧٥
عربية القرآن وضرب الأمثال فيه ٢٨٢